أسامة عجاج المهتار

إدارة الاستراتيجية في المنظمة العقائدية



أنطون سعادة نموذجًا
الحزب السوري القومي الاجتماعي



مؤسسة سعادة للثقافة

أسامة عجاج المهتار

إدارة الاستراتيجية
في المنظمة العقائدية

أنطون سعادة نموذجًا
الحزب السوري القومي الاجتماعي



إدارة الاستراتيجية في المنظمة العقائدية

أنطون سعادة نموذجًا
الحزب السوري القومي الاجتماعي

تأليف: اسامة عجاج المهتار

الترقيم الدولي: 9-15-419-9953

الناشر:
مؤسسة سعادة للثقافة
ص. ب.: 113-6121 بيروت- لبنان
www.saadehfoundation.org

الطبعة الأولى 2009

Strategy Execution in Ideological Organizations

Case Study: Antoun Saadeh and the Syrian Social Nationalist Party

Oussama El-Mohtar

ISBN: 99539-15-419-

Published by:

Saadeh Cultural Foundation
P .O .Box 6121-113: Beirut – Lebanon
www.saadehfoundation.org

First edition 2009

الفهرس

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر أولاً من الدكتور عبد الله أبو نعمة، صديقي وزميلي، وأول من عرّفني إلى علم التخطيط الاستراتيجي وشجعني على الاستمرار في دراسته، ولمجموعة تطوير الأعمال في دولة الإمارات العربية المتحدة التي سمحت لنا باستخدام بعض موادها التدريبية.

وأشكر مؤسسة سعادة للثقافة بشخص رئيستها الأمينة جزيلة الاحترام هيام نصر الله محسن، وأعضاء هيئتها الإدارية للآراء التي قدموها عن الكتاب، ولتبنيهم فكرته ومشروع نشره.

وأشكر الأمناء جزيلي الاحترام علي غندور وسهيل رستم وهنري حاماتي وأحمد أصفهاني ومحمد غملوش، وكل من أنطوان بطرس وسمير الريّس وغسان إلياس، ود. عادل بشارة، وفادي خوري، ومعن عيسى على آرائهم ونقدهم لمسوّدة الكتاب.

والشكر طبعًا للصديق أحمد عيد مراد الذي رافقني في جميع أعمالي تنقيحًا وتهذيبًا للّغة.

آمل أن يسهم هذا الكتاب في تطوير مفاهيم الإدارة الاستراتيجية في العالم العربي ومؤسساته السياسية والإدارية.

أسامة

تمهيد

يسر مؤسسة سعادة للثقافة أن تضع بين يدي القارئ العربي هذا الكتاب انطلاقًا من رسالتها، ومن قناعتها أنه يسد ثغرتين أساسيتين في الدراسات الاستراتيجية، الإداريّة منها والسياسيّة:

- إنه يقدم منهجية جديدة لدراسة المنظمات العقائدية وفق مفاهيم علم التخطيط الاستراتيجي الحديث.
- إنه يعيد قراءة أنطون سعادة وتاريخ نشأة الحزب السوري القومي الاجتماعي، وفق ما يسميه الكاتب "إطار أنطون سعادة لإدارة الخطة الاستراتيجية"، وهذا في حدّ ذاته، يؤدي إلى فهم جديد لمرحلة تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي والإضاءة على عدد من قواعد عمله الأساسية، وصولاً إلى مقاربة جديدة لواقعه ومعاناته اليوم.

إن الحاجة القومية والعربية والإنسانية التي يبرزها المؤلف لنظرة سعادة إلى الحياة، والإضاءة الجديدة على القواعد الأساس التي وضعها لحزبه عقيدة وغاية وأخلاقًا ونظامًا جديدًا ونهجًا عمليًا، تسمح لنا بالقول إن أنطون سعادة لن يُقرأ بعد هذا الكتاب كما قُرئ من قبله.

مؤسسة سعادة للثقافة

المنهجيَّة المعتمدة

تختلف المنظمة العقائديَّة عن سواها في أنها ترتكز على ثلاث دعائم أساسيَّة هي الالتزام بعقيدة واضحة تهدف إلى تحسين الحياة، تنطلق منها لتحقيق غاية معينة وفق نظام أخلاقي صارم. إن قيادة مثل هذه الحركات وإيصالها إلى انتصار غايتها عمليَّة معقدة تحتاج إلى إطار سليم لإدارة استراتيجيتها، وإلى قيادة حكيمة ومحنّكة تحسن استخدام هذا الإطار.

غالبًا ما تصطدم هذه المنظمات بواقع يدفعها إلى التخلي عن واحد أو أكثر من هذه الأسس فتتهدد وحدتها الداخلية وتتعرض للتصدع. ما ينقذها في مثل هذه الحالات هو متانة أساسها الإستراتيجي، ومرونة إطار إدارتها، وحكمة أعضائها قيادة ومنتسبين.

يستخدم هذا الكتاب منهجيَّة خاصة ربَّما تكون فريدة من نوعها في دراسة مثل هذه المنظمات. إنَّه يأخذ كنموذج، الحزب السوري القومي الاجتماعي، أحد أول "المنظمات العقائدية" في العالم العربي – تأسس سنة 1932 - فيدرس أساسه العقائدي وخطَّته وتاريخ نشأته الأولى، وإطار إدارة استراتيجيّته، الذي وضعه مؤسسه، أنطون سعادة، انطلاقًا من أسس علم التخطيط الاستراتيجي الحديث بغية الحصول على أجوبة عن أسئلة ثلاثة:

1. إلى أيٍّ مدى تتطابق أسس هذا الحزب مع أسس ذاك العلم؟
2. إلى أي مدى نجح الحزب في تحقيق غايته وأهدافه، وما هي العقبات التي تعترض طريقه؟
3. وهل يمكن لمفاهيم التخطيط الاستراتيجي أن تساعد المنظمات العقائدية في تحقيق غاياتها؟

ومع أن المنظمات العقائدية تختلف فيما بينها عقيدة وغاية ونظامًا أخلاقيًا، إلا أن ما

تقديم

ليس الغرض من هذه السطور عرض الكتاب وما يهدف إليه بالتفصيل، وإنما التعريف بمنهجيته والمقاربة التي يطرحها في إطار ترشيد العمل التنظيمي العقائدي. إنها مقاربة جديدة تعتمد رؤية جديدة قوامها التحليل الاستراتيجي.

يُخيَّل لكثيرين أن الاستراتيجية مسألة تنحصر بالحروب والنزاعات فحسب. وليس أبعد من ذلك عن الصواب. فالعمل السياسي وما يرافقه من صراع ليس حالة عسكرية بحتة ولا محدودة مكانًا أو زمانًا. بل هو عمل متنوع ومتعدد المتغيرات عقلاني وواع.

وإذا كانت الاستراتيجية، في أبسط قوانينها وأكثرها شهرة، هي فن إلحاق الهزيمة بالعدو بأرخص الأثمان ومن دون قتال إن أمكن، فهي في الوقت نفسه مقرونة أيضًا بالإدارة لأنها، في أبسط معانيها أيضًا تعني التخطيط بعيد المدى والمتجانس لتحقيق الأهداف المرسومة.

من هنا أهمية الدعوة التي يحملها هذا الكتاب للنظر إلى البنى السياسية والصراعات السياسية بطريقة جديدة ومنهجية جديدة وقواعد وآليات جديدة.

فما هي هذه المقاربة المربوطة بكل هذه الإضافات الجديدة؟ إنها تعني:

- النظر إلى المنظومة العقائدية كمشروع ينطلق من رؤية واضحة بعيدة المدى وقواعد إدارية خاضعة للتقويم المرحلي ولدراسة الجدوى.
- تحديد الأهداف على المديين القصير والبعيد وتوضيحها بشكل موضوعي يحدد المصالح واحتمالات الخسائر.
- توظيف جميع القوى والطاقات بصورة منسقة مبرمجة خدمة للأهداف المرسومة ووفقًا للخطة الرئيسية التي تشكل الاستراتيجية الكبرى.

والكتاب الذي نحن بصدده محاولة جادة وأصيلة لوضع هذه المنهجية ومأسستها في العمل

يجمعها، أي قيامها على أسس العقيدة والغاية والنظام الأخلاقي، يسمح لنا، عبر دراسة واحدة منها، استخلاص عبر مشتركة تستفيد منها المنظمات العقائدية في شكل عام.

يقسَّم الكتاب إلى أربعة أقسام. القسم الأوَّل، تحت عنوان: "علم التخطيط الاستراتيجي" يركِّز على هذا العلم وأهميَّته ومصطلحاته واثنتين من منهجيَّاته التي سوف نستعين بهما في الأقسام والفصول اللاحقة المتعلِّقة بالحزب.

القسم الثاني، تحت عنوان: "أنطون سعادة والاستراتيجيا"، يضمُّ ثلاثة فصول ندرس فيها الأسس التي اعتمدها سعادة في تأسيس الحزب وفي وضع غايته وخطَّته.

القسم الثالث، تحت عنوان: "إطار إدارة الاستراتيجية" ويتضمّن أربعة فصول عن الإطار الذي وضعه سعادة لإدارة استراتيجيته وأبرز المشاكل التي واجهته.

القسم الرابع، وعنوانه: "كي لا تزول ويتبدَّد أتباعها"، يضمُّ ثلاثة فصول، ندرس في الأوَّل منها وضع الحزب الحالي، وجذور مشكلته التي تبدو مستعصية. وندرس في الثاني واحدة من أصعب الأزمات التي عاشها، ونقدِّم في الثالث خلاصة لبعض الشروط التي نرى أنها ضرورية لتحقيق غايته.

إذا كانت المنظمات العقائدية تختلف عن سواها من المنظمات فإنه من الطبيعي أن تختلف مقاييس نجاحها عن سواها أيضًا. ومقياس النجاح في المنظمات العقائدية هو مدى نجاحها في تحقيق غايتها ولا مقياس لها سواه. وقد خصصنا جزءًا من الفصل الثالث في القسم الثاني لدراسة معايير القياس الضرورية للحزب السوري القومي الاجتماعي.

ملاحظة أخيرة عن المراجع: معظم المراجع التي استخدمت في هذا الكتاب، لا سيما من تراث سعادة، أخذت من نسخة ممسوحة إلكترونيًا من "المجموعة الكاملة" لأعماله، أنجزها القيمون على موقع www.syrianaccount.com، ولهم الشكر على ذلك. غير أن المسح أخفى بعض صفحات المراجع، فاكتفينا بذكر الجزء من المجموعة وأضفنا عنوان المقال بحيث لا يكون هناك التباس. ذكر اسم المقال له إيجابية أخرى، هو وجود أكثر من مجموعة لتراث سعادة، وبترقيم صفحات مختلف، فيتمكن الباحث أو المراجع من العودة إلى المقال في أية مجموعة يريد.

التنظيمي العقائدي الذي يتسم عادة بالتشنج. وما من أدنى شك بأن هذه مقاربة جديدة في الفكر الحزبي المؤسساتي المتداول بالعربية. وقد تولى المؤلف تحليل فكر سعادة ومسيرته وانتهى إلى استنتاج هام وهو أن سعادة وضع عقيدته ومنهاج عمله وفق الأسس الاستراتيجية، وأن استراتيجيته قامت على ثلاث ركائز هي الإدارة والسياسة والحرب والتي تتفاعل في ما بينها بتوازن دقيق.

كثيرة هي الأعمال التي تؤرخ للحركات المنظمة. ولكنها في غالبيتها، إن لم تكن جميعها، تعتمد مدارس التحليل المتعارف عليها وكلها نظريات تعتبر الأهداف كآليات مستقلة. لهذا عجزت عن تفسير كثير من الظواهر التي أصابت المؤسسات السياسية. ويؤمل أن تكون هذه المقاربة الجديدة، الخارجة عن المألوف، بداية لنمط جديد من المقاربات الفكرية على ثلاث صعد: البنية الحزبية التنظيمية، ترشيد المسيرة الحزبية، تحليلها ونقدها. بمعنى أن هذه المقاربة تفيد كأسس للتقويم وكنهج بنيوي في العمل العقائدي في آن.

من أجل ذلك تبدو هذه المقاربة ضرورية. إنها توفر أداة لتحليل قضايا ومسائل تشغل بال المفكرين والساسة على السواء. وقد جمع المؤلف مجموعة قضايا شائكة احتلت حيزًا كبيرًا في ضمير الحركة تحت عنوان "أسباب الانحراف وآليته" وأخضعها للتحليل والتقويم من خلال هذه المنهجية. والجدير بالذكر فإنه بالرغم من أن المؤلف يركز على فترة 1932-1938، في تحليلاته كما وفي تقديم نموذجه البحثي، فإن المنهج يصح كقاعدة عامة على جميع التطورات اللاحقة وخاصة تلك التي لا تزال تبحث عن جواب كونها إما غامضة أو يستحيل الحصول على تفسير واعٍ مقنع لها بالوسائل العادية والتي وجدت ذروتها عام 1949 مع استشهاد سعادة. مثلاً:

- لماذا قبل سعادة بضغوط أركان الحزب لإعلان الثورة وهو غير مهيأ لها ؟
- ما هو القصد من الدعوة التي وجهها سعادة للحكومة اللبنانية في 16 حزيران 1949 لفض النزاع بالمبارزة على طريقة فرسان القرون الوسطى؟
- لماذا جازف سعادة وتوجه إلى اجتماعه مع حسني الزعيم؟
- لماذا يوجد اليوم "واقع سوري" و"واقع اردني" و"واقع لبناني" و"واقع فلسطيني" و"واقع عراقي" على غرار " الواقع اللبناني" خلال أربعينيات القرن الماضي؟

أضف إلى ذلك أن مقاربة جديدة من هذا النوع هي أداة هامة لترشيد عملية التأويل مجاراة للعصر وللقيم المتبدلة. لا حاجة للاستفاضة في شرح أهمية التأويل وسط التطورات والمتغيرات والضوابط الدولية، ولكن ما من أدنى شك في أن الحذر من التأويل ينتفي في ظل

معايير وضوابط - كعدم الخروج على الأساس وعدم الاستمرار في الجمود- تضمن سلامة الخطة على المدى البعيد.

وبقدر ما تبدو نتائج هذه الدراسة الطويلة الموثقة هامة، كذلك تبدو منهجية التحليل التي اعتمدها المؤلف بربطها بعلم الاستراتيجية والتي تفتح أفق واسعة بالنسبة لحزب استثنائي يأبى أن يندثر بل على العكس تمامًا يقوم رهانه على أجيال جديدة لم تولد بعد.

إنني على يقين لا يتزعزع بأن تعاقد سعادة مع القدر حتمي مهما طال الزمن فالساعة آتية لا ريب فيها. ولكن هذا الاعتقاد لا يجب أن يعفينا من العمل لتقريب الساعة، وإن طرح مبادرات فكرية منهجية مثل هذا الكتاب لن يبقي هذا الحلم صوفيًا.

أنطوان بطرس

(مؤلف كتاب "8 تموز قصة محاكة وإعدام أنطون سعادة")

القسم الأوَّل: علم التخطيط الاستراتيجي

"لا تستطيع إدارة ما لا يمكنك وصفه"

يختصُّ هذا القسم بتقديم عرض موجز عن علم التخطيط الاستراتيجي. ومع أنَّ مضمونه لا يتعلَّق بالحزب السوري القومي الاجتماعي تحديدًا، إلاَّ أنَّ أهميَّته تكمن في أنَّه يقدِّم خلفيَّة عامَّة وتعاريف ضروريَّة للمصطلحات والمفاهيم التي سترد في الفصول اللاحقة المتعلِّقة بالحزب.

تمهيد

لا يكاد المرء يدخل هذه الأيَّام إلى مؤسَّسة معتبرة، سواء أكانت حكوميَّة أم خاصَّة، إلاَّ ويرى في ردهتها لوحة تحمل نظرة المؤسَّسة، وأخرى تحمل غايتها.[1] ومع أنَّ هناك من لا يرى في هذه اللوحات سوى أداة للزينة، فإنَّ الواقع غير ذلك في المؤسَّسات الناجحة. إنَّ نظرة المؤسَّسة وغايتها هما جزء مهم من الأساس الاستراتيجي الذي تقوم عليه، ويحدِّد هويَّتها وعملها وثقافتها وأخلاقها، ويضبط نهجها ويوحِّد جهود العاملين فيها.

ما هو التخطيط الاستراتيجي؟ ماذا تعني عبارات: مثل "النظرة" و"الغاية" و"المواضيع والأهداف الاستراتيجيَّة" و"الخطط العمليَّة" و"مؤشِّرات الأداء" و"المعايير" أو "المقاييس"؟ وما هو الفرق بين هذه المفاهيم؟ سنحاول فيما يلي الإجابة عن هذه الأسئلة معتمدين على بعض التحديدات المستخدمة في علم الإدارة الحديث.

التخطيط الاستراتيجي

لكلمة "استراتيجيَّة" تعريفات متعدِّدة، لكن يتَّفق معظمها في كونها **الخيار أو الخيارات التي تنتقيها المؤسَّسة وتركِّز عليها لتحقيق غايتها وتعزيز نظرتها**. وإذا كان هناك أكثر من تعريف لماهية الاستراتيجيَّة، فمثله عدد كبير من المدارس في التخطيط الاستراتيجي، تعطي كلُّ واحدة منها تعريفًا مختلفًا. لأغراض هذا البحث سنستخدم التعريف التالي: التخطيط الاستراتيجي هو نظام العمليَّات الذي تتبعه المؤسَّسة في وضع أساسها الاستراتيجي وخطَّتها الاستراتيجيَّة وإطار إدارتها.

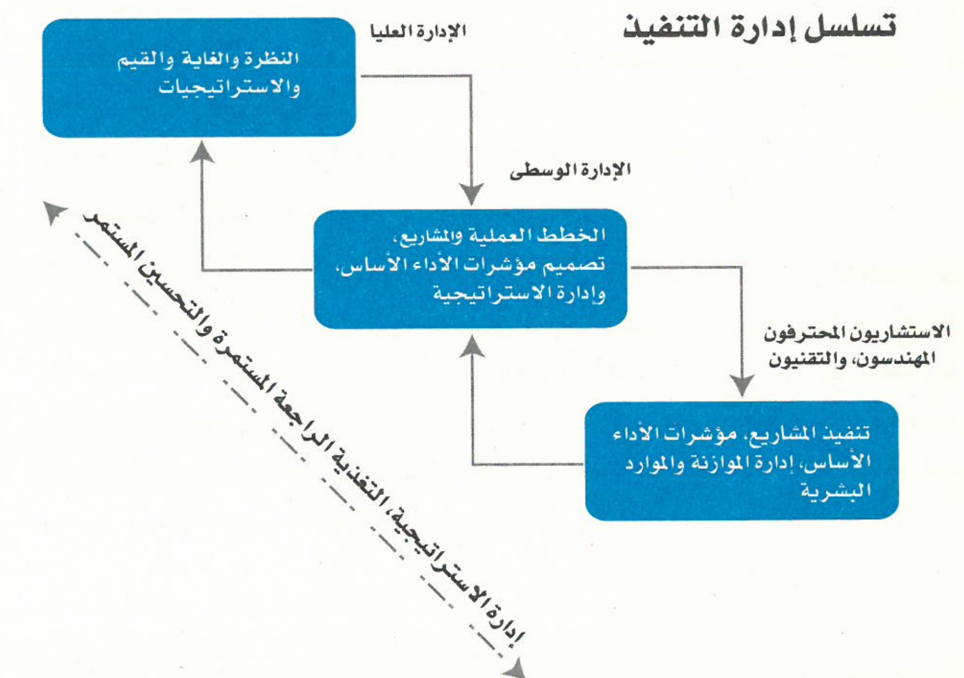
1) هناك تعبيران أساسيَّان في علم التخطيط الاستراتيجي تختلف الترجمات العربيَّة حيالهما، هما: Vision و Mission Statement. معظم الدراسات العربيَّة الحديثة تستخدم كلمتي "رؤية" و "رسالة" على التوالي. أنطون سعادة، مؤسِّس الحزب السوري القومي الاجتماعي، استخدم مصطلحي "نظرة" و "غاية" وسنحاكيه فيهما.

مسؤوليَّة التخطيط الاستراتيجي

على عاتق مَن تقع مسؤوليَّة التخطيط الاستراتيجي؟ تُجمع مدارس التخطيط الاستراتيجي على تجنُّب تكليف جهة واحدة في المؤسَّسة وضع خطَّتها الاستراتيجيَّة، كما تحذِّر من الركون إلى خبراء خارجيِّين حصرًا لتأدية هذه المهمَّة. على العكس من ذلك، يشدِّد الخبراء على إشراك أوسع شريحة ممكنة من مختلف المستويات في عمليَّة التخطيط الاستراتيجي، والاستعانة بخبراء خارجيِّين حيث تدعو الحاجة، وذلك للأسباب التالية:

1. الحصول على أكبر قدر من المعلومات الدقيقة من مختلف أنحاء المؤسَّسة.
2. ضمان دعم أوسع شريحة من العاملين للخطَّة بسبب مساهمتهم في وضعها، لكون حُسن تنفيذ الخطَّة يتوقَّف على معرفة العاملين في دقائقها.

يُظهر الشكل التالي مسؤوليَّة المستويات الإداريَّة المختلفة في وضع الخطة الاستراتيجيَّة ومراقبة تنفيذها.



1: مسؤوليَّة المستويات الإداريَّة المختلفة في تطبيق الخطَّة الاستراتيجيَّة

الأساس الاستراتيجي

يتضمَّن الأساس الإستراتيجي نظرة المؤسَّسة وغاياتها وقيمها وموضع تميُّزها الاستراتيجي. إنَّه الأساس الذي يحدِّد ماهيتها ونوع عملها وطموحاتها والأهداف التي تنكَّبت لها ونهجها العام وأخلاقيَّتها والنوعيَّة التي تميِّز منتجاتها أو خدماتها من سواها. يخدم الأساس الاستراتيجي لأمد بعيد، ولا يجوز أن يتغيَّر ظرفيًّا.

النظرة

هي العبارة التي تصف أعلى طموحات المؤسَّسة وقيمها، وربَّما تتضمَّن عباراتٍ مثاليَّةً: "عالم بلا أمراض"، كنظرة لمؤسَّسة طبيَّة خيريَّة هي مثال على ما نقول.

الغاية

بينما تمثِّل النظرة حلمًا يمكن أن يتحوَّل إلى حقيقة، فإنَّ الغاية تصف المؤسَّسة وعملها ووجهة سيرها. غالبًا ما تكون هذه العبارة موجزة وكثيفة ومرنة ومميَّزة بحيث لا يكون هناك التباس في نوع عمل المؤسَّسة.

تلزم الغاية العاملين بالتركيز على ما يجب أداؤه، وتوفِّر الضبط الاستراتيجي للأداء والنمو. إنَّها تجيب عن السؤال: ما الذي ننوي عمله لكي نحقِّق النظرة الخاصَّة بنا؟ إنَّها أكثر صلابة من النظرة، ولكنَّها لا تحدِّد أهداف المؤسَّسة الاستراتيجيَّة ولا المشاريع المطلوب تحقيقها لتحويل الغاية إلى حقيقة ملموسة.

من أهمِّ شروط الغاية أن تكون واضحة. ولا نغالي إذا قلنا إنَّ وضوح الغاية شرط ضروري لنجاح المؤسَّسة، لأنَّ كلَّ ما سيلي في عمليَّة التخطيط الاستراتيجي يُبنى عليها. بالتالي، فإذا لم تكن الغاية واضحة، ضرب الغموض البنيان الاستراتيجي كلَّه.

القيم

تمثِّل القيم أسمى ما في نفسيَّة أعضاء المؤسَّسة. إنَّها الدعائم أو الفضائل التي يقوم عليها بنيانها، وما يدافع عنه العاملون فيها بكلِّ قواهم.

موضع التميُّز الاستراتيجي

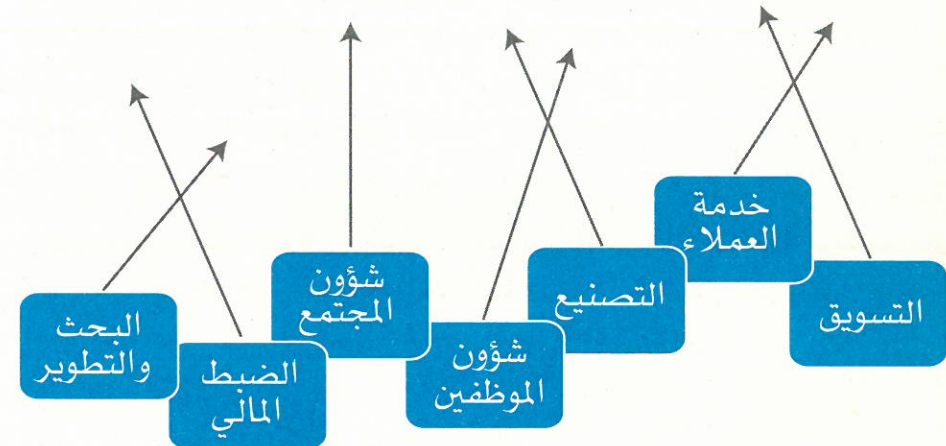
هو كلمة واحدة تختصر أهمَّ ما يميِّز المؤسَّسة من سواها. تسعى المؤسَّسات إلى التميُّز لأنَّ النجاح الاستراتيجي يعني إنجازات أفضل وأكثر ثباتًا من إنجازات المنافسين. غير أنَّ

التميُّز وحده لا يكفي، بل يجب أن يكون تميُّزًا في نواحٍ ذات أهميَّة استراتيجيَّة، أي نواحٍ تؤثِّر في تقرير مصير التنافس، وبالتالي مصير المؤسَّسة.

تعطي المؤسَّسات أهميَّة كبيرة لموضع التميُّز الاستراتيجي وتصرف الكثير من الموارد لكي تطبع في أذهان الناس كلمة واحدة تصفها، بحيث متى يذكر اسم المؤسَّسة أو منتجًا من منتجاتها، تقفز تلك الكلمة إلى الذهن فورًا. مثال على ذلك شركة "فولفو" للسيَّارات التي يرافق اسمها اليوم كلمة "الأمان" أو شركة "رولس رويس" حيث تقفز إلى الذهن كلمة "الرفعة"، وهكذا دواليك.

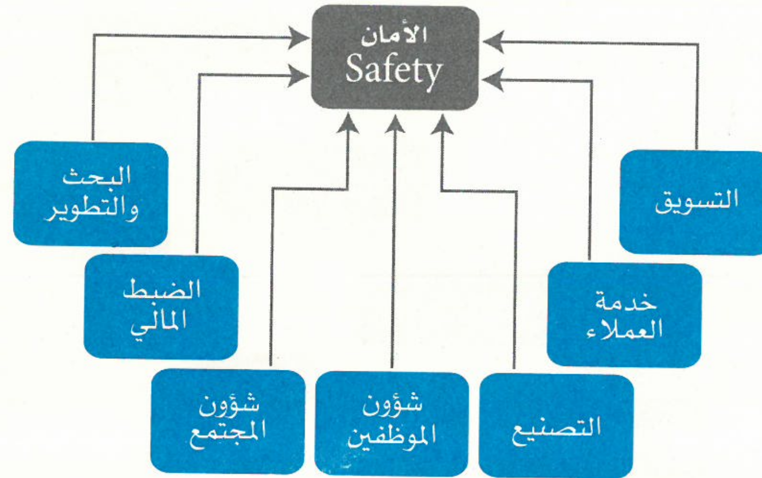
يجب الانتباه إلى أنَّ موضع التميُّز الاستراتيجي سلاح ذو حدَّين، فالترويج وحده لا يكفي، بل إنَّ الكلمة موضع التميُّز الاستراتيجي، تصبح مدعاة سخرية إن لم تقرن المؤسسة قولها بالفعل دائمًا وفي مختلف الظروف.

الشكلان أدناه يظهران أهميَّة موضع التميُّز الاستراتيجي في توحيد وجهة نظر المؤسَّسة.



2: أنشطة المؤسَّسة بدون موضع التميّز الاستراتيجي

موضع التميز الاستراتيجي لشركة "فولفو"



3: مع التركيز الاستراتيجي

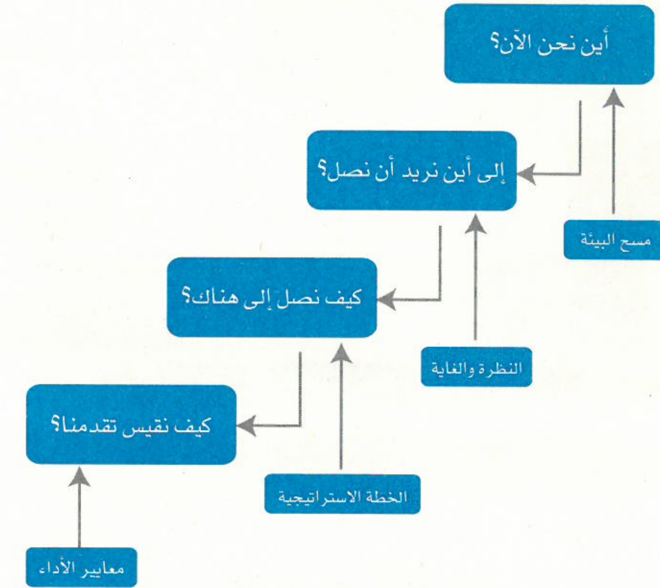
تعديل الأساس الاستراتيجي

هل يجوز تعديل الأساس الاستراتيجي؟ طبعًا، إذا تحقَّق أي من مكوِّناته، أو أذا حصل تغيير جذري في المجتمع أو في المؤسَّسة يقتضي إضافة بند ما إليه. إنَّه لمن الصعب تخيُّل حالة تتغيَّر فيها نظرة مؤسَّسة ما، لأنَّها غالبًا ما تكون على أعلى المستويات. أمَّا غاية المؤسَّسة، أو قيمها، أو موضع تميُّزها الاستراتيجي فيمكن تعديلها إذا حصل ما يقتضي ذلك، أو إذا ما تحقَّق أي منها.

عمليَّة التخطيط الاستراتيجي

بغضِّ النظر عن المدرسة الفكريَّة أو المنهجيَّة الإداريَّة المعتمدة فيها، ثمَّة مسار قسري للتخطيط الاستراتيجي يمكن اختصاره بأربعة أسئلة يمثِّلها الشكل أدناه، ويجيب عن كلٍ منها جزء من عمليَّة التخطيط الاستراتيجي.

أربعة أسئلة



4: الأسئلة الاستراتيجيَّة الأربعة في مسار التخطيط الاستراتيجي

أدوات التخطيط الاستراتيجي ومكوِّناته

مسح البيئة

يهدف مسح البيئة إلى الإجابة عن السؤال الأوَّل: أين نحن الآن؟ وتشمل عمليَّة المسح دراسات عن المجتمع وأحواله الاقتصاديَّة والسياسيَّة والبيئيَّة، والعوامل الداخليَّة بما فيها من نقاط قوَّة وضعف، والمؤثِّرات الخارجيَّة وما تحمله من فرص وأخطار.

المحفِّزات والمعوِّقات

يمكن جمع نتائج مسح البيئة في عنوانين عريضين، هما المحفِّزات والمعوِّقات. تحت باب المحفِّزات، نجد نقاط قوَّة المؤسَّسة الداخليَّة مع الفرص الخارجيَّة. أما تحت باب المعوِّقات، فنجد نقاط الضعف الداخليَّة مع الأخطار الخارجيَّة التي تهدِّد سلامة المؤسَّسة.

المحفِّزات = نقاط القوَّة + الفرص.

المعوِّقات = نقاط الضعف + الأخطار.

أصحاب الشأن والعملاء

يُعرَّف أصحاب الشأن بأنَّهم كلُّ من له علاقة بمخرجات عمل المؤسَّسة من موظَّفين ومدراء ومؤسَّسات حكوميَّة ورقابيَّة ومجتمعيَّة أو أهليَّة بالإضافة إلى مموِّلي المؤسَّسة أو الجهات الراعية لها أو مالكيها. أمَّا العملاء، فإنَّهم كلُّ من يستفيد مباشرة من خدمات المؤسَّسة أو منتجاتها. يمكن وصف العملاء بأنَّهم من أصحاب الشأن الذين يستفيدون من خدماتها مباشرة.

المواضيع الاستراتيجيَّة

هي الاتِّجاهات الاستراتيجيَّة العريضة - يُطلق عليها بعضهم تسمية "الغايات الاستراتيجيَّة" - الناجمة عن تفكيك نظرة المؤسَّسة وغايتها.

الأهداف الاستراتيجيَّة

هي الأهداف الناجمة عن تفكيك المواضيع الاستراتيجيَّة. إنَّها حجارة البنيان الاستراتيجي، ويجب أن:

1. تنبثق عن المواضيع الاستراتيجيَّة.
2. تشكِّل قاعدة للمبادرات والمشاريع والميزانيَّات.
3. يكون لها معايير أداء.

المبادرات أو المشاريع

هي الخطوات العمليَّة التي تقرِّر المؤسَّسة تمويلها لتحقيق الأهداف الاستراتيجيَّة. للاستفادة القصوى من المبادرات والمشاريع يجب على المؤسَّسة أن:

1. تتأكَّد من تراصف كلِّ مشروع مع هدف استراتيجي واحد على الأقل.
2. تعيِّن المسؤول عن المشروع.
3. تحدِّد وقت الفراغ منه.
4. تحدِّد الموارد البشريَّة اللازمة لتحقيقه.

5. تحدِّد الميزانيَّة المطلوبة لإنجاحه.
6. تضع له مقاييس أداء.
7. تحدِّد كيفيَّة الحصول على المعلومات اللاَّزمة لمراقبة التقدُّم.

المستويات الاستراتيجيَّة

يمكن النظر إلى مستويات الاستراتيجية إنطلاقًا من الناحية التراتبيَّة أو الناحية العَمَلانيَّة. فمن الناحية التراتبيَّة، هناك مستوى النظرة والغاية، يليها مستوى المواضيع الاستراتيجيَّة، فمستوى الأهداف الاستراتيجيَّة، ومن ثمَّ مستوى المشاريع والمبادرات. أمَّا على المستوى العملاني، فيمكن أن تكون هناك استراتيجيَّات خاصَّة في منطقة جغرافيَّة معيَّنة، أو استراتيجيَّات خاصَّة بمنتج أو خدمة معيَّنة.

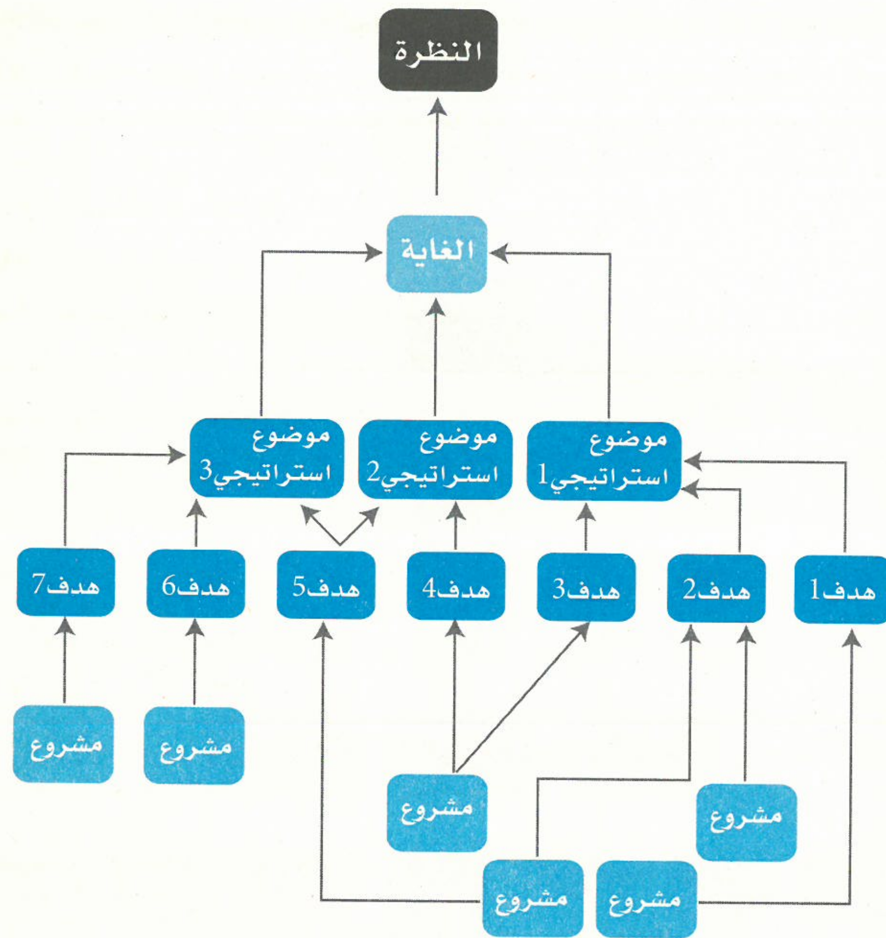
النتائج الاستراتيجية

من المهمِّ جدًّا للعاملين في أيَّة مؤسَّسة أن يتمكَّنوا من تخيُّل أو تصوُّر الحالة الناجمة عن تحقيق كلٍّ من مكوِّنات خطَّتهم، وعلى أيٍّ من المستويات المذكورة أعلاه. النتيجة الاستراتيجيَّة إذًا، هي عبارة تصف ما يجب أن يكون لتقرير مدى النجاح في تنفيذ ما هو مطلوب. إنَّها تجيب عن السؤال التالي: كيف نعرف أنَّنا حقَّقنا النجاح؟ النتائج الاستراتيجيَّة ترافق مستويات الاستراتيجيَّة كلَّها:

1. النتائج الاستراتيجيَّة العليا على مستوى نظرة المؤسَّسة وغايتها.
2. النتائج الاستراتيجيَّة على مستوى المواضيع الاستراتيجيَّة.
3. النتائج الاستراتيجيَّة على مستوى الأهداف الاستراتيجيَّة.
4. النتائج الاستراتيجيَّة على مستوى منطقة أو منتج معيَّن.

البناء الاستراتيجي

النقطة الأهمُّ في كلِّ ما سبق هي الترابط أو التراصف الذي يجب أن ينشأ من النظرة إلى الخطط العمليَّة مرورًا بالغاية والأهداف، كما نرى في الشكل أدناه.



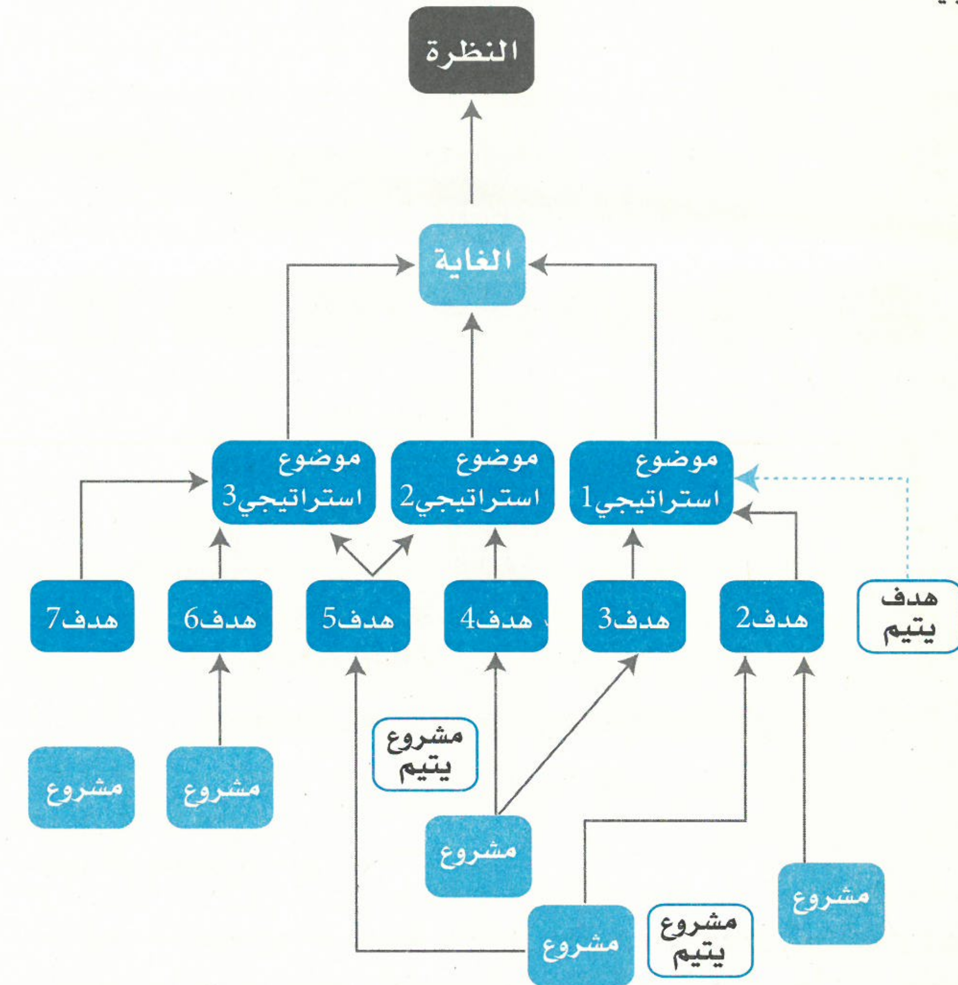
5: التراصف الاستراتيجي من النظرة إلى المشاريع

الأهداف والمبادرات اليتيمة

التخطيط الاستراتيجي كلٌّ مترابط بحلقات متسلسلة من النظرة إلى الغاية، ومن المواضيع إلى الأهداف الاستراتيجيَّة، ومن ثمَّ إلى المشاريع. كلُّ هدف يحتاج إلى مبادرة لتحقيقه، وكلُّ مشروع يجب أن يكون مرتبطًا بهدف يخدمه.

الأهداف اليتيمة هي أهداف لا خطط عمل أو مشاريع لتحقيقها. والمشاريع اليتيمة هي

تلك التي تشغل وقت المؤسَّسة ومواردها دون أن تكون مرتبطة بهدف استراتيجي معيَّن. وجود الأهداف اليتيمة يشير إلى أنَّ المؤسَّسة لا تعنى كثيرًا بتحديد الأولويَّات والتركيز عليها، فتراها تضع أهدافًا ليس لديها القدرة على تنفيذها. في المقابل، تشير المبادرات اليتيمة إلى مشاريع ربما تكون محبَّبة لبعض المدراء، ولكن لا فائدة استراتيجيَّة منها. تجري المؤسَّسات مراجعة دوريَّة للتأكُّد من التراصف ومن انتفاء الأهداف أو المبادرات يتيمة.



6: التراصف الاستراتيجي مع أهداف ومشاريع يتيمة

إدارة تنفيذ الاستراتيجيَّة

قليلة جدًّا المؤسَّسات التي تنجح في تنفيذ استراتيجيَّاتها. ويشير عدد من الدراسات إلى أنَّ ما بين عشرة إلى ثلاثين من المائة (10-30%) فقط من المؤسَّسات التي تنجح في وضع خطة إستراتيجية لها، تطبِّق فعلاً تلك الخطَّة.[2] لذا، يأخذ مفهوم إدارة تنفيذ الاستراتيجيَّة حيِّزًا مهمًا من تفكير خبراء علم الإدارة.

يتَّفق الخبراء على أنَّ أهمَّ ثلاثة عوامل في نجاح تنفيذ الخطة الاستراتيجيَّة هي:

1. القيادة المُلهِمة: تقود المؤسَّسة إلى أداء ناجح ومستدام عبر الوفاء لقيم المؤسَّسة، وإفساح المجال لنموِّ العاملين فيها وتطوير قدراتهم، والتخطيط الذي يأخذ العلاقات الإنسانيَّة في نظر الاعتبار.
2. تحويل الاستراتيجيَّة إلى عمل: يتطلَّب مقاربة مرحليَّة تربط عوامل أداء محدَّدة بأهداف ومبادرات استراتيجيَّة تقود إلى أفضل النتائج في عمل الأفراد والإدارات في المؤسَّسة.
3. إدارة الأداء: يستلزم بناء أنظمة عمليَّات أو خطوات تشغيليَّة وقدرات ضروريَّة ليتمكَّن العاملون من تحقيق الأداء المطلوب وفق مقاييس معيَّنة.[3]

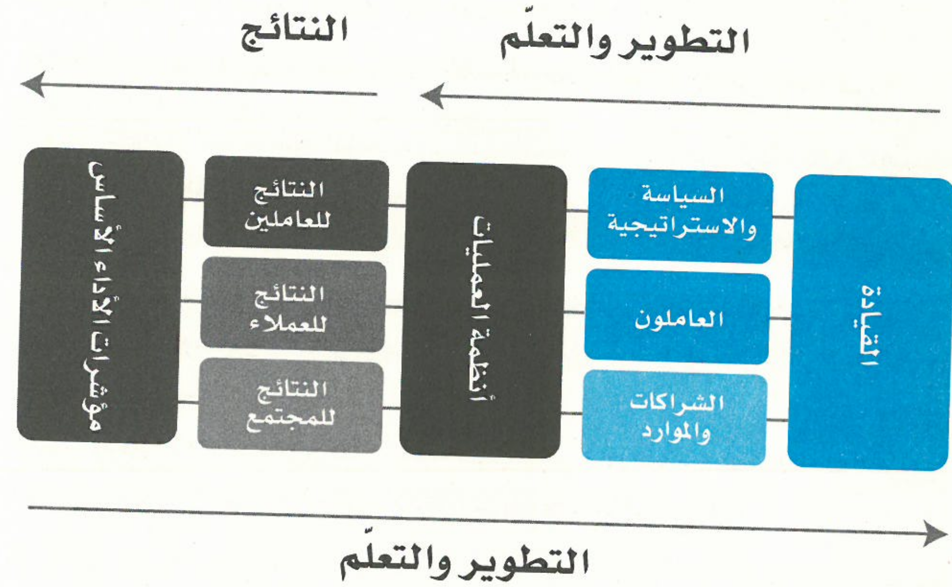
كلُّ عمليَّة إداريَّة تحتاج إلى إطار يحتضنها، ويمكِّن العاملين من مراجعة نتائج عملهم وتصويب خططهم استنادًا إلى التغذية الراجعة وإلى مراجعة نتائج الأداء. سنعرض في بحثنا هذا إطارين أو نظامين مستخدمين في إدارة تنفيذ الاستراتيجيَّة، هما نظام المؤسَّسة الأوروبيَّة لإدارة الجودة، المعروف بنظام "التميُّز في الأعمال"[4]، ونظام بطاقات الأداء المتوازن،[5] وهما من أهمِّ المنهجيَّات الحديثة التي تلاقي رواجًا كبيرًا في المؤسَّسات الحكوميَّة والخاصَّة على السواء.

نظام التميُّز في الأعمال

يقوم نظام التميُّز في الأعمال على تسعة مقوِّمات، خمسة منها في خانة المحفِّزات وأربعة في خانة النتائج. تصف المحفِّزات عمل المؤسَّسة، فيما تصف النتائج إنجازاتها وفق العلاقة السببيَّة الواضحة التالية: المحفِّزات تؤدي إلى النتائج.

2) http://www.businessballs.com/businessstrategyimplementation.htm.
3) النقاط الثلاث هي من المرجع نفسه.
4) European Foundation for Quality Management (EFQM).
5) Balanced Scorecard.

تكمن أهميَّة هذا النموذج في العمليَّة الدائريَّة التالية: المحفِّزات ← النتائج ← المحفِّزات مرورًا بالدروس والخبرات المكتسبة أثناء عمليَّة التنفيذ وما ينتج عنها من تغييرات ضروريَّة في سبيل المحافظة على أعلى مستويات الجودة في المؤسَّسة، وفي علاقاتها الداخليَّة والخارجيَّة. فيما يلي وصف لكلٍّ من مكوِّنات هذا النموذج ودورها.



7: نموذج التميُّز في الأعمال، المرجع: (EFQM)

المحفِّزات

القيادة: القيادة المتميزة تضع نظرة المؤسَّسة وغايتها نصب أعينها وتعمل على تحقيقهما. إنَّها تلتزم بقيم المؤسَّسة وتكون قدوة في ممارستها، وتستنبط الأنظمة التي تكفل النجاح المستدام. تحافظ القيادة على التماسك ووحدة القصد في أوقات التغيير، وتبادر إلى التغيير عند الحاجة، وتحفِّز الآخرين على القبول به.

السياسات والاستراتيجيَّة: تطبِّق المؤسَّسة المتميِّزة نظرتها وغايتها عبر تطوير استراتيجيَّة تركِّز على أصحاب العلاقة ومجتمعها أو مجال عملها، ومن ثمَّ تضع عددًا من السياسات والأهداف والخطط وأنظمة العمليَّات التي تُستخدم في تطبيق الاستراتيجيَّة.

العاملون: تطوِّر المؤسَّسات المتميِّزة إدارة طاقات العاملين فيها وإطلاقها كأفراد وكفرق

عمل لكي تحقِّق إمكانياتها وطموحاتها. تعامل تلك المؤسَّسات العاملين فيها بعدالة ومساواة، وتتواصل معهم بشكل جيِّد، وتقدِّر إنجازاتهم وتكافئهم.

الشراكات والموارد: تدير المؤسَّسات المتميِّزة مواردها الداخليَّة بشكل جيِّد، كما تطوِّر شراكات خارجيَّة من ضمنها شبكة المورِّدين وتديرها بشكل حكيم ومنظَّم، بما يدعم استراتيجيَّتها وسياساتها، كما يدعم احتياجاتها المستقبليَّة وحاجات المجتمع والبيئة.

أنظمة العمليَّات: تطوِّر المؤسَّسات المتميِّزة أنظمة عمليَّاتها بما يرضي العاملين والعملاء وأصحاب العلاقة، ويقدِّم قيمة مضافة لهم.

النتائج

النتائج للعملاء: تعمل المؤسَّسات المتميزة على تحقيق وقياس أفضل النتائج سواء بالنسبة إلى أدائها، أو الانطباع الذي تتركه لدى عملائها وأصحاب العلاقة.

النتائج للعاملين: تعمل المؤسَّسات المتميِّزة على الحصول على أعلى نسبة ممكنة من رضى العاملين فيها أداءً وانطباعًا.

النتائج للمجتمع: تقيس المؤسَّسات المتميِّزة أفضل النتائج لتحقيقها بالنسبة إلى المجتمع أداءً وانطباعًا.

النتائج بالنسبة إلى مؤشِّرات الأداء الأساسيَّة: تقيس المؤسَّسة المتميِّزة أداءها وفق أهداف معيَّنة تحدِّدها وتعتمدها جزءًا من خطَّتها الاستراتيجيَّة وتلتزم بتحقيقها.

بطاقات الأداء المتوازن

هي نظام شامل لوضع الخطَّة الاستراتيجيَّة وتعيين أهدافها ورسم خارطتها ونشر الوعي عن أهميَّتها وتعميمها عبر المؤسَّسة وإدارتها وقياس مدى نجاحها عبر معايير محدَّدة للقياس، وإطلاق المبادرات الكفيلة بتحقيق أهدافها ومراقبة تنفيذها. إنَّها نظام إدارة التغيير أو نظام إدارة تنفيذ الاستراتيجيَّة بامتياز. تتضمَّن منهجيَّة البطاقات معظم الأسس الاستراتيجيَّة آنفة الذكر، لكنَّها تتميَّز من سواها في أنَّها:

1. تنظر إلى خطة المؤسَّسة الاستراتيجيَّة عبر أربعة مناظير.
2. تضع ما يسمَّى بخارطة للاستراتيجيَّة.
3. تُدَرِّج معايير الأداء من الأهداف الاستراتيجيَّة وصولاً إلى الأداء الفردي.

موجز تاريخي

1. سنة 1990، وضع كلٌّ من دايفد نورتون وروبرت كابلن دراسة عن المقاييس المتوازنة من ماليَّة وغير ماليَّة في المؤسَّسة مركِّزَين على أنَّ دراسة العامل المالي وحده لا يكفي لمعرفة صحَّة المؤسَّسة بل يجب النظر إلى عوامل أخرى لا تقلّ أهميَّة عنه، منها الموارد والأصول غير الملموسة. سنة 1996، طوَّر الباحثان دراستهما ونشراها في كتاب بعنوان: بطاقة الأداء المتوازن.
2. سنة 1997، وضع هاورد روم الخطوات التسع للنجاح في تنفيذ بطاقة الأداء المتوازن.
3. 2001، طباعة كتاب المؤسَّسة المركِّزة على الاستراتيجيَّة، لكابلن ونورتون أيضًا، الذي تضمَّن لأوَّل مرَّة خارطة استراتيجيَّة.
4. 2003، تأسيس معهد بطاقات الأداء المتوازن.
5. 2004، كتاب خارطة الاستراتيجيَّة لكابلن ونورتون.
6. 2006، كتاب بطاقة الأداء المتوازن – خطوة وراء خطوة، لِـ بول نيفن.
7. 2006، بطاقة الأداء المتوازن للحكومات والمنظَّمات غير الربحيَّة، لِـ بول نيفن.
8. 2008، معهد بطاقات الأداء المتوازن، يبدأ بتقديم شهادة "مجاز" في التخطيط الاستراتيجي وبطاقات الأداء المتوازن بالتعاون مع جامعة جورج واشنطن.[6]

واليوم

1. تعمل أكثر من 65% من شركات "فورتشن 1000" وفق نظام بطاقات الأداء المتوازن لإدارة الاستراتيجيَّة.
2. تتزايد أعداد المؤسَّسات الحكوميَّة في الولايات المتَّحدة وغيرها من دول العالم التي تعمل وفق هذا النظام.
3. ترسل مؤسَّسات حكوميَّة وخاصَّة من مختلف أنحاء العالم كبار مدرائها إلى المعهد لتلقِّي التدريب اللازم والحصول على الشهادات المناسبة.
4. منهجيَّة البطاقات في حالة تطوير مستمر، إنَّها في الجيل الرابع اليوم.

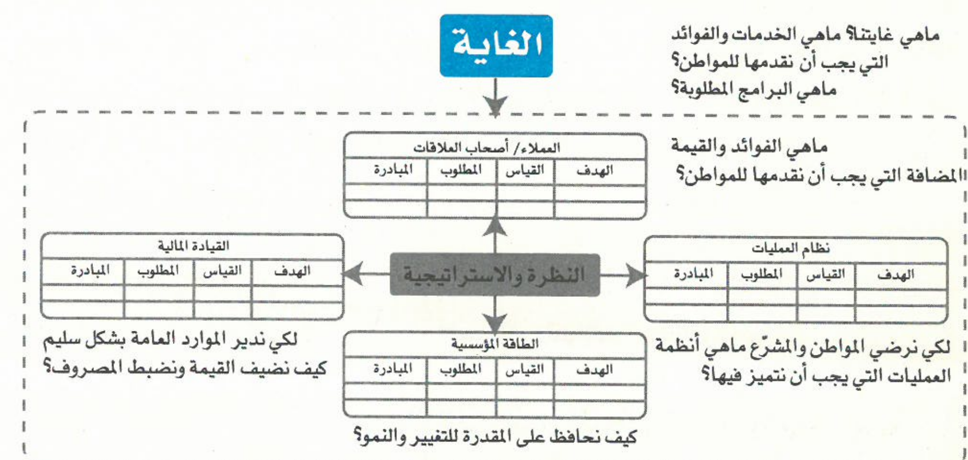
6) منشورات معهد بطاقات الأداء المتوازن التعليميَّة، جامعة جورج واشنطن، فيرجينيا، الولايات المتَّحدة.

المناظير الأربعة

تتمُّ إدارة تنفيذ الاستراتيجيَّة وفق نظام بطاقة الأداء المتوازن على ترابط استراتيجيَّة المؤسَّسة مع رؤيتها ورسالتها وأهدافها ومبادراتها وأداء موظَّفيها، والنظر إليها دائمًا عبر أربعة مناظير أساسيَّة ووفق علاقة سببيَّة ومتوازنة، وقياسها وفق معايير واضحة للأداء ومراجعتها بصورة دوريَّة وإجراء التغييرات اللازمة. ما يلي هو جدول بالمناظير الأربعة في المؤسَّسات غير الربحيَّة، والمفاهيم التي تقودها:

المنظور	المفهوم	السؤال الدافع
أصحاب العلاقة والعملاء	الرضى	كيف يقيِّمها أصحاب العلاقة والعملاء منتجًا وخدمات (أو فكرًا ونهجًا)
المالي	الأداء المالي	للمؤسَّسات غير الربحيَّة: كيف ندير مواردنا الماليَّة بأكثر فاعليَّة. للمؤسَّسات الخاصة: كيف نضيف القيمة للمالكين
العمليَّات	الفاعليَّة	كيف نطوِّر أنظمة عمليَّاتنا لتحسين النوعيَّة والعملانيَّة والفاعليَّة والإبقاء على الراهنيَّة
الطاقة المؤسَّسيَّة	المعرفة والتطوير	كيف نتطوَّر ونحسِّن أنفسنا باستمرار

يمثِّل الشكل أدناه هذه المناظير وعلاقتها بغاية المؤسَّسة ونظرتها في المؤسَّسات الحكوميَّة وغير الربحيَّة.



8: إطار بطاقات الأداء المتوازن للمنظَّمات غير الربحيَّة والحكوميَّة

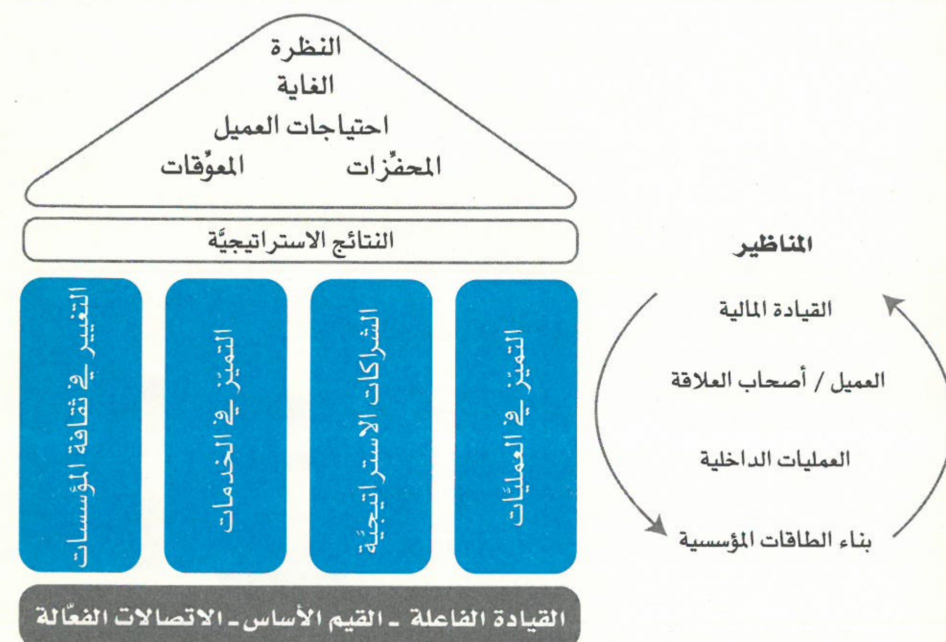
في هذا الشكل، نرى كيف تدفع غاية المؤسَّسة جميع أنشطتها في حين أنَّ نظرتها واستراتيجيَّتها هما في مركز الرصد المستمر لهذه الأنشطة بما يؤمِّن توازنًا مستمرًّا في جميع أنحائها. ولعلَّ أفضل مثال على أهميَّة التوازن في مناظير المؤسَّسة هو حين تقرِّر المؤسَّسة ضبط النفقات عبر خفض عدد الموظَّفين أو ميزانيَّة التدريب، دون دراسة انعكاس ذلك على خدمة العملاء أو على طاقة المؤسَّسة على النموِّ والتغيير.

البناء الاستراتيجي

من كلِّ ما تقدَّم، يمكننا إعادة ترتيب المفاهيم التي تمَّ شرحها بالشكل رقم 8، حيث نجد الأساس الاستراتيجي والمواضيع الاستراتيجيَّة. وقد اخترنا نموذجًا عن المواضيع الاستراتيجيَّة أكثرها شيوعًا التي لا بدَّ لأكثر المؤسَّسات من الأخذ بها، وهي: التميُّز في العمليَّات، الشراكات الاستراتيجيَّة، التميُّز في الخدمات، وقدرة المؤسَّسة على التغيير في ثقافتها.

من هذه المواضيع، يصار إلى اختيار الأهداف الاستراتيجيَّة الخاصَّة بالمؤسَّسة، وترتيبها

في خارطة استراتيجيَّة ينتج عنها فيما بعد خرائط استراتيجيَّة للقطاعات والأقسام مع تحديد المهام والمؤهِّلات وصولاً إلى الأفراد.



المؤسسة ذات الأداء العالي= الرؤية المشتركة + استراتيجية طموحة حسنة التنفيذ + نظام عمليات واتصالات فعال + طاقم بشري متحفز

9: البناء الاستراتيجي وفق نظام بطاقات الأداء المتوازن

الخارطة الاستراتيجيَّة

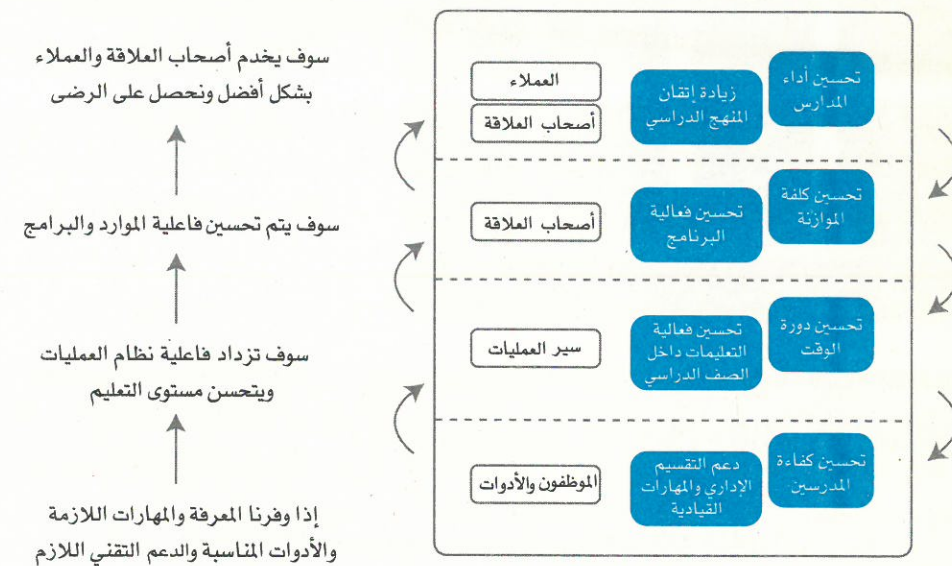
قلنا إنَّ الاستراتيجيَّة هي الخيارات التي تنتقيها المؤسَّسة وتركِّز عليها لتحقيق غايتها وتعزيز رؤيتها. يمكننا الآن أن نوسِّع هذا المفهوم فنقول إنَّ الاستراتيجيَّة تتكوَّن من مجموعة أهداف استراتيجيَّة، منبثقة من المواضيع أو الغايات الاستراتيجيَّة، وموزَّعة عبر المناظير الأربعة آنفة الذكر وفق علاقة سببيَّة. أمَّا الخارطة الاستراتيجيَّة فإنَّها التمثيل الحسِّي والنظري لهذه الأهداف وللعلاقة السببيَّة فيما بينها. إنَّها وسيلة لتعميم استراتيجيَّة المؤسَّسة على جميع المعنيِّين بما يؤمِّن تراصف الأهداف، وتوافق المسؤولين التنفيذيِّين، ووعي المدراء كلاًّ لمسؤوليَّته.

العلاقة السببيَّة

ماذا نعني بالعلاقة السببيّة؟ يمكن اختصار العلاقة بعبارة "إذا...عندها" If...Then أو عبارة "لكي... يجب" For...Must. إذا حصل هذا الأمر، يمكن لذلك الأمر أن يحصل. أو عكسًا، لكي يحصل هذا الأمر، يجب أن يحصل ذلك.

قراءة خارطة استراتيجية
لنظام إداري في المدرسة

الموضوع الاستراتيجي: جودة التعليم



10: العلاقة السببيَّة في الخارطة الاستراتيجية

مقاييس الأداء

مقاييس الأداء هي الأدوات التي نقيس بها أداء المؤسَّسة بناء على درجة محدَّدة من الدقَّة. إنَّها وسيلة تتيح للمؤسَّسة تقييم أدائها مقايسة بأفضل الممارسات العالميَّة، أو بما يتَّبعه المنافسون، وأين نجحت أو أخفقت ولماذا. كما أنَّها تساعد المؤسَّسة على اختيار "أفضل الممارسات" لتنفيذ استراتيجيَّتها. مقاييس الأداء على أنواع هي:

المقاييس العدديَّة أو الرقميَّة

هي مقاييس اقتصاديَّة أو مقاييس الفاعليَّة التي من السهل تعريفها كونها تخضع للقياس والتقرير الإحصائيِّين. أمثلة على ذلك: عدد طلبات الشراء في مدَّة زمنيَّة محدَّدة، قيمة المشتريات بعملة معيَّنة، عدد التقديرات الصحيحة، إلخ.

مقاييس النوعيَّة

هي مقاييس الفاعليَّة، وتحديدها وقياسها أصعب من مثيلاتها العدديَّة، لكنَّها غالبًا ما تترك أثرًا على نجاح العمليَّات. يمكن لهذه أن تتضمَّن مدى رضا العميل، الشهادات الاحترافيَّة المُعتمدة، درجات المهارة المُعترف بها، وأنظمة العمليَّات الموثَّقة، إلخ.

مقاييس القيمة المضافة

هي بالضرورة مقاييس غير نقديَّة تتعلَّق بتعامل المؤسَّسة مع جودة الحياة في المجتمع ومسؤوليَّتها المجتمعيَّة والخلقيَّة والبيئيَّة وأهميَّة التعليم والقدرة على امتلاكه والاتِّجاه الاستراتيجي للمؤسَّسة وغيرها من القضايا والقيم. يُنظر إلى هذه المقاييس بصفتها مبادئ موجِّهة للمؤسَّسة ومنطوية على علاقات مجتمعيَّة استراتيجيَّة.

خصائص مقاييس الأداء

يجب أن تكون مقاييس الأداء ذكيَّة SMART، أي أن تكون:

- محدَّدة Specific
- قياسيَّة Measurable
- قابلة للتحقيق Achievable
- واقعيَّة Realistic ويقول بعضٌ: ذات علاقة Relevant
- راهنة Timely

لماذا نحتاج إلى مقاييس الأداء؟

- لمساعدة المؤسَّسة على مراقبة تنفيذ استراتيجيَّاتها وتقييم مدى نجاحها.
- لمعرفة الفجوة بين الأهداف المحدَّدة والنتائج الحاصلة.
- لمعرفة مدى فاعليَّة المؤسَّسة ونجاح عمليَّاتها.

يُشار إلى أنَّه من الضروري فهم العلاقة بين الأهداف الاستراتيجيَّة ومقاييس الأداء لنتمكَّن من تحديد ما يجب إدارته، وبالتالي قياسه، كما أنَّه من الضروري التركيز على النتائج وليس على الجهد المبذول فقط.

أفضل الممارسات

أفضل الممارسات هي استراتيجيَّة أو تكتيك موثَّق ثبت جدواه ويقود إلى تحسُّن قياسي في اقتصاديَّات المؤسَّسة وفاعليَّتها. يُتوقَّع من أفضل الممارسات أن:

- تؤدِّي إلى تغيُّر قياسي في الأداء.
- تكون ذات نتائج مثبتة.
- تنطبق على مدى واسع من المؤسَّسات.
- تستخدم تقنيات ثبتت جدواها.
- تضمِّن الضبط الفعَّال وإدارة الأخطار.

تسمح بالممارسات الفضلى للمؤسَّسات بتجاوز منافسيها وزملائها في قطاعات أخرى في نواح عمليَّة محدَّدة وتأدية المهمَّات بكلفة أقل وقيمة أعلى.

إدارة التغيير

إدارة التغيير، عمليَّة مدروسة لنقل الأفراد وفرق العمل والمؤسَّسات من حالة قائمة إلى حالة أفضل. قرار أيَّة مؤسَّسة الأخذ بأسس التخطيط الاستراتيجي وإدراة تنفيذ الاستراتيجيَّة هو بحدٍّ ذاته قرار استراتيجي بالتغيير يلقي على عاتق الإدارة والعاملين مسؤوليَّات كبيرة، كما يهيِّئ لنتائج إيجابيَّة متوقَّعة. لا يمكن ترك قرار من هذا النوع للصدفة. إنَّه عمليَّة تغيير جذريَّة في فكر المؤسَّسة ونهجها.

نموذج من مدارس إدارة التغيير

النموذج الخماسي ADKAR

هناك نماذج عديدة لإدارة التغيير، اخترنا واحدًا منها يُعرف بنموذج (أدكار)، من تصميم مؤسَّسة Prosci بالتعاون مع ما يزيد على ألف مؤسَّسة في أكثر من تسعة وخمسين بلدًا. يقوم هذا النموذج على الخطوات التالية:

1. الوعي Awareness بضرورة حصول التغيير.
2. الرغبة Desire لدعم عمليَّة التغيير والمشاركة فيها.
3. المعرفة Knowledge بكيفيَّة التغيير.
4. المقدرة Ability على تطبيق التغيير.
5. الدعم Reinforcement من أجل استمراريَّة التغيير.

غالبًا ما تُواجه عمليَّة التغيير بمقاومة تتراوح شدَّتها بين مؤسَّسة وأخرى. لا يحصل التغيير إلاَّ إذا كانت عوامل التغيير أقوى من عوامل مقاومته.

دور الإدارة

دور الإدارة هو الأساس في قيادة عمليَّة التغيير. لذا على الإدارة مراقبة المتغيِّرات والاتِّجاهات الجديدة في المجتمع أو بيئة المؤسَّسة التي تجعل من التغيير ضرورة ملحَّة. وعليها تحديد التغيير المطلوب كذلك، ووضع عمليَّة التغيير موضع التنفيذ وإدارتها وتقدير نتائجها وانعكاسها على جميع المعنيِّين داخل المؤسَّسة وخارجها. في الوقت نفسه، على الإدارة أن تقرِّر المواضيع التي يجوز التغيير فيها وتلك التي لا يجوز.

خلاصة الفصل الأوَّل

التخطيط الاستراتيجي علم قائم بنفسه ولا غنى عنه اليوم لأيَّة مؤسَّسة تبغي النجاح في تحقيق نظرتها وغاياتها. للتخطيط الاستراتيجي مدارس عديدة تلتقي على ضرورة تراصف أهداف المؤسَّسة الاستراتيجيَّة مع غاياتها ونظرتها بحيث لا يكون هناك من اهداف أو مشاريع يتيمة. من هذه المدارس، المؤسَّسة الأوروبيَّة لإدارة الجودة، ومدرسة بطاقات الأداء المتوازن.

دخول المؤسَّسة عالم الإدارة وفق أسس التخطيط الاستراتيجي، يعني انطلاقها في رحلة تغيير جذريَّة من القمَّة إلى القاعدة. لذا على قيادة المؤسَّسة توجيه عمليَّة التغيير والمحافظة على زخمها.

القسم الثاني: أنطون سعادة والاستراتيجيا

الفصل الأوَّل: الحدُّ الفاصل

"إن غاية الحزب الأوليَّة أن يكون حركة الشعب السوري العامَّة."[7] بهذه الكلمات، ردَّ سعادة على رئيس المحكمة الأولى التي انعقدت لمحاكمته في الثالث والعشرين من شهر يناير/كانون ثانٍ 1936، بعد انكشاف أمر الحزب.

هذه العبارة تحمل للمطَّلع على فكر سعادة العملي وأحوال سورية في ذلك الوقت، إحساسه المرهف بعامليِّ الخطر والوقت. إنَّها تعترف بعدم وجود حركة في سورية تحمل مصالح الشعب، كل الشعب، وتدافع عنها، تحت وطأة احتلال فرنسي- بريطاني متستر بثوب "الانتداب" يعمل على تقسيمها إلى كيانات سياسيَّة مذهبيَّة، وتسلُّل صهيوني متسارع إلى جنوبها، وخطر تركي زاحف على شمالها، وحرب عالميَّة، رأى سعادة أنَّها آتية وسوف تشمل بلاده بدائرة نيرانها. ناهيك عن فساد أخلاقي وسياسي وإداري لا مثيل له.

تأتي هذه العبارة لتشكِّل حدًّا فاصلاً أراده سعادة بين سلسلة من الخيبات السوريَّة التي امتدَّت على أكثر من عشرين سنة في سورية وفي بلاد الاغتراب، وبين عهد جديد أراد له أن يكون عصر نهضة قوميَّة شاملة. ففي سورية، عُلِّق بعض السوريِّين المجاهدين ضدَّ العثمانيِّين على المشانق في بيروت ودمشق. وفي بلاد الاغتراب، فشلت محاولات تشكيل فرقة عسكريَّة أميركيَّة - سوريَّة أثناء الحرب العالميَّة الأولى للمساهمة في تحرير سورية ووضعها تحت الوصاية الأميركيَّة،[8] ومنع وقوعها فريسة الانتدابين الفرنسي والبريطاني والاستيطان الصهيوني.[9]

لعلَّ أفضل مَن عبَّر عن خيبة السوريِّين في تلك المرحلة الفاصلة، كان القس إبراهيم متري رحباني، مندوب الجمعيَّات السوريَّة - الأميركيَّة إلى مؤتمر الصلح في فرساي في رسالة

7) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثاني، ص. 192. (المحاكمة الأولى).
8) من أجل لمحة تاريخيَّة، أنظر داية، جان، عقيدة جبران، شركة سوراقيا المحدودة، بريطانيا، 1988.
9) Rihbany, Abraham, America Save the Near East, Beacon Press, Boston, Mass 1918.

منه إلى صديقه هنري كنغ، عضو لجنة كينغ – كراين المشهورة، في 17 أكتوبر/تشرين أوَّل 1919، أي بعد انتهاء "مؤتمر الصلح"، وبعد أن كانت اللجنة قد فشلت في عملها نتيجة المال الذي بذله الفرنسيُّون في سبيل ذلك،[10] جاء فيها ما ترجمته:

أمَّا الآن فإنِّي أخشى أن تعمَّ الظلمة المشرق. ليس لديَّ ما يوجب الأمل بأنَّ أميركا يمكن لها يومًا أن تكون منتدبة على كلِّ تركيا، وتطوُّر مجريات الأحداث في ذلك البلد يعزِّز يأسي.

أما بالنسبة إلى سورية، فإنِّي أرى أنَّ مصيرها قد ختم عليه وسوف تقسَّم بالتأكيد. لقد "اتَّفق" البريطانيُّون مع الفرنسيِّين على أن يحتلَّ الفرنسيُّون قسمًا كبيرًا من شمال شرق سورية، وأعتقد جازمًا أنَّهم لن يقبلوا يومًا الخروج منها.[11]

إنَّها تأتي بعد معركة ميسلون، ومجازر الفرنسيِّين في تمنين التحتا ووادي الحرير،[12] وغيرها، وبعد تخلِّي الولايات المتَّحدة عن مبادئ الرئيس "ولسن" وموافقتها على وصاية فرنسيَّة على سورية ما دفع سعادة إلى كتابة مقاله الشهير، "سقوط الولايات المتَّحدة الأميركيَّة من عالم الإنسانيَّة الأدبي"، سنة 1924.

إنَّها تأتي بعد معاهدات سان ريمو، وسيفر، ولوزان التي قسَّمت سورية ومزَّقت وحدتها الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة.

وتأتي بعد انتهاء "الثورة السوريَّة الكبرى" بكلِّ ما رافقها من بطولات وخيبات.[13]

وتأتي يوم كان الفرنسي ينادي السوري بقوله: "أيُّها السوري القذر"، "sale Syrien" ويوم كان الجندي السنغالي المجنَّد في الجيش الفرنسي يقول للسوري: "أنا أمدِّنك"، "Moi civiliser vous".[14]

وتأتي أثناء تطبيق القانون المعروف بقانون ر.ل. 115، أو قانون قمع الجرائم ومنع التجمُّعات من خمسة أشخاص فما فوق، بدون إذن، ومنع الحياة الفكريَّة.[15]

10) رياشي، إسكندر قبل وبعد، ورؤساء لبنان كما عرفتهم، دار أطلس، دمشق، 2006، ص. 402. (يوم فتح الفرنسيون صناديق الذهب).
11) رسالة غير منشورة من رحباني إلى هنري كنغ.
12) رياشي، إسكندر قبل وبعد، ورؤساء لبنان كما عرفتهم، دار أطلس، دمشق، 2006، ص.446–443.
13) أنظر كتاب ريِّس، منير، الكتاب الذهبي للثورات الوطنيَّة في المشرق العربي، الثورة السوريَّة الكبرى، دار الطليعة، بيروت، 1969.
14) جريج، جبران، من الجعبة الجزء الثالث، بيروت، 1988، ص. 15.
15) سعاده، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة العاشرة.

وتأتي أثناء تمكين الانتداب من حكمه في سورية وتفشِّي موجة من الفساد لا مثيل لها، على يد الطبقة السياسيَّة نفسها التي خدمت العثمانيِّين حتَّى اندحارهم، ثمَّ نقلت خدماتها إلى الفرنسيِّين بكلِّ سهولة، كما شهد بذلك إسكندر رياشي.[16]

إنه لمن الصعب جدًّا فهم سعادة ونهضته وثورته على المفاسد، وهجومه الكاسح على الطبقة السياسيَّة والإكليروس المتحالف معها، من دون قراءة إسكندر رياشي في كتابيه "قبل وبعد" و "رؤساء لبنان كما عرفتهم". يقدِّم رياشي كتابه "قبل وبعد" كما يلي:

للسُذَّج المغرورين المخدوعين، للناس الملاح الذين لا يزالون يعتقدون أنَّ في لبنان زعماء سياسة، يحسبون الاستغلال جريمة والنزاهة فضيلة في بلاد كانت – على مدى الأجيال – تحسب القاتل بطلاً، والمتلاعب نابغة، والذي يمكنه أن ينهب ويسلب ولا يفعل "أهبل"![17]

هل نستغرب، بعد هذا، وصف سعادة النفسيَّة العامة في الأمَّة أنها:

نفسيَّة خوف وجبن وتهيُّب وتهرُّب وترجرج في المناقب والأخلاق. ومن صفات هذه النفسيَّة العامَّة الخداع والكذب والرياء والهزؤ والسخرية والاحتيال والنميمة والوشاية والخيانة وبلوغ الأغراض الأنانيَّة ولو كان عن طريق الضرر بالقريب وعضو المجتمع.[18]

أمَّا بالنسبة إلى العالم الخارجي، فقد كانت نظرة سعادة قاسية في واقعيَّتها. إنَّه يراه عالمًا تتنازع فيه الأمم موارد البقاء المتناقصة، لا فرق في ذلك أكانت أممًا رأسماليَّة ديمقراطيَّة، أم اشتراكيَّة قوميَّة ديكتاتوريَّة أم شيوعيَّة. إنَّه عالم تصبح فيه "الأمم المجرَّدة من السلاح غنائم للأمم المسلَّحة مهما كان نوع الأسلوب أو الشكل الذي تصبح فيه هذه الأمم غنائم لغيرها."[19] ولا تستثنى سورية من هذا الأمر:

فالمواد الأوَّليَّة هو ما تبحث عنه الأمم الناهضة فإذا لم تجده في أوطانها تطلَّعت إلى الخارج تبحث عن مصادرها الأوَّليَّة ووسائل الاستفادة منها.

ونحن في سورية الطبيعيَّة لا ذنب لنا سوى وجود مواد أوَّليَّة في وطننا ولكن نهضتنا القوميَّة جاءت في وقت متأخِّر قليلاً ولا بد لها من بذل جهود جبَّارة لجعل هذه المواد الأوَّليَّة ذات قيمة للأمَّة.

هذه هي النظرة القوميَّة التي ما تزال مفقودة في جميع الهيئات المتطاحنة على السياسة الخارجيَّة. وهذه هي النظرة القوميَّة التي نأمل للنهضة القوميَّة النجاح بها.[20]

16) رياشي، إسكندر قبل وبعد، ورؤساء لبنان كما عرفتهم، دار أطلس، دمشق، 2006، ص. 37.
17) رياشي، إسكندر قبل وبعد، ورؤساء لبنان كما عرفتهم، دار أطلس، دمشق، 2006، ص. 12.
18) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة الجزء الرابع، بيروت، 1980، ص. 36. (خطاب أول آذار).
19) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثالث، ص. 161 (وجه أوربة المتجهم).
20) المصدر نفسه، ص. 162.

إنَّ خطر وقوع سورية الغنيَّة بالموارد وضعيفة التسليح، فريسة للأمم الطامعة بالموارد وقويَّة التسليح، كان خطرًا صارخًا حاصلاً ومتفاقمًا. فالانتدابان الفرنسي والبريطاني مسيطران على سورية الطبيعيَّة ومواردها كلِّها، من جبال البختياري، أي من حدود إيران، إلى قبرص، ومن جبال طوروس إلى الصحراء العربيَّة، بما فيها من معادن ومنابع النفط والثغور والموانئ. إنَّهما سوف يرسِّخان التقسيم السياسي في سورية، ويتخلَّيان عن مراكز حيويَّة منها يقايضون بها جهات خارجيَّة أخرى، وبوادر ذلك التقسيم والتخلِّي كانت بادية للعيان. فالمصالح المشتركة بين لبنان والكيان السوري آيلة إلى انفصال، وفلسطين آيلة إلى إمارة يحكمها أمير هاشمي إلى الشرق من نهر الأردن، وإلى استيطان يهودي صهيوني جارف إلى الغرب منه. أمَّا شمال سورية فآيل إلى الأتراك، بعد أن كانت الأحواز في الشرق قد آلت إلى إيران.

كما كان هناك خطر آخر ليس صارخًا، ولكنَّه لا يقلُّ خطورة، ونعتقد أنَّ أحدًا من معاصري سعادة لم يره، أو يرى نتائجه الماثلة أمامنا اليوم ونحن نشهد تدمير غزَّة على رؤوس أبنائها فيما مصر وإسرائيل تحاصرانها، في نهاية العقد الأوَّل من القرن الواحد والعشرين، وبعد كلِّ ما مرَّ من مآسٍ على فلسطين: إنَّه خطر تدخُّل بعض الدول العربيَّة في مسائل سورية الداخليَّة، لا سيَّما في ظلِّ التمزُّق السياسي والاجتماعي فيها. فإذا كانت الأخطار التركيَّة والفارسيَّة والصهيونيَّة بادية للعيان ولا مجال للنقاش فيها – بغضِّ النظر عمَّا يفعل حيالها – فإنَّ الخطر من جرَّاء التدخُّل العربي لم يكن مرئيًّا، بل كان مرحَّبًا به في بعض الأوساط السوريَّة.

قلنا إنَّ نظرة سعادة إلى العالم ومصالح الأمم المتصارعة هي نظرة قاسية في واقعيَّتها. لم تشذ نظرته إلى العالم العربي عن هذه القاعدة. فمع أنَّ أمم العالم العربي الأخرى كانت ما تزال تحت الاستعمار، فهذا لا يعني أنَّه لم يكن لها نظرة إلى مصالحها تكوَّنت عبر التاريخ، وأصبحت تشكِّل جزءًا من منظومتها الفكريَّة والسياسيَّة، ومن شخصيَّتها القوميَّة. وكما أنَّ سورية كانت تصارع للخروج من تحت نير الاستعمار إلى الحريَّة، فإنَّ الأمم العربيَّة الأخرى كانت تصارع كذلك.

لم يرَ سعادة مفرًّا من تصادم المصالح القوميَّة بين سورية وبين الأمم العربيَّة الأخرى، على الأقلِّ بين اثنتين تجاورانها حدوديًّا، مصر في وادي النيل، والدولة الوهابيَّة الفتيَّة في الجزيرة العربيَّة، إلاَّ إذا نشأ نمط جديد للتعاون بين الأمم العربيَّة. ولم يكن يساوره

أدنى شكٍّ في أنَّه إذا لم تكن سورية موحَّدة، فسوف "تنساق في تيَّارات العالم العربي."[21] أمَّا مَنفَذ هذا الخطر على سورية من هاتين الدولتين العربيَّتين فسوف يكون عبر بوابة فلسطين.

أدرك سعادة صعوبة التعامل مع هذا الخطر بسبب قبول بعض السوريِّين اشتغال مصر والسعوديَّة في قضيَّة فلسطين كأنَّها تخصُّهما مباشرة. بعضهم باسم الأخوَّة ورابطة اللغة والدين، أو باسم "القوميَّة العربيَّة"، وبعضهم الآخر طمعًا بالمنافع الماليَّة الكبيرة التي يمكن الحصول عليها عن طريق الدعاوة لهذه الدولة العربيَّة أو تلك. أمَّا سعادة فكان يرى الأمر من زاوية مغايرة. كان يراه من زاوية استغلال هاتين الدولتين لمسألة فلسطين في مبادلات مصلحيَّة مع دول أخرى.

ختامًا، ولاستكمال الصورة، نقول إنَّ سعادة كان يرى، منذ سنة 1934، أنَّ العالم مقبل على حرب عالميَّة جديدة، فيكتب إلى الجالية السوريَّة في البرازيل بمناسبة وفاة والده، العلاَّمة الدكتور خليل سعادة، وكان الحزب آنذاك ما يزال سريًّا، رسالة يحذِّر فيها من الأخطار القادمة، ويهيِّئ، ولو بشكل مبطَّن لما يعدُّه، ولما سيدعو المهاجرين السوريِّين فيما بعد إلى لعب دور فيه:

> ويحسن بنا، في هذا الزمن العصيب، أن نذكر دائمًا أنَّنا على قيد خطوة من حرب جديدة، لا يدري أحد ما تكون نتيجتها وإنَّما ندري، نحن، أنَّ وطننا سيكون مسرحًا من مسارحها، وأنَّ أمَّتنا ستكون من جملة الأمم المقدِّمة الضحايا فيها. وهذا أمر، لا بدَّ أنَّه واقع، أردنا أم أبينا. **فماذا أعددنا للساعة الآتية؟**[22]

لو شئنا خلاصة ما دفع سعادة إلى تأسيس الحزب، وإلى ملامح تفكيره الاستراتيجي لما وجدنا أفضل من بعض مقاطع من رسائله إلى إدفيك شيبوب. يمكن ربط المقطع الأوَّل مباشرة بنظرة الحزب إلى الحياة:

> كلُّنا يجب أن نكون لسورية، لأنَّه قد جاء الوقت الذي إذا فات ولم نفعل شيئًا في سبيل حريَّتنا فإنَّنا ساقطون في عبوديَّة شديدة طويلة. يجب أن نصبح أمَّة حرَّة لكي يصبح الحبُّ السوري حبَّ أحرار لا حبَّ عبيد، والحرُّ لا يمكنه أن ينعم بحبِّه في العبوديَّة.[23]

21) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الثالثة.
22) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثاني، ص. 151 (الرسالة إلى الجالية السوريَّة في البرازيل).
23) شيبوب، إدفيك، رسائل حب، ص. 139.

أمَّا الهدف، فهو العمل الدؤوب السريع لأنَّ الحزب:

> يجب أن يصير قويًّا ليصبح صالحًا للقبض على ناصية الاتِّجاه القومي، ويمنع الفوضى وينشر العقيدة القوميَّة التي لا يمكن توحيد القوى القوميَّة بدونها. ولأنَّ القضيَّة يجب أن تحصل على مركز متين قبل أن تداهم العالم حرب جديدة أرى أنَّها باتت قريبة.[24]

هذا السرد التاريخي، يعطينا فكرة عن مكوِّنات وعي سعادة السياسي وتطوُّر هذا الوعي بداية من طرح سؤاله الأساسي الأوَّل، وهو بعد فتى، "ما الذي جلب على شعبي هذا الويل"؟[25] الى استنتاجه سنة 1934، أنَّ بلاده "واقفة بين الحياة والموت."

هذه إذًا الخلفيَّة التاريخيَّة لعبارة سعادة البسيطة في ظاهرها: **إنَّ غاية الحزب الأوَّليَّة أن يكون حركة الشعب السوري العامَّة**، أي أن يكون العدَّة التي تعدُّها سورية للساعة الآتية.

24) المصدر نفسه، ص. 59.
25) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الثالثة (رسالة إلى حميد فرنجية).

الفصل الثاني: الأساس الاستراتيجي للحزب

تكلَّمنا في القسم الأوَّل عن مستويات الخطة الاستراتيجيَّة، وبيَّنَّا أنَّها تتدرَّج من النظرة والغاية إلى المواضيع الاستراتيجيَّة، فالأهداف الاستراتيجيَّة وصولاً إلى المشاريع والمبادرات التي تكفل تحقيق الأهداف الاستراتيجيَّة. وقلنا إنَّ هذه المستويات مترابطة ترابطًا متينًا ومتراصفًا بحيث تشكِّل كلاً موحَّدًا.

هل يشذُّ الحزب الذي أسَّسه سعادة عن هذه القاعدة؟ سنحاول الإجابة عن هذا السؤال منطلقين من المنهجيَّة نفسها التي اعتمدت في القسم الأوَّل، فنبحث في ما إذا كان للحزب أساس وخطة استراتيجيَّتان.

النظرة (المثال الأعلى)

لا يتضمَّن دستور الحزب السوري القومي الاجتماعي "نظرة" معيَّنة يعطيها طابعًا رسميًّا، فيقال إنَّ هذه العبارة هي "نظرة الحزب" أو رؤيته. ولكن سعادة أعطى موضوع المثال الأعلى أهميَّة قصوى في كتاباته قبل تأسيس الحزب وبعده، حتَّى جعله الهدف من الحريَّة والاستقلال. ففي محاضرة له بعنوان: "مبادئ أساسيَّة في التربية القوميَّة" ألقاها سنة 1932، يقول:

> إنَّ أغراض الأمم السامية هي مطالبها العليا، أمَّا الحريَّة والاستقلال، فليسا سوى الوسيلتين اللتين لا غنى للأمم عنهما لتحقيق تلك المطالب. ومتى بطل أن يكون لأمَّة ما مثال أعلى تريد تحقيقه، لم تبق لها حاجة إلى الحريَّة والاستقلال.[26]

وفي أكثر من مكان في كتاباته وخطبه، ترد عبارة "النظرة إلى الحياة والكون والفن."[27]

26) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثاني ص. 330، (مبادئ أساسية في التربية القومية).
27) منها، الصراع الفكري في الأدب السوري، والمحاضرات العشر، بالإضافة إلى العديد من رسائله.

التي اعتبر أنَّ الحركة السوريَّة القوميَّة الاجتماعيَّة قد تأسَّست بسببها.[28] واللافت للنظر، ونحن في معرض دراسة سعادة على ضوء مفاهيم التخطيط الاستراتيجي، استخدامه لكلمتي **أُسس وأساسيَّة** في معرض حديثه عن هذه "النظرة". والنظرة تعتبر من أسس التخطيط الاستراتيجي كما مرَّ سابقًا:

> الأمَّة هي هيئة تحقَّق فيها الوعي وحصلت **النظرة الفاهمة الواضحة الصريحة إلى الحياة والكون والفن**، فحيث لا توجد هذه **الأسس** تظلُّ الأمَّة موجودة في حالة إمكانيَّة فقط ولا تصير حقيقة إلاَّ بعد أن يحصل الوعي للحقائق **الأساسيَّة** التي تكوِّن وحدة الاتِّجاه وخطط الاتِّجاه التاريخي. وإنَّنا لا نجد هذه **الأسس** في سورية الطبيعيَّة كلِّها إلاَّ في الحزب السوري القومي الاجتماعي.[29]

إذا كانت النظرة هي الخطوة الأولى في وضع الأساس الاستراتيجي لأيَّة مؤسَّسة، وإذا كان سعادة يصف نظرته بأنَّها أساسيَّة، فهل هناك من عبارة يمكن لها أن تلخِّص هذه النظرة؟ في رأينا الجواب نعم. ثمَّة عبارتان تتزاحمان على تبوُّء هذه المكانة. الأولى من محاضرة في جمعيَّة العروة الوثقى سنة 1932، هي: "**إنَّ في الحياة السوريَّة مثالاً أعلى هو العمل للخير العام في ظلِّ السلام والحريَّة**".[30] أما الثانية فمن كتاب الصراع الفكري في الأدب السوري: "**طلب الحقيقة الأساسيَّة الكبرى لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى.**"[31]

العبارتان قريبتان جدًّا من ناحية المفاهيم المتضمَّنة في كلٍّ منهما. كما أنَّ مواصفات عبارة النظرة كما حدَّدناها في القسم الأوَّل تنطبق على الاثنتين معًا. سنختار الثانية ونستعملها في هذا الكتاب وذلك للسببين التاليين:

1. إنَّها أكثر كثافة وشموليَّة من الأولى، ومفاهيمها تستوعب مفاهيم الأولى ولا يعكس بالضرورة: "الحياة الأجود" تتضمَّن "الخير العام"، و"العالم الأجمل" يحمل ضرورة مساهمة سورية في بناء هذا العالم. كما أنَّ "القيم الأعلى" تتضمَّن "السلام والحريَّة" دون أن تتحدَّد بهما.
2. العبارة الثانية لاحقة تاريخيًّا للأولى، وقد وصفها سعادة بقوله: "إنَّها القاعدة

28) سعادة، أنطون، الصراع الفكري في الأدب السوري، بيروت، 1978، ص. 70.
29) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الثانية.
30) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثاني ص. 336، من محاضرة في جمعية "العروة الوثقى".
31) سعادة، أنطون، الصراع الفكري في الأدب السوري، بيروت، 1978، ص. 72.

الذهبيَّة التي لا يصلح غيرها للنهوض بالحياة والأدب."[32]

"النظرة" التي سنعتمدها للحزب السوري القومي الاجتماعي إذًا: هي

حياةٌ أجود في عالمٍ أجمل وقيمٍ أعلى.

سنتوسَّع في شرح ما تنطوي عليه هذه النظرة لأهمِّيتها القصوى في البنيان الفكري والاستراتيجي للحزب. ركَّز سعادة في المحاضرة العاشرة وموضوعها "غاية الحزب وخطَّته" على أنَّ غاية الحزب هي الاهتمام **بحياة الأمَّة**:

> بعد تأسيس فكرة الأمَّة يجب الاهتمام بالأمَّة التي أصبح لها تحديد واضح لم يعد متراوحًا. أصبح من الضروري الاهتمام بمصير الأمَّة، بتأمين مصيرها، بتأمين حياتها ووسائل تقدُّم الحياة نحو المثل العليا، نحو إقامة نظام جديد للحياة يجعل الحياة **أرقى وأفضل وأجمل**.
>
> ...فالحياة وجمالها وخيرها وحسنها هي الغاية الأخيرة. وليست الغاية العمل، كما كان يُظَنُّ في حالات كثيرة من مثل التي نشأت ولم تتعمق، في مسائل الحياة الاجتماعيَّة وقضاياها.[33]

الحياة المثاليَّة إذًا، هي الغاية الأخيرة وليس أيُّ شيء آخر، حتَّى الدين، الذي رأى مع والده الدكتور خليل سعادة، أنَّه "وسيلة لتشريف الحياة وليس العكس."[34]

لقد استحوذ موضوع المثال الأعلى على فكر سعادة لدرجة يمكن القول معها إنَّ المقالات التي جمعها في كتابه الصراع الفكري في الأدب السوري جميعها مختصٌّ به. وإذا كان الكتاب يركِّز على الأدب والموسيقى والشعر، فلأنَّ سعادة رأى فيها الفهم الأعمق لقيم الأمَّة الروحيَّة والتعبير الأمثل عن شخصيَّتها. وقد خصَّ سعادة الفنَّان بمكانة كبيرة في خلق النهضة حتَّى أنَّه وضعه في مصاف الفيلسوف والعبقري والقائد الملهم:

> الفنَّان المبدع والفيلسوف هما اللذان لهما القدرة على الانفلات من قيود الزمان والمكان وتخطيط حياة جديدة ورسم مُثُل عليا بديعة لأمَّة بأسرها.[35]

المثال الأعلى عند سعادة هو نظرة إلى الحياة نابعة من الحبِّ والمحبَّة: حبُّ الحياة ومحبَّة الإنسان للإنسان. يقول في الصراع الفكري في الأدب السوري: "الصداقة هي تعزية الحياة، أمَّا الحبُّ فهو الدافع إلى المثال الأعلى."[36] ويتوسَّع في ماهية المحبَّة التي يتكلَّم

32) المصدر نفسه، ص. 78.
33) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة العاشرة.
34) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة السابعة.
35) سعادة، أنطون، الصراع الفكري في الأدب السوري، بيروت، 1978، ص. 28.
36) المرجع نفسه، ص. 70.

عنها ويصفها بإسهاب ويصف أهميَّتها في حياة المجتمع وذلك في معرض حديثه عن "سليم"، بطل قصَّته القصيرة فاجعة حب، ورأيه في الأدب والموسيقى:

...إنه كان يرى الفورة السياسية أمرًا تافهًا إذا لم تكن مرتكزة على نفسيَّة متينة يثبتها في قلب كلِّ فرد، سواء كان رجلاً أم امرأة، شابًا أم شابَّة، أدب حيٌّ وفنٌّ موسيقي يوحِّد العواطف ويجمعها حول مطلب أعلى حتَّى تصبح ولهًا إيمان اجتماعي واحد قائم على المحبَّة. المحبَّة التي إذا وجدت في نفوس شعب بكامله أوجدت في وسطه تعاونًا خالصًا وتعاطفًا جميلاً يملأ الحياة آمالاً ونشاطًا. حينئذ يصبح الجهاد السياسي شيئًا قابل الانتاج، وأمَّا الوطنيَّة القائمة على تقاليد رجعيَّة رثَّة فهي شيء عقيم ولو أدَّت إلى الحريَّة السياسيَّة.[37]

لا يقتصر دور هذه النظرة على الحياة في سورية وحدها، بل إنَّها نظرة إنسانيَّة بامتياز. أراد سعادة منها أن تكون مساهمة سوريَّة في تقدُّم الإنسانيَّة وتخليصها من أعظم آفاتها، الحروب المهلكة، عبر مبدأين: الأوَّل هو الذي أشرنا إليه أعلاه: **العمل للخير العام في ظلِّ السلام والحريَّة**. هذا ليس بالضرورة مبدأ داخليًّا فقط، فالخير العام يمكن أن يكون الخير الداخلي أو الخير الإنساني العام أيضًا. أمَّا المبدأ الثاني الذي يشكِّل القيمة المضافة الأهم التي وضعها سعادة، فهو نظرته الفلسفيَّة الاجتماعيَّة المعروفة باسم "المدرحيَّة" التي هي **فلسفة التفاعل الموحِّد جامع القوى الإنسانيَّة**:

...وآمنت بكم أمَّة مثاليَّة معلِّمة وهادية للأمم، بنَّاءة للمجتمع الإنساني الجديد، قائدة لقوَّات التجدُّد الإنساني بروح التعاليم الجديدة التي تحملون حرارتها المحيية وضياءها المنير إلى الأمم جميعًا، داعية الأمم إلى ترك عقيدة تفسير التطوُّر الإنساني بالمبدأ الروحي وحده، وعقيدة تفسيره من الجهة الأخرى بالمبدأ المادي وحده، والإقلاع عن اعتبار العالم ضرورةً، عالم حرب مهلكة بين القوى الروحيَّة والقوى الماديَّة، وإلى التسليم معنا بأنَّ أساس الارتقاء الإنساني هو أساس مادي - روحي (مدرحي)، وأنَّ الإنسانيَّة المتفوِّقة هي التي تدرك هذا الأساس وتشيد صرح مستقبلها عليه. ليس المكابرون بالفلسفة الماديَّة بمستغنين عن الروح وفلسفته، ولا المكابرون بالفلسفة الروحيَّة بمستغنين عن المادَّة وفلسفتها...هذا العالم يحتاج اليوم إلى فلسفة جديدة تنقذه من تخبُّط هذه الفلسفات وضلالها، وهذه الفلسفة الجديدة التي يحتاج إليها العالم – فلسفة التفاعل الموحِّد الجامع القوى الإنسانيَّة – هي الفلسفة التي تقدِّمها نهضتكم.[38]

37) المرجع نفسه، ص. 37.
38) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة الجزء السابع، ص. 178 (رسالة إلى القوميِّين الاجتماعيِّين).

لا بأس إذا توقَّفنا هنا لنربط هذه العبارة، بل كلَّ ما يرد في الجزء من البحث، بما تكلَّمنا عنه في القسم الأوَّل عن "النتيجة الاستراتيجيَّة." إن الصور التي يقدِّمها سعادة في العبارة أعلاه وسواها، هي النتائج الاستراتيجيَّة العليا الأخيرة التي يتوخَّاها، والتي يصفها بدقَّة متناهية، داعيًا السوريِّين إلى تحقيقها.

كيف نصنِّف نظرة سعادة إلى الحياة بين النظرات الفلسفيَّة؟ إنَّها نظرة وجوديَّة بامتياز. رفض سعادة المثال الأعلى القائم على الحدس والتخمين، والنظرة الشرقيَّة التي – على لسان الدكتور محمد حسين هيكل – "تؤمن بوحدة الوجود وترى في هذه الوحدة والاتصال بها والفناء الروحي فيها غاية ما ترجوه."[39] واعتبر أنَّه إذا كان هذا مثالٌ أعلى فهو:

مثال عدمي أو فنائي لا وجودي والروحيَّة الموافقة له هي روحيَّة كسيحة مريضة تتَّجه نحو الغيب الذي تجعله مستقرًّا للوجود، وتشيح بوجهها عن الوجود الإنساني الذي لا تحسبه إلا عبَّارة إلى الغيب وواسطة للفناء فيه.[40]

كما رفض كذلك الرأي القائل "إنَّ الطريقة الوحيدة للانتصار على المادَّة هي في إهمال قضايا المادَّة وثقافتها"، ودعا إلى الأخذ بنظرة العقل السوري تاريخيًّا "الذي خطَّط للمتوسِّط قواعد ثقافته الماديَّة والروحيَّة، ورأى أنَّ الانتصار على المادَّة يكون بمعالجتها والقبض عليها وتسخيرها للغايات النفسيَّة الجميلة التي تجعل الوجود الإنساني جميلاً، صريحًا، نيِّرًا.[41]

لم يكتشف سعادة هذه النظرة إلى الحياة، بل كشف عنها، ودعا إلى الأخذ بها كما جاء في ندائه إلى شعراء سورية:

تعالوا نرفع لهذه الأمَّة التي تتخبَّط في الظلمات مشعالاً فيه نور حقيقتنا وأمل إرادتنا وصحَّة حياتنا. تعالوا نشيد لأمَّتنا قصورًا من الحبِّ والحكمة والجمال والأمل بمواد تاريخ أمَّتنا السوريَّة ومواهبها وفلسفات أساطيرها وتعاليمها المتناولة قضايا الحياة الإنسانيَّة الكبرى. تعالوا نأخذ بنظرة إلى الحياة والكون والفنِّ، نقدر على ضوئها أن نبعث حقيقتنا الجميلة من مرقدها.[42]

إذًا، تأسَّس الحزب السوري القومي الاجتماعي بسبب نظرة إلى الحياة اعتبرها سعادة

39) سعادة، أنطون، الصراع الفكري في الأدب السوري، بيروت، 1978، ص. 18.
40) المرجع نفسه، ص. 19.
41) المصدر نفسه.
42) المصدر نفسه، ص. 65.

تساوي وجود الآخذين بها، فيقفون في سبيلها معًا أو يسقطون معًا.[43] إنَّها مثالهم الأعلى من الناحية النفسيَّة ومن الناحية العمليَّة أيضًا، إذ أنَّها النظرة التي تكفل وحدة الاتجاه. ووحدة الاتجاه شرط أساسي عند سعادة للخروج من الفوضى إلى النظام.[44] أمَّا من الناحية الإنسانيَّة العالميَّة، فإنَّ هذه النظرة تتيح لسورية المشاركة في تقدُّم الإنسانيَّة شرط تمتُّعها بالحريَّة والسلام.

الغاية

إذا كان دستور الحزب لا يتضمَّن عبارة "النظرة"، فإنَّه بدون شكٍّ يتضمَّن غاية واضحة وصريحة:

> غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي بعث نهضة سوريَّة قوميَّة اجتماعيَّة تكفل تحقيق مبادئه وتعيد إلى الأمَّة السوريَّة حيويَّتها وقوَّتها، وتنظيم حركة تؤدّي إلى استقلال الأمَّة السوريَّة استقلالاً تامًّا وتثبيت سيادتها وإقامة نظام جديد يؤمِّن مصالحها ويرفع مستوى حياتها والسعي لإنشاء جبهة عربيَّة.[45]

بديهي أنَّ غاية الحزب منبثقة من النظرة أعلاه. إذ كيف لجماعة أن تتخيَّل "حياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى" إن لم تشترك هي في هذا العالم عبر مجتمعها الأجود والأجمل بسبب نظرة إنسانيَّة راقية تتَّخذها مثالاً أعلى لها؟ إنَّ صيغة الغاية تؤكِّد لنا التسلسل المنطقي في فكر سعادة بمعنى قيام نظرة إلى الحياة أولاً، ومن ثمَّ تأسيس حركة ذات غاية واضحة لتحقيق هذه النظرة:

> إنَّ غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي هي قضيَّة شاملة تتناول الحياة القوميَّة من أساسها ومن جميع وجوهها. إنَّها غاية تشمل جميع قضايا المجتمع القومي، الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة والروحيَّة والمناقبيَّة وأغراض الحياة الكبرى. فهي **تحيط بالمثل العليا القوميَّة** وبالغرض من الاستقلال وبإنشاء مجتمع قومي صحيح. **وينطوي تحت ذلك تأسيس عقليَّة أخلاقيَّة جديدة** ووضع أساس مناقبي جديد وهو ما تشتمل عليه مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي الأساسيَّة والإصلاحيَّة، التي تكون قضيَّة ونظرة إلى الحياة كاملة، أي فلسفة كاملة.[46]

من قراءة الغاية والوصف الذي أعطاه سعادة لها نرى أنَّها تنطوي على ما يلي:

43) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الثانية.
44) المصدر نفسه.
45) دستور الحزب السوري القومي الاجتماعي، المادَّة الأولى.
46) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة العاشرة.

- عقيدة الحزب وقضيَّته.
- الإحاطة بالمثال الأعلى وتأسيس عقليَّة أخلاقيَّة جديدة.
- إقامة نظام جديد.
- السعي لإنشاء جبهة عربيَّة.

وتتضمَّن الفقرة أعلاه نقطتين مهمَّتين جدًّا: أوَّلاً، إنَّ الاستقلال هو وسيلة لتحقيق المثال الأعلى. ثانيًا إنَّ تأسيس عقليَّة أخلاقيَّة جديدة وأساس مناقبي هما في صميم الحركة.

عقيدة الحزب

عقيدة الحزب موجودة في مبادئه الأساسيَّة الثمانيَّة، وتشكِّل مع المبادئ الإصلاحيَّة الخمسة قضيَّة الحزب. هذه المبادئ على درجة من الأهميَّة بمكان حيث وضعها سعادة في مقدِّمة دستور الحزب وضمَّنها مادَّتيه الثانية والثالثة،[47] مباشرة بعد المادَّة الأولى، غاية الحزب.

يحدِّد سعادة المبدأ بأنَّه "نقطة انطلاق الفكر في اتِّجاه محدَّد، وأنَّ المبادئ توجد للشعوب، لا الشعوب للمبادئ، وأنَّ كلَّ مبدأ لا يخدم سيادة الشعب نفسه ووطنه هو مبدأ فاسد، وأنَّ كلَّ مبدأ صحيح يجب أن يكون لخدمة حياة الأمَّة."[48]

رأي سعادة في المبادئ قوَّة حيَّة فاعلة تُبنى عليها **السياسات**[49] **والخطط والمقرَّرات:**

> هكذا نرى أنَّ هذه المبادئ ليست أقوالاً جامدة أو كلمات ميتة أو حروفًا متناسقة، بل قوَّة حيَّة فاعلة تتولَّد فيها مقرَّرات مبدئيَّة أساسيَّة هامَّة وتُبنى عليها خطط في السياسة المصلحيَّة وفي السياسة الأخلاقيَّة وفي السياسة الفكريَّة أيضًا، في السياسة النظاميَّة، في السياسة التي تتَّجه إلى تقرير الاتِّجاه والاعتناء بالقيم الهامَّة، الأساسيَّة الجوهريَّة، السامية التي هي جوهر القضيَّة السوريَّة القوميَّة الاجتماعيَّة وجوهر النظام القومي الاجتماعي.[50]

يمكن اعتبار هذا المقطع من أهمِّ المقاطع في كتابات سعادة كلِّها إذ أنَّه يحدِّد نهجًا واضحًا وثابتًا في مقاربة جميع المسائل سواء أكانت فلسفة الإدارة الحزبيَّة أو فلسفة السياسة أو وضع السياسات الحزبيَّة أو الغرض من النظام. **المنطلق هو عقيدة الحزب، والوجهة هي غايته ونظرته.**

47) مقدِّمة الدستور، والمادَّتان الثانية والثالثة منه. كذلك أنظر الملحق رقم(2) ص 203
48) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الثالثة.
49) السياسات هنا بمعنى Policies وليس Politics.
50) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الثالثة.

المثال الأعلى والعقليَّة الأخلاقيَّة الجديدة

توسَّعنا في شرح المثال الأعلى فيما سبق، وسنتوسَّع في شرح مفهوم العقليَّة الأخلاقيَّة الجديدة أثناء كلامنا عن موضع التميُّز الاستراتيجي. ولكن اشتمال غاية الحزب هذين المفهومين يؤكِّد على الترابط القائم من نظرة الحزب إلى غايته، وأنَّ هذه الغاية هي لخدمة تلك النظرة، لخدمة المثال الأعلى.

إقامة نظام جديد

النظام بالنسبة إلى سعادة شيء جوهري. إنَّه إحدى الدعائم الأربع[51] التي تقوم عليها النهضة السوريَّة القوميَّة الاجتماعيَّة. ولكن من المهمِّ طبعًا التفريق بين عدد من المعاني لكلمة نظام: النظام عكس الفوضى، والنظام كنظام الحكم أو الدولة أو النظام السياسي، أو نظام الحياة كما قصده سعادة. سنقتبس من الخطاب المنهاجي الأوَّل وشرحه نظرة سعادة إلى حزبه أوَّلاً، ومن ثمَّ إلى النظام الجديد الذي تدعو غاية الحزب إلى إقامته.

1. إنَّ الحزب السوري القومي الاجتماعي ليس حزبًا سياسيًّا بالمعنى الاعتيادي. إنَّه يشكِّل قضيَّة الآفاق للمجتمع الإنساني الذي نحن منه ونكوِّن مجموعه.
2. إنَّه حزب يتناول حياة الأمَّة كلَّها. يتناول الحياة القوميَّة من أساسها ومقاصدها العظمى كلِّها وليس جزءًا منها.

بناء على ما تقدَّم:

2.1. لا يمكن أن يكون النظام الذي ينوي إنشاءه نظامًا سياسيًّا تقليديًّا.

2.2. لا يمكن لهذا النظام أن يقوم على "التراكم"، أي "ذوي مكانة" يقودون قطعانًا بشريَّة يتكلَّمون باسمها ويستخدمونها لخدمة مصالحهم الخاصَّة.

2.3. إنَّه النظام الذي يقوم على قواعد حيويَّة تأخذ الأفراد إلى النظام وتفسح أمامهم مجال التطوُّر والنموِّ على حسب مواهبهم ومؤهِّلاتهم.

2.4. إنَّه نظام يرمي إلى صهر التقاليد المنافية لوحدة الأمَّة والمُستمدَّة من الأنظمة المذهبيَّة.

2.5. إنَّه النظام الذي تتمركز إرادة الأمَّة فيه فيضمن وحدتها ويمنع عوامل القسمة.

51) الحريَّة والواجب والنظام والقوَّة، راجع الخطاب المنهاجي الأول، المحاضرة الثانية.

2.6. إنَّه النظام الذي يجمع الأفكار والعواطف ويلمُّ شمل قوَّات الشباب المعرَّضة للتفرقة بين عوامل الفوضى القوميَّة والسياسيَّة المنتشرة.

2.7. إنَّه نظام قومي اجتماعي بحت، لا يقوم على التقليد الذي لا يفيد شيئًا، بل على الابتكار الأصلي.

2.8. إنَّه النظام الذي لا بدَّ منه لتكييف الحياة القوميَّة الجديدة ولصون النهضة من تدخُّل العوامل الرجعيَّة التي لا يؤتمن جانبها وقد تكوِّن خطرًا عظيمًا يهدِّد كلَّ حركة تجديديَّة بالفساد.

2.9. إنَّه النظام الذي "لا يعني الترتيبات الشكليَّة الخارجيَّة، بل هو **نظام الفكر والنهج، ثمَّ نظام الأشكال التي تحقِّق الفكر والنهج.**"

هذه العبارة الأخيرة هي أهم عبارة على المستوى الفكري الأعلى التي تلخِّص رؤية سعادة للنظام الجديد وأهميَّته. فنظام الفكر هو ذلك المتضمَّن في الأساس الاستراتيجي: النظرة، الغاية، القيم، النظرة الأخلاقيَّة الجديدة - موضع التميُّز الاستراتيجي. أمَّا نظام النهج فهو الخطَّة الاستراتيجيَّة التي وضع سعادة أُسسها وتوقَّع تطويرها والعمل عليها. في حين أنَّ نظام الأشكال هو المؤسَّسات الدستوريَّة على مختلف اختصاصاتها ومراتبها وتنظيمها، وعليها يقوم النظام الجديد، وبها يحقِّق الحزب غايته.

الجبهة العربيَّة

رأى سعادة أنَّ سورية هي إحدى أمم العالم العربي الأربع: سورية الطبيعيَّة، العَرَبَة (شبه الجزيرة العربيَّة)، وادي النيل (مصر والسودان) والمغرب العربي الكبير. واعتبر أنَّ هذه الرؤية تقدِّم الأساس السليم لتحديد المصالح القوميَّة لكلٍّ من هذه الأمم. وأدخل في صلب غاية الحزب السعي لإنشاء جبهة عربيَّة لأنَّه رأى في ذلك مصلحة مشتركة للدول التي تدخل فيها سواء أكان ذلك في أحلاف ثنائيَّة أو أكثر لمواجهة التحدِّيات المشتركة.

للوصول إلى هذه المرحلة، رأى سعادة سلك "طريق المؤتمرات والمحالفات التي هي الطريق العمليَّة الوحيدة لحصول تعاون الأمم العربيَّة وإنشاء جبهة عربيَّة."[52]

على جانب موضوع الجبهة العربيَّة، لا بدَّ من الإشارة إلى نقطتين أساسيَّتين ركَّز عليهما سعادة في شرحه للمبدأ الأوَّل في المحاضرة الثالثة هما: تحقيق الوحدة القوميَّة كشرط للتعاون، وإلاَّ وقعت سورية فريسة الانسياق لمصالح الأمم العربيَّة الأقوى؛ أمَّا النقطة

52) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة العاشرة.

الثانية فهي إبقاء القرار في المسائل السوريَّة – سوريًّا. وسنتوسع في بحث هاتين النقطتين في الفصول اللاحقة.

صيغة الغاية

إنَّ الطريقة التي صيغت بها غاية الحزب ملفتة للنظر لا سيَّما في سياق علم التخطيط الاستراتيجي وذلك للأسباب التالية:

1. الوضوح: عبارة الغاية واضحة ولا مجال للالتباس في أيٍّ من مكوِّناتها.
2. يمكن للقارئ رؤية أربعة مكوِّنات فيها هي: بعث نهضة، وتأسيس حركة، وإقامة نظام جديد، والسعي لإنشاء جبهة عربيَّة.
3. ثلاث من عبارات المكوِّنات هذه جازمة وواضحة المخرج: "بعث"، و"تأسيس" و"إقامة". أمَّا الرابعة "السعي" فهي غير جازمة ولا مخرج واضح لها. السبب في ذلك هو أنَّ الثلاث الأولى متعلِّقة بأعضاء الحزب وحدهم، بينما الرابعة لها علاقة بجهات خارجيَّة ربَّما ترغب وربَّما لا ترغب في إقامة مثل هذه الجبهة.
4. بناء عليه، فإنَّ النتائج الاستراتيجيَّة لكلٍّ من العبارات الثلاث الأولى واضحة: "تحقيق المبادئ وإعادة الحيويَّة للأمَّة"؛ "إستقلال الأمَّة وتثبيت سيادتها"؛ "تأمين المصالح ورفع مستوى الحياة". أمَّا العبارة الرابعة، فهي غير مرتبطة بنتيجة استراتيجيَّة، أقله في نصِّ الغاية، وإن يكن سعادة قد وضع نتيجة استراتيجية لها في شرح غاية الحزب.

كلُّ هذا يجعل استخراج المواضيع الاستراتيجيَّة والنتائج الاستراتيجيَّة المتعلِّقة بها عمليَّة سهلة جدًّا كما سنرى.

بين النهضة والحركة

ما الفرق بين "النهضة" و"الحركة"، ولماذا استعمل سعادة هاتين الكلمتين في صياغته لغاية الحزب؟ لنعد إلى تحديده لكل من هاتين العبارتين.

> إن النهضة لها مدلول واضح عندنا وهو، خروجنا من التخبط والبلبلة والتفسخ الروحي بين مختلف العقائد إلى عقيدة جليَّة صحيحة واضحة نشعر أنها تعبر عن جوهر نفسيتنا وشخصيتنا القوميَّة الاجتماعيَّة. إلى نظرة جليَّة، قويَّة، إلى الحياة والعالم.
>
> إذا وصلنا إلى الاقتناع بأننا أصبحنا ننظر إلى الحياة وإلى الكون الماثل أمامنا وإلى الخلق

> الذي ينبثق منا بالنسبة إلى الإمكانيات كلها في العالم ونستعرض مظاهرها ونفهم كل ذلك فهمًا داخليًا، بنظر أصلي ينبثق منا نحن بالنظر لحقيقتنا، حينئذ يمكننا القول إن لنا نهضة، إن لنا أهدافًا.
>
> النهضة، إذًا، هي الخروج من التفسخ والتضارب والشك إلى الوضوح والجلاء والثقة واليقين والإيمان والعمل بإرادة واضحة وعزيمة صادقة. هذا هو معنى النهضة لنا.[53]

انطلاقًا من هذا الشرح، يمكن القول إن النهضة التي يريدها سعادة تنطلق أساسًا من نظرة إلى الحياة والكون والفن، ومن عقيدة واضحة تخرج السوريين من التخبط والبلبلة والتفسخ إلى الوضوح والعمل بإرادة واضحة. غير أن نشر العقيدة وحده لا يكفي، بل لا بد من "التنظيم"، من تنظيم العمل في حركة تؤدي إلى نتائج حسِّيَّة ملموسة، إي إلى تحقيق أهداف حسيَّة. ولعل المقطع التالي يشير بوضوح إلى الفرق الذي قصده سعادة بين النهضة والحركة:

> ويجب على اللجنة أن تعلم أنَّه لا يفيدني شيئًا معرفة أنَّ العقيدة وحدها تنتشر. فالعقيدة تنتشر بواسطة توزيع المبادئ ومنشورات الحزب والجريدة. أمَّا وجود اللجنة المفوَّضة فليس فقط لاكتساب أشخاص يصرِّحون لنا أنَّهم يعتنقون مبادءنا بل لتنظيمهم وإفهامهم نظام الحزب وتعيين واجباتهم المعنويَّة والمادِّيَّة وتكليفهم لمهمات صريحة من قبل اللجنة...[54]

إذن يمكن أن تنتشر العقيدة دون أن تتحقق غاية الحزب، فتبقى فكرة جميلة نيِّرة ربما تعم أوساط المجتمع أو بعض فئاته دون أن يؤدي ذلك إلى "استقلال الأمة السورية وتثبيت سيادتها"، أو إلى "إقامة نظام جديد يؤمن مصالحها،" او إلى "السعي لإقامة جبهة عربيَّة." الشرط الضروري لتحقيق أي من هذه النقاط الثلاث هو في "تنظيم حركة تؤدِّي إلى ذلك كله.

أهميَّة الغاية

ما هي الأهميَّة التي أعطاها سعادة لغاية الحزب؟ نأخذ الجواب عن هذا السؤال من تحذير تاريخي وجَّهه سعادة لأتباعه في المحاضرة العاشرة حيث يقول:

> كلُّ عقيدة عظيمة تضع على أتباعها المهمَّة الأساسيَّة الطبيعيَّة الأولى التي هي انتصار حقيقتها وتحقيق غايتها. كلُّ ما دون ذلك باطل. وكلُّ عقيدة يصيبها الإخفاق في هذه المهمَّة تزول ويتبدَّد أتباعها.[55]

53) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الأولى.
54) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السابع، ص 164. (رسالة إلى هيئة اللجنة المفوضة).
55) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الأولى.

القيم

حدَّدنا في الفصل الأوَّل القيم بأنَّها أسمى ما في نفسيَّة أعضاء المؤسَّسة. إنَّها الدعائم التي يقوم عليها بنيانها، وما يدافع عنه العاملون فيها بكلِّ قواهم. وفق هذا التعريف يمكن لنا اعتبار ما سمَّاه سعادة "دعائم" الدولة القوميَّة وضمَّنها في الفقرة الأولى من الخطاب المنهاجي الأول في حزيران 1935، ثمَّ عاد فوصفها بأنَّها "فضائل"[56] الحريَّة والواجب والنظام والقوَّة من القيم الأساس للنهضة السوريَّة القوميَّة الاجتماعيَّة:

> منذ الساعة التي أخذت فيها عقيدتنا القوميَّة الاجتماعيَّة تجمع بين الأفكار والعواطف وتلمُّ شمل قوَّات الشباب المعرَّضة للتفرقة بين عوامل الفوضى القوميَّة والسياسيَّة المنتشرة في طول بيئتنا وعرضها وتكوِّن من هذا الجمع وهذا اللَم نظامًا جديدًا ذا أساليب جديدة يستمد حياته من القوميَّة الجديدة هو نظام الحزب السوري القومي الاجتماعي - منذ تلك الساعة انبثق الفجر من الليل وخرجت الحركة من الجمود وانطلقت من وراء الفوضى قوَّة النظام، وأصبحنا أمَّة بعد أن كنا قطعانًا بشريَّة وغدونا دولة تقوم على أربع دعائم: الحريَّة، الواجب، النظام، القوَّة، التي ترمز إليها أربعة أطراف الزوبعة القوميَّة الاجتماعيَّة الممثَّلة في علم الحزب السوري القومي الاجتماعي.
>
> منذ تلك الساعة نقضنا بالفعل حكم التاريخ وابتدأنا تاريخنا الصحيح، تاريخ الحريَّة والواجب والنظام والقوَّة، تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي، تاريخ الأمَّة السوريَّة الحقيقي.[57]

ربَّ سائل: أليست قيم الحق والخير والجمال هي قيم الحزب لا سيَّما بعد المعركة الفلسفيَّة الطويلة التي دارت رحاها بين سعادة وعدد من المسؤولين، أولاً عبر الرسائل، ومن ثمَّ بعد عودته من المنفى؟ سؤال وجيه نظرًا إلى أهميَّة القيم في تحديد مسار حركة تغييريَّة مثل الحزب.

لقد اعتبر سعادة أنَّه من تحصيل الحاصل أن تكون قيم الحق والخير والجمال في صميم الحركة: "وما معنى قضيَّتنا إذا لم تكن مؤسَّسة على الخير والحق والجمال؟"[58] هذا السؤال كان أحد الأسئلة التي تمحورت حولها المحاضرة الأولى، في 7 يناير/كانون ثانٍ، 1948. من هذه المحاضرة نستنتج ما يلي عن هذه النقطة:

56) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثامن، ص. 41. (سلطة الزعيم).
57) سعادة، أنطون، الخطاب المنهاجي الأول.
58) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الأولى.

- يعمل السوريُّون القوميُّون الاجتماعيُّون لقضيَّة أساسيَّة جوهريَّة في سبيلها يقفون معًا ويسقط كلُّهم معًا.
- هذه القضيَّة فيها كلُّ الخير وكلُّ الحقِّ وكلُّ الجمال وكلُّ الحقيقة وكلُّ العدل للمجتمع الإنساني.
- يجب أن تكون لدى السوريِّين الثقة بأنَّ لهم المقدرة الاجتماعيَّة العليا لكلِّ مجتمع مدرك، لإدراك ماهية هذه القيم، وأنَّه ليس في حقيقتهم وطبيعتهم سوى الحقّ الخير والجمال قيمًا عليا تعبِّر عنها قضيتهم.
- إذا وجدت هذه القيم بمعزل عن مجتمعهم، ومن غير أن تعبِّر عن حقيقته أو جماله أو خيره، فلا خير ولا حقَّ ولا جمال.

ومع أنَّ سعادة لم يُشر، عند تأسيس الحزب، إلى أنَّ قيم الحقِّ والخير والجمال هي دعائم الحركة التي سوف يبدأ بها تاريخ الأمَّة الحقيقي، وتقوم عليها الدولة القوميَّة الجديدة، فما من شكٍّ في أنَّ نظرة الحزب كما ذكرنا أعلاه تنطوي على هذه القيم وتعمل لها ضمن إدراك مجتمعيٍّ مشترك لماهيتها وأهميِّتها.

بناء على كل ما تقدَّم، يتقرَّر أنَّ هناك ثلاث قيم على مستوى "النظرة"، هي الحقُّ والخير والجمال، وأربع على مستوى "الغاية" هي الحريَّة والواجب والنظام والقوَّة، وتشكِّل كلُّها قيم النهضة السوريَّة القوميَّة الاجتماعيَّة.

موضع التميُز الاستراتيجي

ما هي الكلمة الواحدة التي يمكن أن تصف السوريِّين القوميِّين الاجتماعيِّين وتميِّزهم من سواهم، وتوحِّد مقياس عملهم العام؟ نعتقد أنَّ هذه الكلمة هي "الصدق". أعطى سعادة أهميَّة كبيرة للعامل الأخلاقي المناقبي في بناء نهضته، وسمَّاه "العقليَّة الأخلاقيَّة الجديدة". واستعماله كلمة "جديدة"، يعني وجود عقليَّة قديمة، وقد أطلق عليها اسم "النفسيَّة العامَّة" ووصفها بأسهاب، أولاً في خطاب أوَّل آذار، 1938 حيث يقول:

> ...النفسيَّة العامَّة في الأمَّة نفسيَّة خوف وجبن وتهيُّب وتهرُّب وترجرج في المناقب والأخلاق. ومن صفات هذه النفسيَّة العامَّة الخداع والكذب والرياء والهزؤ والسخرية والاحتيال والنميمة والوشاية والخيانة وبلوغ الأغراض الأنانيَّة ولو كان عن طريق الضرر بالقريب وعضو المجتمع.[59]

ليعود ويختصرها في المحاضرة العاشرة في ثلاث عبارات هي: "السياسة والدبلوماسيَّة

59) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة الجزء الرابع، بيروت، 1980، ص. 36.

وعدم التصارح."[60] ونقيضها الوحيد هو الصدق.

قد يُظنُّ أنَّ كلمة الصدق محدودة جدًّا في وصف العقليَّة الأخلاقيَّة الجديدة. لكن في اعتقادنا، أنَّ المعاني المرتبطة بهذه الكلمة أو تلك المشتقَّة منها تعبِّر تمامًا عمَّا توخَّاه سعادة، كما تشير إلى ذلك المعاني أدناه، التي أخذناها عن قاموس المنجد:

الصدق: ضدَّ الكذب؛ صَدَقَ في الوعد: أنفذه؛ صَدَقَهُ النصيحة: أخلص بها؛ **الصِّدْقُ**: الكامل في كلِّ شيء؛ رجل **صدق** وصديق **صدق**: صادق في الرجوليَّة لا يخون؛ صَدَقَ **القتال**: تصلَّب فيه واشتدَّ؛ **الصِّدق**: الشدَّة والصلابة؛ **المَصْدَق**: شجاع صادق الحملة؛ **الصداقة**: المحبَّة بالصدق؛ **الصِّدِّيق**: كثير الصدق، الذي يصدق قوله بالعمل.

خلاصة

أسَّس سعادة حزبه سنة 1932 ووضع له أساسًا استراتيجيًّا واضحًا ينسجم تمامًا مع ما مرَّ معنا في الفصل الأوَّل. ولعلَّ الحزب في طليعة المؤسَّسات في العالم العربي التي وضعت لها نظرة إنسانيَّة شاملة، وغاية تميِّز أعضاءها من سواهم، فيما هي تجمعهم حول فكرة وهدف يساويان وجودهم، ومنظومة قيم إنسانيَّة راقية. ووضع سعادة أساسًا أخلاقيًّا للتعامل الداخلي والخارجي على السواء.

60) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة العاشرة.

الفصل الثالث: خطَّة الحزب الاستراتيجيَّة

أرسى سعادة حزبه على أساس استراتيجي متين، لكنَّه لم يقف عنده. فكتيِّب التعاليم يتضمَّن فصلاً بعنوان: "غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي وخطَّته". وهو الفصل الذي عاد فشرحه بإسهاب في محاضرته العاشرة. فما هي هذه الخطَّة وما هي مكوِّناتها؟

سنتبع المنهجيَّة نفسها التي وضعناها في القسم الأوَّل، فنبدأ من أعلى المستويات، من مسح البيئة إلى المواضيع الاستراتيجيَّة المنبثقة من الغاية وصولاً إلى بعض الأهداف الاستراتيجيَّة.

مسح البيئة

هل أجرى سعادة مسحًا للبيئة المجتمعيَّة قبل أن يؤسِّس الحزب؟ الجواب، نعم. كما يقول هو نفسه في رسالته إلى المحامي حميد فرنجيَّة عند انكشاف الحزب:

> ولمَّا كانت دروسي الاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة قد أوصلتني إلى تعيين أمَّتي تعييناً مضبوطاً بالعلوم المتقدِّمة وغيرها، وهو حجر الزاوية للبناء القومي، وإلى تعيين مصلحة أمَّتي الاجتماعيَّة والسياسيَّة من حيث حالاتها الداخليَّة ومشاكلها الداخليَّة والخارجيَّة، وجدت أن لا بد لي من إيجاد وسائل تؤمِّن حماية النهضة القوميَّة الاجتماعيَّة الجديدة في سيرها.[61]

هذه الدروس كانت قد وضعت سعادة أمام عدد من الأسئلة الفلسفيَّة العليا المتعلِّقة بخطَّة الأمَّة والاتِّجاه الذي ترسمه لنفسها، كما ذكر في رسالته إلى الجالية السوريَّة في البرازيل بمناسبة وفاة والده سنة 1934، ويقول فيها:

61) سعاده، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الثالثة.

إذا كان هذا العصر عصر تنازع الأمم، فهو إذًا، عصر أعمال لا عصر أقوال. وإذا كان لا بدّ من القول، فيجب أن يكون مدعومًا بالقوَّة العمليَّة ليكون من ورائه نفع أو نتيجة هيوليَّة محسوسة. ونحن أمَّة واقفة الآن بين الموت والحياة ومصيرها متعلِّق بالخطَّة التي نرسمها لأنفسنا والاتِّجاه الذي نعيِّنه.

ويتراءى لي أنَّ أمَّتنا كانت، منذ عصور قديمة جدًّا، أمام عدَّة مسائل تتطلَّب أجوبة صريحة هي:

هل نحن أمَّة حيَّة؟

هل نحن مجتمع له هدف في الحياة؟

هل نحن قوم لهم مُثُل عليا؟

هل نحن أمَّة لها إرادة واحدة؟

هل نحن جماعة تعرف أهميَّة الأعمال النظاميَّة؟[62]

ما هي نتائج هذا المسح؟ ما هي المحفِّزات والمعوِّقات التي يمكن أن يكون قد استشفَّها سعادة؟ فيما يلي عدد من النتائج كما نستخلصها من بعض المراجع بما فيها الخطاب المنهاجي الأوَّل، حزيران 1935، والمحاضرة العاشرة وبعض الرسائل.

	داخليًا	خارجيًا
المحفِّزات	**نقاط القوَّة:** ◆ أمَّة غير عاديَّة – أمَّة ممتازة بمواهبها، متفوِّقة بمقدرتها، غنيَّة بخصائصها – أمَّة لا ترضى القبر مكانًا لها تحت الشمس. ◆ إمكانيَّة تأسيس حركة تُخرِج البلاد من محنتها.	**الفرص:** ◆ تضارب المصالح الدوليَّة.[63]

62) سعادة، أنطون، رسالة إلى الجالية السورية في البرازيل، المحاضرات العشر، المحاضرة الثالثة.

63) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الرابع، بيروت 1980، راجع ص. 19، (نداء الزعيم إلى السوريين عبر الحدود)، وص. 32. (خطاب أول آذار)

	داخليًا	خارجيًا
المعوِّقات	**نقاط الضعف:** ◆ فقدان السيادة القوميَّة. ◆ عدم وضوح فكرة الأمَّة. ◆ خلوُّ المجتمع من تقاليد قوميَّة واستكانته إلى الأوهام والعقائد المهترئة. ◆ فقدان الثقة بالنفس والخضوع للإرادات الأجنبيَّة.	**الأخطار:** ◆ التزاحم الاستعماري على سورية. ◆ الخطر الصهيوني.

خلاصة مسح البيئة

المحفِّزات: تأسيس حركة تقود أمَّة ممتازة بمواهبها إلى تحقيق نهضتها واستقلالها والاستفادة من تضارب المصالح الدوليَّة لتثبيت سيادتها.

المعوِّقات: أمَّة واقفة بين الحياة والموت.

المواضيع الاستراتيجيَّة

مِن مسح البيئة هذا، ومن قراءة المحاضرة العاشرة المخصَّصة لشرح غاية الحزب وخطَّته، نستنتج أربعة مواضيع استراتيجيَّة حدَّدها سعادة، ويمكن استخراجها مباشرة من نظرة الحزب وغايته ووضع النتائج الاستراتيجيَّة لكلٍّ منها مستخدمين عبارات سعادة نفسه من المحاضرة عينها حيث أمكن.

يتضمَّن الجدول أدناه المواضيع الاستراتيجيَّة والنتائج الاستراتيجيَّة لكلٍّ منها وكيفيَّة انبثاقها عن الأساس الاستراتيجي للحزب:

الأساس الاستراتيجي		
البند	**النص**	**النتيجة الاستراتيجيّة**
النظرة	حياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى.	مساهمة سوريّة فعّالة في تحسين الحياة الإنسانيّة وعالمها، ورفع مستوى قيمها.
الغاية	بعث نهضة سوريّة قوميّة اجتماعيّة تكفل تحقيق مبادئه وتعيد إلى الأمّة السوريّة حيويّتها وقوّتها، وتنظيم حركة تؤدّي إلى استقلال الأمّة السوريّة استقلالاً تامًّا وتثبيت سيادتها وإقامة نظام جديد يؤمّن مصالحها ويرفع مستوى حياتها والسعي لإنشاء جبهة عربيّة.	سورية موحّدة ومستقلّة وحرّة، تعمُّها العدالة الاجتماعيّة وتلعب دورًا رياديًّا في جبهة عربيّة قويّة ومتماسكة.
القيم	الحق والخير والجمال والحريّة والواجب والنظام والقوّة.	تثبيت بنيان النهضة ونشر قيمها سوريًّا وعربيًّا وإنسانيًّا.
موضع التميز الإستراتيجي	الصدق.	مجتمع قائم على الصدق.

المواضيع والنتائج الاستراتيجيّة	
الموضوع الاستراتيجي	**النتيجة الاستراتيجيّة**
1. بعث نهضة.	تحقيق مبادئ الحزب وإعادة الحيويّة والقوّة إلى الأمّة السوريّة.

2. تنظيم حركة.	استقلال الأمّة السوريّة استقلالاً تامًّا وتثبيت سيادتها.
3. إقامة نظام جديد.	تأمين مصالح الأمّة ورفع مستوى حياتها.[64]
4. السعي لإنشاء جبهة عربيّة.	سدّ عربي ضد المطامع الأجنبيّة الاستعماريّة وقوّة يكون لها وزن كبير في إقرار المسائل السياسيّة والدوليّة الكبرى.

الأهداف الاستراتيجيّة

فيما يلي بعض الأهداف الاستراتيجيّة المنبثقة عن المواضيع أعلاه:

الأهداف والنتائج الاستراتيجيّة	
الموضوع الاستراتيجي I	**النتيجة الاستراتيجيّة**
1. بعث نهضة.	تحقيق مبادئ الحزب وإعادة الحيويّة والقوّة إلى سورية.
الأهداف الاستراتيجيّة	**النتائج الاستراتيجيّة**
1.1 تأسيس فكرة الأمّة.	تعريف علمي يضمن شخصيّة الأمّة وحقوقها ومصالحها.
1.2 ترسيخ فكرة الأمّة.	اتّفاق السوريّين على هويّتهم وعلى كون سورية أمّة تامة.
1.3 تأمين حياة الأمّة.	الأمّة مجهّزة بوسائل تقدُّم الحياة نحو المثل العليا.

64) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة العاشرة.

الموضوع الاستراتيجي II	النتيجة الاستراتيجيّة
2. تنظيم حركة.	استقلال الأمّة السوريّة استقلالاً تامًّا وتثبيت سيادتها.
الأهداف الاستراتيجيّة	**النتائج الاستراتيجيّة**
2.1. تحريك عناصر القوّة القوميّة.	شعور بأهميّة الحياة المجتمعيّة وتنكُّب المسؤوليّة تجاهها.
2.2. التغلُّب على الصعوبات الداخليّة.	الأمّة في وحدة حياة ووحدة مقاصد ووحدة مصير.
2.3. نشر العقليّة الأخلاقيّة الجديدة.	مجتمع قائم على الصدق في القول والعمل.
2.4. التحرُّر من الإرادات الأجنبيّة.	مجتمع متحرِّر من السيادة الأجنبيّة وأمّة سيِّدة على نفسها.
الموضوع الاستراتيجي III	**النتيجة الاستراتيجيّة**
3. إقامة نظام جديد.	حياة أرقى وأفضل وأجمل.
الأهداف الاستراتيجيّة	**النتائج الاستراتيجيّة**
3.1. تنمية الوحدة المجتمعيّة.	أمّة واحدة – مجتمع واحد.
3.2. تعميم العدالة الاجتماعيّة.	المساواة في الحقوق والواجبات تحت قانون عادل.
3.3. نشر الرخاء الاقتصادي.	اقتصاد قائم على الانتاج والعدالة في توزيع الثروة.
3.4. حماية الأمّة والمجتمع.	جيش قوي يكون ذا قيمة فعليّة في حماية الأمّة والوطن.
3.5. تطوير مؤسّسات النظام الجديد.	نظام الأشكال الذي يحقِّق الفكر والنهج.

الموضوع الاستراتيجي IV	النتيجة الاستراتيجيّة
4. الجبهة العربيّة.	سدّ عربي ضدّ الاستعمار وقوّة عربيّة فاعلة دوليًّا.
الأهداف الاستراتيجيّة	**النتائج الاستراتيجيّة**
4.1. إحياء قوّة سوريّة وحيويّتها.	سورية شريك وقائد في تطوير العالم العربي.
4.2. تشجيع العمل الثقافي المشترك.	القبول بالشخصيّات العربيّة المتميّزة والتعاون بينها.
4.3. تطوير العمل العربي المشترك.	تحديد المصالح الداخليّة وتنظيم المصالح المشتركة.

المعايير

تكلّمنا عن المعايير في أكثر من مكان. ماذا نقصد بالمعايير حين نتكلّم عن غاية الحزب؟ **إنّها ما نقيس به مدى التقدّم أو التراجع من تحقيق الغاية عبر النجاح في تحقيق الأهداف الاستراتيجيّة المعيّنة.**

سنعود إلى مرجعين من سعادة نستخرج منهما بعض معايير الأداء التي وضعها على المستويين القومي والمحلّي.

المعايير القوميّة

في رسالته الأولى إلى غسّان تويني بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وتأمين الاتّصال به يطلب سعادة من تويني تقريرًا مفصّلاً يتضمّن المعلومات التالية:[65]

1. الفكرة السوريّة القوميّة الاجتماعيّة ومبلغ قبولها وتقدُّمها في أوساط الشعب في جميع مناطق سورية الطبيعيّة بعد سنة 1938.
2. الحالة السياسيّة العامّة في البلاد منذ الاحتلال البريطاني لشمال سورية.
3. "الحزب القومي" والأسباب الموجبة لظهوره في لبنان في هذا الشكل والضمانات لاستمرار عمله. وكيف قابلت جميع فروع الحزب هذا الحدث؟[66]

65) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثالث عشر، ص. 263 (إلى غسّان تويني) .
66) راجع القسم الرابع، الفصل الثاني.

4. حالة الحزب الداخليَّة المعنويَّة والإداريَّة.
5. موقف البريطانيِّين من الحزب.
6. موقف الروس من الحزب.
7. موقف الأحزاب الأهليَّة من الحزب.
8. موقف الفرنسيِّين من الحزب.
9. ما هي الاتِّجاهات السياسيَّة الإنترنسيونيَّة التي يتَّبعها الحزب في الوقت الحاضر؟

هذه المعلومات – المعايير - يطلبها أيُّ قائد من مرؤوسيه في أيَّة حركة سياسيَّة، ويمكن إعطاء أمثلة عليها ووصفها كما يلي:

1. مقاييس النموِّ المادِّي والمعنوي: (رقم 1 و4) تحت رقم 1 يمكن أن يكون هناك عدد من المقاييس الفرعيَّة التي تحدِّد المقصود "بقبول الفكرة" مثل:
   أ. مؤشِّرات الوحدة الاجتماعيَّة، أو
   ب. مؤشِّر الوعي القومي (عدد الأنشطة الداعية إلى الوحدة القوميَّة خلال السنة)، وهلمَّ جرًا.
2. مقاييس العلاقات الداخليَّة: (رقم 7)
   أ. عدد الأنشطة الوديَّة المشتركة
   ب. عدد الأحداث غير الوديَّة
3. مقاييس العلاقات الخارجيَّة (رقم 5 و6 و8 و9)
   أ. العلاقة بالدول حسب تصنيفها ومتابعة نموِّها أو تراجعها.

المعايير المحلِّيَّة

في رسالة من سعادة إلى "هيئة اللجنة المفوضة المركزيَّة" في البرازيل سنة 1940، يسأل الأسئلة التالية:

1. ما هي الأعمال التي أتمَّتها اللجنة المركزيَّة المفوَّضة من الوجهتين الإداريَّة والإذاعيَّة؟
2. هل جرت مراسلات مع أشخاص في داخليَّة البلاد وفي أماكن بعيدة؟

3. هل حدثت حركة انضمام في مدن أخرى أم لا؟
4. ما هي الوسائل المستخدمة من اللجنة لإيجاد مراكز في الداخليَّة؟
5. ما هي النقاط الأساسيَّة التي يتضمَّنها برنامج عمل اللجنة؟
6. ماذا تحقَّق منها وماذا لم يتحقَّق؟

ثمَّ يتوسَّع في الشرح قائلاً:

هذه الأسئلة تعني أنَّه واجب على اللجنة المركزيَّة المفوَّضة أن تضع برنامجًا عمليًّا للأعمال الإداريَّة والإذاعيَّة وتصنِّفه في فصول وتعيِّن فيه **نتائج يجب الوصول إليها**. وهذه النتائج يجب أن تكون ذات **صفة محسوسة** فلا يقال مثلاً: "تسعى اللجنة لزيادة عدد الأعضاء، بل يقال تستخدم اللجنة الوسائل التالية"، تقول ما هي "للوصول إلى أوساط كذا. وبهذه الوسائل والأشخاص تقدر أن تصل في مدَّة كذا إلى إدخال العناصر التالية الضروريَّة لنموِّ الحركة."

عدا عن السؤالات المتقدِّمة أريد أن أعرف حقيقة سير الشؤون النظاميَّة الداخليَّة – الاجتماعات ومواضيعها ونتائجها الماليَّة وتنظيمها ونتائجها وعدد الأعضاء المتمِّمين واجباتهم من هذه الجهة وغير المتمِّمينها. وماذا تفعل اللجنة بمن لا يتمِّم واجباته!

ويجب على اللجنة أن تعلم أنَّه لا يفيدني شيئًا معرفة أنَّ العقيدة وحدها تنتشر. فالعقيدة تنتشر بواسطة توزيع المبادئ ومنشورات الحزب والجريدة. أمَّا وجود اللجنة المفوَّضة فليس فقط لاكتساب أشخاص يصرِّحون لنا أنَّهم يعتنقون مبادءنا بل لتنظيمهم وإفهامهم نظام الحزب وتعيين واجباتهم المعنويَّة والمادِّيَّة وتكليفهم لمهمات صريحة من قبل اللجنة...[67]

من هذه الأسئلة، التي يجب على كلِّ منفِّذ عام أن تكون لديه إجابات تفصيليَّة عنها تبني مؤشِّرات الأداء من المديريَّات إلى المنفَّذيَّات فالعمد كلٌّ حسب مصلحتها المعنيَّة بها، وصولاً إلى مجلس العمد ورئاسة الحزب، فالمجلس الأعلى والأجهزة الرقابيَّة.[68]

بهذا النوع من المقاييس ومؤشِّرات الأداء، تتمكَّن الإدارة من مراقبة الأداء وضبطه، وتعيين مراكز الصرف في الميزانيَّات ومتى يجب أن تزداد أو تنقص، وما هو نوع التدريب اللازم لتنمية الموارد البشريَّة اللازمة لتنفيذ خطَّة الحزب.

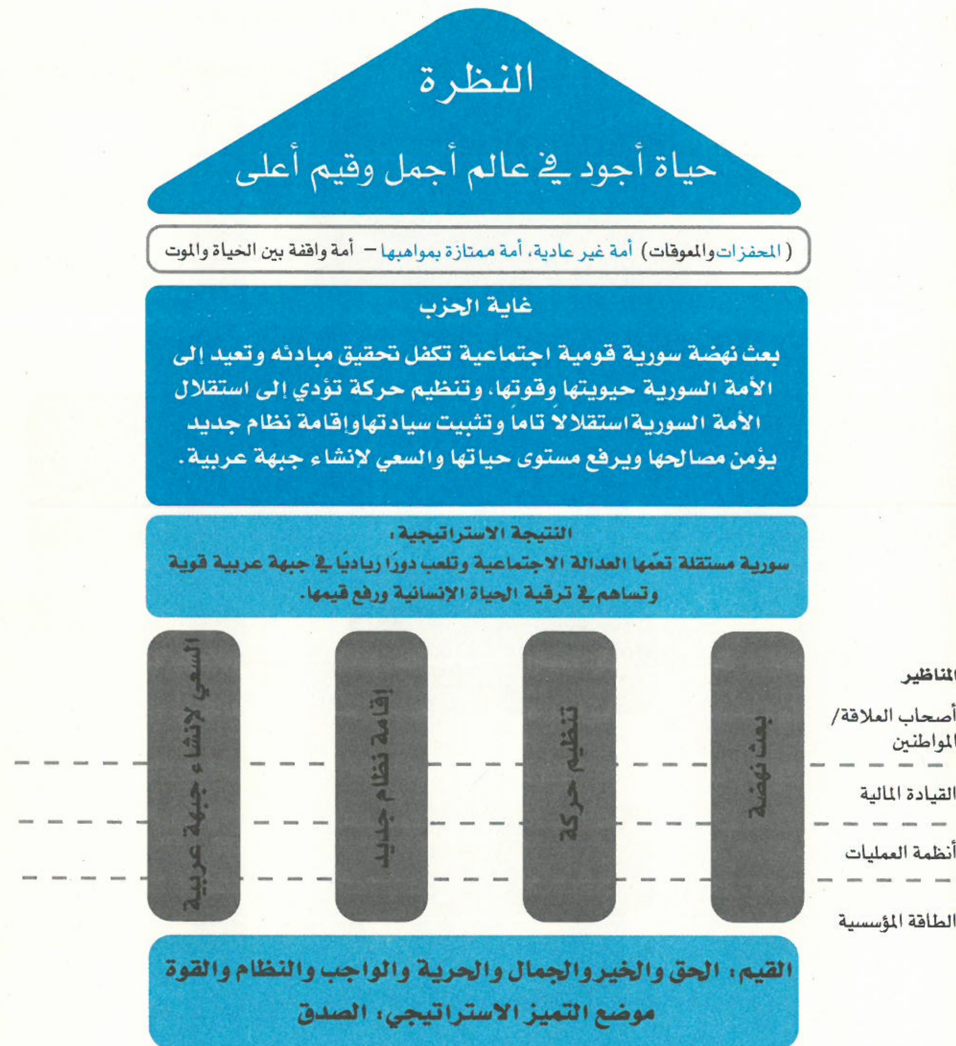
فيما يلي بعض المؤشِّرات والمقاييس الأخرى التي يمكن اعتمادها:

67) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السابع، ص 164. (رسالة إلى هيئة اللجنة المفوضة).
68) سوف نأتي على تفصيل بنية الحزب الإدارية ومؤسساته في الفصول اللاحقة.

1. مدى رضا العاملين في المؤسَّسة عن أدائها.
2. مدى رضا الشعب عن أدائها.
3. تقدُّم الوضع المالي (مستقلاً عن هبات خارجيَّة مقرونة بمواقف معيَّنة.)
4. التقدُّم في الأوضاع الاجتماعيَّة والثقافيَّة والسياسيَّة وفق معايير يصار إلى تحديدها. (ارتفاع الولاء الوطني وانخفاض الولاء الطائفي، التوازن في توزُّع الثروة في المجتمع، المساهمة في الإبداع الثقافي العالمي، إلخ.)

البناء الاستراتيجي للحزب

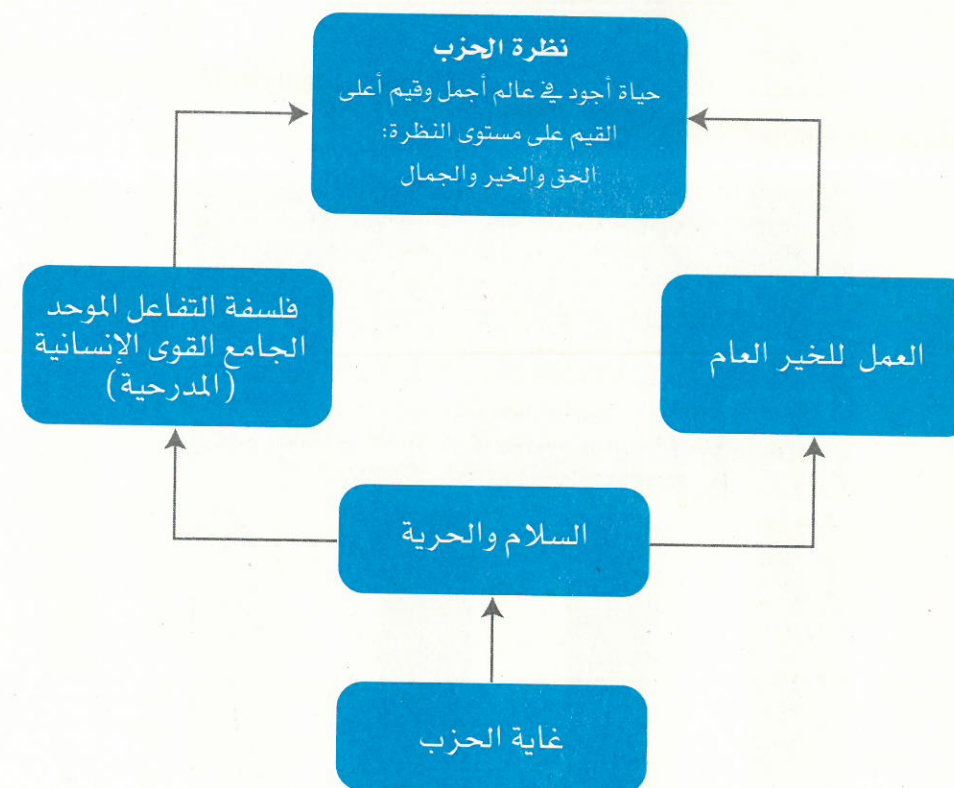
نستطيع الآن رسم البناء الاستراتيجي للحزب السوري القومي كما يلي:



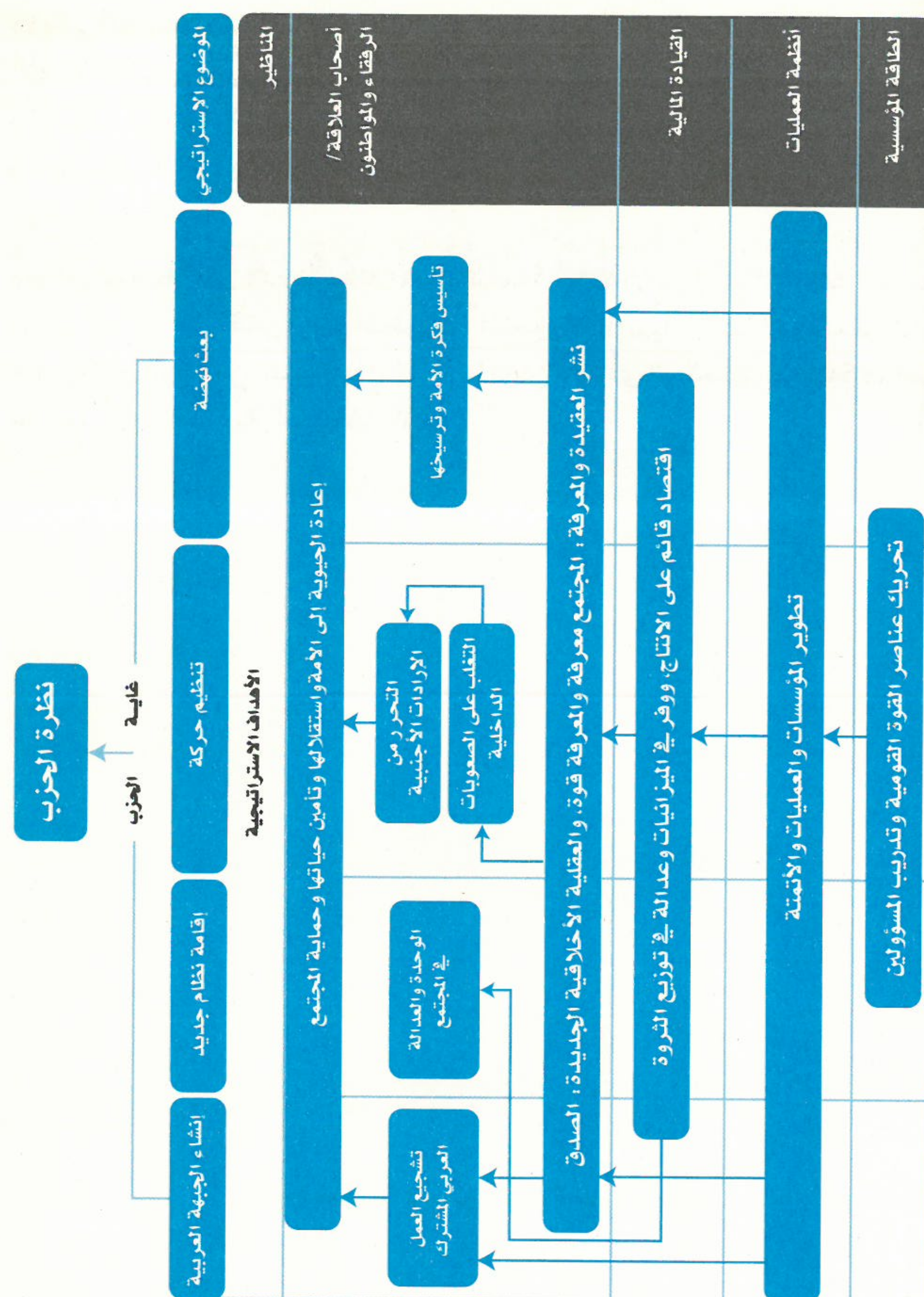
11: الأساس الاستراتيجي والمواضيع الاستراتيجيَّة المنبثقة عنه عند تأسيس الحزب

الخرائط الاستراتيجيَّة

سنرسم الخارطة الاستراتيجيَّة للحزب بناء على الأسس التي تمَّ شرحها في القسم الأوَّل، مبتدئين برسم خارطة خاصَّة بالنظرة أوَّلاً وعلاقتها بغاية الحزب، ومن ثمَّ خارطة للغاية، مع الإشارة إلى أنَّ نظرة الحزب لا يمكن أن تتحقَّق، ولا يمكن لسورية المساهمة في تقدُّم الإنسانيَّة ما لم تكن موحَّدة وتنعم بالحريَّة والسلام، دون الانتقاص من مساهمة أفرادٍ سوريِّين في تقدُّم الإنسانيَّة كلٌّ في مجال اختصاصه.



12: الخارطة الاستراتيجيَّة لنظرة الحزب



13: الخارطة الاستراتيجيَّة عند تأسيس الحزب.

هذه هي المواضيع الاستراتيجيَّة التي يمكن لنا استخراجها من نظرة الحزب وغايته وبعض الأهداف الاستراتيجيَّة التي جاء سعادة على ذكرها في كتاباته. وإذا كانت هذه المواضيع والأهداف تبدو عامَّة في توجُّهها، فذلك لأنَّها في أعلى هرم التخطيط الاستراتيجي، وعنها تنبثق أهداف جزئيَّة ومشاريع كلُّها من ضمن ما مرَّ ذكره معنا تحت تسمية "إدارة تنفيذ الاستراتيجيَّة."

هل كان لسعادة إطار لإدارة خطَّته الاستراتيجيَّة؟ أين كان من وضع المبادرات العمليَّة لتنفيذ أهدافه؟ هل اكتفى بوضع النظريَّات "المتحجِّرة أكاديميًّا"[69] كما اتَّهمه بعض كبار معاونيه؟ أم كان له من المبادرات والمشاريع ما يمكن أن يؤدِّي إلى تحقيق أهدافه؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الصفحات التالية.

69) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الرسائل، الجزء الثالث، بيروت، 1980، ص. 602-605.

القسم الثالث: إطار إدارة الاستراتيجيَّة

"ولمَّا كنت في المسائل العملية عمليًا جدًا..."

سعادة

الفصل الأول: الكبرياء الفكريَّة

لمحة تاريخيّة

قدمنا في القسم السابق لمحة عن ظروف نشأة الحزب السوري القومي الاجتماعي التاريخيَّة وشرحنا الأسس الاستراتيجيَّة التي وضعها مؤسسه، وبينَّا المواضيع الاستراتيجيَّة التي يمكن استخلاصها من نظرة الحزب وغايته، وبعض الأهداف الاستراتيجيَّة كذلك. ماذا كانت خطَّة سعادة لتنفيذ تلك الاستراتيجيَّة وإدارتها؟ وكيف رأى السبيل لتحقيق هذه الأهداف؟ ما هي الخطوات العمليَّة التي رأى ضرورة الأخذ بها ووفق أيِّ تسلسل؟

هذه الأسئلة كانت موضع شرح مستفاض في عدد من الرسائل الموجَّهة من سعادة سنة 1946، إلى الطالب آنذاك في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، الرفيق غسَّان تويني، المكلَّف من مركز الحزب في بيروت بالاتِّصال بسعادة ووضعه في أجواء الوطن بعد انتهاء الحرب العالميَّة الثانية، وإلى الأمينين نعمة ثابت، رئيس المجلس الأعلى في ذلك الوقت، وأسد الأشقر العضو فيه.

لهذه الرسائل أهميَّة خاصَّة. فهي بدأت كجواب من سعادة عن التقرير الشامل الذي زوَّده به المكلَّف غسَّان تويني. ولكنَّها تشعَّبت إلى مسائل فلسفيَّة وعقيديَّة وتنظيميَّة وسياسيَّة بحيث أصبحت تشكِّل واحدًا من أهمِّ المراجع في فهم عقيدة الحزب وغايته وفلسفته ومنهجيَّة سعادة الفكريَّة والعمليَّة.

لا توجد لدينا نسخة من ذلك التقرير، ولكن الواضح من رسائل سعادة إلى تويني ومن النصوص التي اقتبسها من التقرير في معرض ردِّه على بعض ما ورد فيه، أنَّه كان تقريرًا مفصَّلاً عن وضع البلاد وعن وضع الحزب الداخلي. كان التقرير نافذة يطلُّ منها سعادة على أخبار حزبه بعد انقطاع شبه تام عن قيادته في الوطن وعن أخباره الداخليَّة مدَّته تسعة أعوام، خاض الحزب خلالها تجارب عديدة وضعت بعض مفاهيمه التأسيسيَّة وخطَّته على المحك.

من تقرير تويني، ومن اطِّلاعه على "البيان التأسيسي" لعمدة الثقافة،[70] اتَّضح لسعادة أنَّ الحزب الذي أسَّسه يواجه معضلات جوهريَّة تبعده عن القصد من إنشائه وتهدِّد بنيانه. كما تبيَّن له أنَّ عددًا من الأعضاء والمسؤولين الجدد في الحزب، بينهم تويني، مع المسؤوليَّات العالية التي تنكَّبوها، يجهلون تاريخ نشأة الحزب وفلسفة عقيدته وخطوطه الأساسيَّة، بل ويجهلون بعض المفاهيم الأساس التي قام عليها، وأهميَّتها في وضع السياسات الحزبيَّة وتنفيذها.

المعضلة الأولى كانت فكريَّة: جهل – أو تجاهل – بأهميَّة عقيدة الحزب في ثلاثة مواضع: "تعيين شخصيَّة الأمَّة الاجتماعيَّة والحقوقيَّة، وحقوقها، ومصالحها." فعلى الرغم من التركيز الكبير الذي وضعه سعادة على أنَّ القضيَّة القوميَّة هي قضيَّة "حياة الأمَّة ومصيرها ومصالحها وحقوقها،"[71] قبل هجرته القسريَّة سنة 1938، وجد أنَّ هذه الناحية أُهملت كليًّا، ودونما أدنى اعتبار للنتائج الناجمة عن هذا الإهمال.

المعضلة الثانية، سياسيَّة: وهي معضلة نبعت من المعضلة الأولى وتمثَّلت في نهج سياسي خارج عن عقيدة الحزب. آنذاك، كان الحزب قد مُنِحَ ترخيصًا للعمل في لبنان تحت اسم "الحزب القومي"، وكانت قيادته تعمل في إطار ما عُرف باسم "الواقع اللبناني". هذا النهج السياسي، عبَّر عنه أسد الأشقر بالقول التالي:

> لو كان الزعيم أسَّس في لبنان "حزب الاصلاح اللبناني" وفي سورية "حزب الإصلاح السوري" وسيَّر الحزبين في انسجام واتِّجاه متوافقين، ماذا كان يحدث؟ أجيب نفسي، كان الزعيم اليوم زعيم لبنان بلا منازع وكان الزعيم اليوم موجِّه السياسة العربيَّة العامَّة في جامعة الدول العربيَّة. إنَّ الزعيم كان على صواب علميًّا وعقائديًّا وفلسفيًّا ولكنَّه لم يكن ناجحًا سياسيًّا وإذاعيًّا.[72]

رفض سعادة هذا النهج واعتبره قاصرًا عن رؤيته في رسالة منه إلى الأشقر يقول فيها:

> لو كان الزعيم أسَّس في لبنان "حزب الاصلاح اللبناني" وفي سورية "حزب الاصلاح السوري"، لكان الزعيم غير ما هو، وكان واحدًا من كثيرين غيره يفكِّرون مثل هذا التفكير المختصّ بالسياسات الصغرى، ويحاولون كلَّ يوم هذه المحاولات ويبعدون بعدًا سحيقًا عن إنشاء نهضة أمَّة بأسرها مهما بلغوا من مراكز الحكم ومهما أطالوا الجلوس والكلام في جامعة الدول العربيَّة.[73]

70) بيان نشره عميد الثقافة في الحزب آنذاك فايز صايغ، وربط فيه مسؤوليَّة عمدة الثقافة "بالقيم المطلقة".
71) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الرابع، بيروت 1980، ص. 36، وص. 37 (خطاب أول آذار، 1938).
72) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الرسائل، الجزء الثالث، منشورات عمدة الثقافة، بيروت، 1980، ص. 627.
73) المصدر نفسه، ص. 726.

المعضلة الثالثة، نظاميَّة: كانت في عدم فهم بعض المسؤولين آنذاك أنَّ المؤسَّسة المنشأة ضمن نظام معيَّن مسؤولة تجاه هذا النظام وليس تجاه القيم في المطلق. وعلى الرغم من بداهة هذا المفهوم لنا اليوم، اضطر سعادة إلى كتابة صفحات وصفحات في شرحه والتحذير من مخاطر الأخذ به على "وحدة الإدارة" الحزبيَّة وصيانتها،[74] وهذا ما سنتناوله بالتفصيل لاحقًا، حين نتكلَّم عن الإدارة الحزبيَّة.

المعضلة الرابعة، شخصيَّة: تعود إلى ما سمَّاه غسَّان تويني، وعمره آنذاك عشرون سنة، (مواليد 1926) "كبرياءه الفكريَّة" و"التعلُّق بالآراء تعلُّقًا شديدًا يدفع إلى الدفاع عنها بحماس."[75] هذه الكبرياء الفكريَّة كانت على ما يبدو داء متفشِّيًا في قيادة الحزب، أدَّى إلى صراع بين ما سمَّاه تويني "التحجُّر الأكاديمي،"[76] وبين تيَّار هو منه رأى:

> اتِّباع نهج جديد، هو تطبيق عملي لمبادئه، فأحلَّ العمل السياسي المجرَّد مكان الجدل العقائدي، وبالتالي تحلَّى بالمرونة وتمكَّن بذلك من الاشتراك المباشر في الحياة السياسيَّة العامَّة، والعمل من داخلها على إصلاحها. كما أنَّ هذا التحجُّر الأكاديمي وجَّه حيويَّة الأعضاء في الابحاث النظريَّة في طبيعة الأمَّة ووجودها وغير ذلك، بدلاً من النشاط الخلاَّق الذي يدخل العقيدة إلى النفوس والعقول كأساس ضمني للنهضة الإصلاحيَّة والثقافيَّة التي يقوم بها الحزب.[77]

المشكلة في الواقع، كما انتبه تويني نفسه إليها، كانت مشكلة تحجُّر بحت تجلَّت في تشبُّث بالرأي من التيَّارين نتيجة الكبرياء الفكريَّة كما يظهر. فلا التيَّار الأوَّل فعل ذلك انطلاقًا من فهم عريض لأهميَّة العقيدة الحقوقيَّة والمصلحيَّة، ولا التيَّار الثاني فعل ذلك انطلاقًا من واقعيَّة سياسيَّة. يقول تويني في رسالة منه إلى سعادة: "...إنَّ بعض الأعضاء قد أساء تقدير التشديد على العقيدة، فتحجَّر في تفكيره السياسي."[78]

تعليق سعادة على "الكبرياء الفكريَّة" كان لطيفًا. إنه يوجِّه تويني بالقول:

> ...وبما أنَّك اخترت التحدُّث عن "كبريائك الفكريَّة" فإنِّي كنت أفضِّل أن تستبدل بها "خصائص شخصيَّتك" وأن لا تقودك كبريائك المذكورة إلى التعلُّق "بآرائك تعلُّقًا شديدًا" يدفعك إلى "الدفاع عنها بحماس."[79]

74) المصدر نفسه، ص. 647، و704، و723، و748 و759 .
75) المصدر نفسه، ص. 758، 759.
76) المصدر نفسه، ص. 602.
77) المصدر نفسه.
78) المصدر نفسه، ص. 628.
79) المصدر نفسه، ص. 559.

هذه المعضلات لمسها سعادة قبل عودته من المغترب القسري. ولكن بعد عودته اتَّضح له وجود معضلتين إضافيَّتين خطيرتين، هما انتشار الحزب الأفقي، وقبول القوميِّين بالخروج على العقيدة باسم النظام.[80]

لا شكَّ أنَّ سعادة أدرك أنَّ الاختبارات التي مرَّ بها الحزب منذ تأسيسه وحتَّى الأوَّل من آذار 1938، تختلف عن الاختبارات التي تعرَّض لها في غيابه. إنَّه يستهلُّ خطاب الأوَّل من آذار 1938، الذي يمكن اعتباره حقًّا خطاب المراجعة الاستراتيجيَّة الأولى في الحزب، وقد مرَّ على تأسيسه خمس سنوات ونيِّف، بهذه العبارة:

> ما كاد الحزب السوري القومي يصبح كائنًا حيًّا ويستكمل شروط كيانه حتَّى تعرَّض لما تتعرَّض له كلُّ الكائنات الحيَّة من اختبارات طبيعيَّة وتجارب نفسيَّة روحيَّة. وهي اختبارات وتجارب ضروريَّة لمعرفة مواهب هذا الكائن الحي الجديد وخصائصه وللتثبُّت من بنيته هل هي قويَّة تصلح للبقاء أم ضعيفة تتفكَّك لأوَّل صدمة، ومن روحيَّته هل هي سليمة أم فاسدة لا تحقِّق شيئًا؟ ومن عقيدته هل هي صحيحة تعبِّر عن فهم صحيح لحاجة أمَّة حيَّة أم مخطئة لا تعبِّر إلَّا عن أوهام شخصيَّة؟ يحسن بنا أن نقف في هذه المرحلة الأولى لنلقي نظرة على ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ونعيِّن بالضبط مركزنا بالنسبة إلى هدفنا وإلى ما حولنا.[81]

سيكون لنا عودة إلى العبارات باللون الأسود في الفقرة السابقة حين نتكلَّم عن معايير القياس عند سعادة. أمَّا الآن فنتابع في هذا السياق التاريخي.

في خطاب سنة 1938، كان سعادة مسرورًا بالنتائج التي وصل إليها، فيقول:

> إنَّ الاختبارات والتجارب التي مرَّت بالحزب السوري القومي وهو بعد في مهده، كانت اختبارات وتجارب عظيمة فاقت بقسوتها كلَّ الاختبارات والتجارب التي مرَّت بالكائنات الحيَّة التي تشبه الحزب السوري القومي. وما خروج الحزب السوري القومي سليمًا من هذه الاختبارات العظيمة والتجارب الشديدة سوى الدليل القاطع على قوَّته التي لا تُغلب وعلى جدارته بالبقاء وعلى تفوُّقه في النزاع العنيف بينه وبين القوَّات العاملة على قتل الأمَّة في سبيل حياتها هي.[82]

أمَّا بُعيد عودته سنة 1947، وبعد إدراك حجم الخطر الذي تسرَّب إلى جسم الحزب، فإنَّه يبدي استغرابًا بصيغة الاستهجان وبكثير من المرارة:

80) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الأولى.
81) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الرابع، بيروت 1980، ص. 31. (خطاب أول آذار).
82) المصدر نفسه.

> إنَّ استغرابي بلغ حدًّا عاليًا عندما وجدت أنَّ أعضاء في الحزب السوري القومي الاجتماعي يدعون أنفسهم قوميِّين اجتماعيِّين، لأنَّهم مسجَّلون رسميًّا في الحزب، يتقوَّلون في قضايا الحزب والعقيدة والحركة كما لو كانوا جماعة غرباء عن الحركة القوميَّة الاجتماعيَّة بالكليَّة. النظاميَّة الفكريَّة والروحيَّة والمناقبيَّة التي كانت العامل الأساسي الأوَّل في نشوء النهضة القوميَّة الاجتماعيَّة وتولُّد هذه الحركة العظيمة الآخذة في تغيير نفسيَّة هذه الأمَّة ومصيرها، كادت تنعدم في دوائر الحزب العليا بعامل الإهمال، وأصبحت الحركة مهدَّدة بالميعان العَقَدي والنظامي.[83]

هذه بعض المعضلات التي رآها سعادة من الكوَّة التي أطلَّ منها على حزبه بعد طول غياب. إنَّها معضلات جوهريَّة لأنَّها تتعلَّق بأساس قيام الحزب وخطَّته وطريقة تنفيذها. لم يتردَّد سعادة في مواجهة هذه المعضلات والحسم فيها، فكانت حملة تطهير كبيرة شملت عددًا من قيادات الحزب بمن فيهم نعمة ثابت ومأمون أياس وغسَّان تويني وفايز صايغ وسواهم. وكان لإحيائه الندوة الثقافيَّة ولسلسلة المحاضرات التي ألقاها فيها، وجُمعت فيما بعد في كتاب "المحاضرات العشر" الأثر الكبير في شرح مفاهيم الحزب الأساسيَّة.

سنستعين برسائل سعادة إلى تويني وعدد كبير من المراجع لتتبُّع نهجه الفكري والعملي، والإطار الذي اعتمده لإدارة خطَّته الاستراتيجيَّة.

إطار إدارة الاستراتيجيَّة

تكلَّمنا في الفصل الأوَّل عن إطار إدارة الاستراتيجيَّة وعن أهميَّته في احتضان جميع العمليات الإداريَّة ودراسة نتائجها وأخذ العبر منها والتطوير والتجدُّد المُستدام. هل كان لسعادة إطار كهذا؟

من أين نبدأ؟

نبدأ من البداية طبعًا، من التأسيس. وحيث أنَّ سعادة عرَّف نفسه أنَّه في الأمور العمليَّة عمليٌّ جدًا، فقد كان مباشرًا في شرحه لغسَّان تويني عن الخطوات العمليَّة التي اعتمدها منذ تأسيس الحزب، والشروط الضروريَّة التي رأى أنَّه لا يمكن القفز فوقها.

> إنَّ خطط الحزب السوري القومي الاجتماعي كما هي في فكر الزعيم وتخطيطه وتوجيهه لم ترم قط إلى إنشاء كتلة عقائديَّة متحجِّرة، بل إلى منظَّمة عقائديَّة تفعل إدارة **وسياسة وحربًا**

83) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الأولى.

لتحقيق غايته. ودستور الحزب وتشكيلاته كلُّها تدلُّ على **اتِّجاهه العملي مع تأمين أساسه العقائدي**. ولكن تطبيق هذا التخطيط لم يكن ممكنًا بمجرَّد إرادة المؤسِّس المُخطِّط، بل كان متوقِّفًا على **تطوُّر الحركة نحو تهيئة أسباب التطبيق**. وهذه التهيئة كانت تقتضي عدَّة شروط:

1. اكتمال مرحلة التأسيس والنمو التي هي مرحلة ترسيخ العقيدة واكتساب العناصر الفاعلة على أساسها، وهو أمر لا يمكن تعيينه بمرسوم أو قانون من حيث مدَّته وعدَّته.
2. حصول عدد كاف من الأعضاء متنوعي المواهب لتأدية الأعمال المتنوِّعة التي يقتضيها التخطيط المذكور.
3. حصول ظروف سياسيَّة مؤاتية.[84]

هذه الفقرة مهمَّة جدًّا، وسنستخدمها في فهم اتِّجاهات سعادة العمليَّة لا سيَّما أنَّها ترسم علاقة سببيَّة بين مجموعة من الشروط الضروريَّة وفق أولويَّات واضحة، ولأنَّها تتضمن إطارًا محدَّدًا لإدارة خطَّته الاستراتيجيَّة: الإدارة والسياسة والحرب.

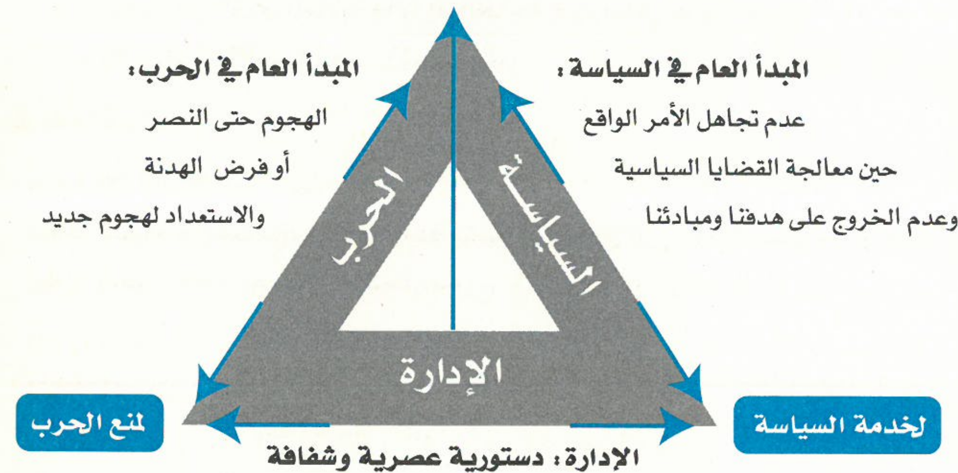
لقد وضعنا شكلاً يسهِّل علينا فهم هذا الإطار انطلاقًا من تعريف مكوِّناته وتحليل كيفيَّة استخدام سعادة له، وفهم أسسه والعلاقة بين أضلاعه والنتائج المترتِّبة عنها. وسنعرِّفه بـ"إطار النموِّ والتجدُّد المُستدام"، لإنَّه يساعد على ضبط إيقاع عمليَّة النموِّ عبر التسلسل المنطقي التالي: مبادرة، مراجعة النتائج، العبر المستفادة، التغيير المطلوب، المبادرة من جديد. أمَّا إذا أسقطنا هذا النموذج على تاريخ الحزب في المدَّة ما بين 1932 -1938 لوجدنا التسلسل كما يلي:

1. بناء قاعدة صلبة سريَّة من الشباب الواعي المثقَّف والمنضبط (إدارة).
2. طلب المواجهة مع المستعمر (حرب).
3. القبول بهدنة لترميم ما خرَّبته المواجهة، واستيعاب المدِّ الشعبي وتوسيع نطاق الحزب (سياسة وإدارة).
4. الحصول على مكاسب سياسيَّة (سياسة).
5. أخذ العبر من المواجهة والإعداد لجولة جديدة (إدارة).
6. طلب المواجهة من جديد، (حرب) وهكذا دواليك.

84) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الرسائل، الجزء الثالث، منشورات عمدة الثقافة، بيروت، 1980، ص. 628.

نموذج النموِّ والتجدُّد المُستدام

إن غاية الحزب الأولية أن يكون حركة الشعب السوري العامة



14: إطار إدارة الاستراتيجيَّة عند سعادة

ملاحظات على الإطار

- الإدارة هي الأساس؛ إنها فن استخدام جميع موارد المؤسسة وطاقاتها في خدمة غايتها بأكثر فاعلية وأقل كلفة.
- السياسة هي فن تحقيق الأغراض القومية.
- الحرب هي مواجهة مع الخصم بغية القضاء عليه جسديًا أو معنويًا، أو أسره أو إجباره على الإستسلام أو الفرار.

العنف ليس بالضرورة عنفًا جسديًا أو دمويًا؛ هناك عنف معنوي ولفظي أيضًا.

في العلاقة بين أطراف الإطار

- الإدارة والحرب في خدمة السياسة.
- الإدارة والسياسة لمنع الحرب.
- النجاح في الإدارة والسياسة والحرب يوفر إمكانيات النمو للمؤسسة؛ الإدارة يجب أن تعرف كيفية الإفادة منه.
- النمو يوفر الطاقات والموارد الجديدة التي على الإدارة استيعابها وتوظيفها.
- النمو يكتل القوى المعادية ما يزيد الحاجة إلى وسائل جديدة في الإدارة والحرب والسياسة (النمو والتجدد المستدام).

في المحاذير

- الإدارة للإدارة: موت بطيء.
- السياسة للسياسة: منافع خاصة متصارعة تؤدي إلى شرذمة المؤسسة.
- الحرب للحرب: جنون فانتحار سريع.

الفصل الثاني: في الإدارة

"في سورية، فساد الحكم هو من فساد الشعب"[85]

تنطوي كلمة إدارة في العربيَّة على عدد من المفاهيم التي لها أكثر من مفردة في اللغة الإنجليزيَّة ممَّا يسبِّب بعض الالتباس. نتكلَّم عن الإدراة بوصفها Administration أي الجهاز التنفيذي المنوط به إدارة مؤسَّسة أو حكومة معيَّنة كأن نقول مثلاً: إدارة الرئيس "أوباما". كما أنَّ كلمة "الإدارة" بالمصطلح الإنجليزي نفسه في إطار العمل، تعني إدارة الأعمال Business Administration. ثمَّ مصطلح إدارة بمعنى Management، أي توجيه الأشخاص لأداء أعمال معيَّنة، وفي الوقت نفسه، تعني فريق العمل الإداري. سنستعمل التحديد التالي لمفهوم الإدارة الذي نقصده في هذا الكتاب: **الإدارة هي وضع المؤسَّسة جميع مواردها وطاقاتها لخدمة غايتها بأكثر فاعليَّة وأقلّ كلفة.**

هذا التعريف يقتضي توفُّر العناصر التالية:

- نظرة المؤسَّسة وغايتها، وهما علَّة وجود الإدارة Raison d'être، ومنبع روحيَّتها ومناقبيَّتها والرابط الأعلى الذي يشدُّ جميع مكوِّناتها ويوحِّد جهودهم.
- نظرة أخلاقيَّة مناقبيَّة عالية (راجع موضع التميُّز الاستراتيجي).
- الموارد البشريَّة الصالحة لخدمة أهداف المؤسَّسة والمدرَّبة على تأدية مهامها.
- الأصول غير الملموسة مثل الملكيَّة الفكريَّة والقدرات والخبرات الفنيَّة والمواهب النفسيَّة المتراكمة في المؤسَّسة.
- الأصول الملموسة، جميع الأصول الماديَّة من معدَّات وتجهيزات وبُنى تحتيَّة.
- النظام، هو ما يعطي المؤسَّسة (الحزب هنا) وحدة عمليَّة قويَّة وسريعة.[86]

85) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثامن، ص. 41. (سلطة الزعيم).
86) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثاني، ص. 242. (مقالة النظام).

- التنظيم وهو ما يعطي – بالنسبة إلى الحزب – التوافق والتعاون، ويوثِّق المصالح القوميَّة الاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة،[87] ويتضمَّن الهيكل التنظيمي للإدارة.
- أنظمة العمليَّات أو التشغيل، وهي المسارات والخطوات التنفيذيَّة التي بناء عليها ينفذ العاملون مهامهم، وفيها ينعكس فعل النظام وفاعليَّة التنظيم.

بعد هذا التمهيد يصبح بإمكاننا دراسة خصائص الإدارة عند سعادة.

أوَّلاً: إدارة دستوريَّة

مقدِّمة

قيَّد سعادة نفسه وأعضاء حزبه والمسؤولين فيه بدستور واضح يتضمَّن، إضافة إلى قضيَّة الحزب، أي غايته ومبادئه الأساسيَّة والإصلاحيَّة، المؤسَّسات الحزبيَّة: التشريعيَّة–المجلس الأعلى ومجالس المنفَّذيَّات؛[88] والتنفيذيَّة–رئيس الحزب ومجلس العمد والإدارات المحليَّة في المناطق، (المنفَّذيَّات)، والنواحي والأحياء والقرى، (المديريَّات). كما حدَّد صلاحيَّات المسؤولين وكيفيَّة تعيينهم وإقالتهم أو قبول استقالاتهم. وضِع الدستور في 21 تشرين ثانٍ/نوفمبر 1934 والحزب سري، وصُنِّفت مواده في 20 كانون ثانٍ/يناير 1937.[89]

شكل الإدارة وفلسفتها

أسَّس سعادة الحزب على أساس الثقة المقيَّدة بالضوابط الأخلاقيَّة، والإدارة المقيَّدة بالضوابط والتوازنات الدستوريَّة. ماذا نقصد بهذا الكلام؟ في رسالته إلى حميد فرنجيَّة عن أسباب تأسيسه الحزب، يكتب سعادة عن نظام الحزب فيقول:

> وجعلت نظامه فرديًا في الدرجة الأولى مركزيًّا متسلسلاً منعًا للفوضى في داخله واتِّقاء نشوء المنافسات والخصومات والتحزُّبات والمماحكات وغير ذلك من الأمراض السياسيَّة والاجتماعيَّة.[90]

لا شكَّ أنَّ المقصود بكلمة "فرديّ" هنا هو ما ورد في مقدِّمة الدستور عن العلاقة بين الزعيم المؤسِّس والشارع (أي المشترع) صاحب الدعوة، وبين الأعضاء المقبلين على الدعوة:

87) المصدر نفسه.
88) دستور سعادة، المادَّتين: العاشرة والثانية عشر، والمادَّة التاسعة من المرسوم الدستوري عدد 4.
89) قبرصي، عبد الله، عبد الله قبرصي يتذكَّر الجزء الأوَّل، فكر للأبحاث والنشر، بيروت، 1982 ص. 110.
90) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثاني، ص. 182. (الرسالة إلى حميد فرنجية).

> "تأسَّس الحزب السوري القومي الاجتماعي بموجب تعاقد بين الشارع صاحب الدعوة إلى القوميَّة السوريَّة الاجتماعيَّة وبين المُقبلين على الدعوة على أن يكون واضع أسس النهضة السوريَّة القوميَّة الاجتماعيَّة زعيمًا للحزب مدى حياته وعلى أن يكون معتنقو دعوته ومبادئه أعضاء في الحزب يدافعون عن قضيَّته ويؤيِّدون الزعيم تأييدًا مطلقًا في كلِّ تشريعاته وإدارته الدستوريَّة.[91]

وكذلك الأمر بالنسبة إلى المادَّة الرابعة منه التي تنصُّ على كون الزعيم هو مصدر السلطتين التشريعيَّة والتنفيذيَّة.

قلنا إنَّ الحزب قام على الثقة المقيَّدة بضوابط أخلاقيَّة أوَّلاً. مع أنَّ سعادة لم يكن بحاجة إلى ذلك، إلاَّ أنَّه قيَّد نفسه بقسم صارم يأتي مباشرة بعد الفقرة التي اقتبسناها أعلاه من مقدِّمة الدستور:

> أنا أنطون سعادة، أقسم بحقيقتي وشرفي ومعتقدي على أنِّي أقف نفسي على أمَّتي السوريَّة ووطني سورية، عاملاً لحياتهما ورقيِّهما، وعلى أن أكون أميناً للمبادئ التي وضعتها وأصبحت تكوِّن قضيَّة الحزب السوري القومي الاجتماعي، ولغاية الحزب وأهدافه، وأن أتولَّى زعامة الحزب السوري القومي الاجتماعي واستعمل سلطة الزعامة وقوَّتها وصلاحيَّاتها في سبيل فلاح الحزب وتحقيق قضيَّته وأن لا استعمل سلطة الزعامة إلاَّ من أجل القضيَّة القوميَّة الاجتماعيَّة ومصلحة الأمَّة. على كلِّ هذا أقسم أنا أنطون سعادة.[92]

السلطة بعد الزعيم

ما العمل إذا حدث ما يمنع المؤسِّس من ممارسة صلاحيَّاته؟ يقودنا هذا السؤال إلى فهم الضوابط والتوازنات التي توخَّاها سعادة حرصًا على استمراريَّة الحزب. تجيب المواد العاشرة والحادية عشر والثانية عشر من دستور سعادة عن السؤال. المادَّة العاشرة تعيِّن صلاحيَّات المجلس الأعلى بما فيها صلاحيَّة تعديل الدستور، والحادية عشر، تحتِّم على هذا المجلس الاجتماع في مدَّة أقصاها خمسة عشر يومًا لانتخاب خلف للزعيم إذا ما حال مانع طبيعيٌّ دائم من ممارسة صلاحيَّاته، والثانية عشر، تسمِّي الخلف المنتخب "رئيسًا" تناط به السلطة التنفيذيَّة فقط، وتنحصر السلطة التشريعيَّة من دستوريَّة وغير دستوريَّة بالمجلس الأعلى.

91) مقدِّمة الدستور.
92) المصدر نفسه.

إذًا، عند حصول مانع طبيعي دائم يمنع الزعيم من ممارسة صلاحيَّاته تنتقل السلطة التشريعيَّة إلى المجلس الأعلى، والتنفيذيَّة إلى رئيس الحزب، الذي يعيِّن العمد لمعاونته في إدارة الحزب وممارسة السلطة التنفيذيَّة وفق مصالح محدَّدة.

المجلس الأعلى والأمناء

من أين يأتي أعضاء المجلس الأعلى؟ في حياة سعادة، كان يعيِّنهم. ثمَّ أكَّد في أكثر من رسالة له أنَّ أعضاء المجلس الأعلى يجب أن يكونوا من الأمناء.[93] و"الأمانة" رتبة عليا في الحزب حسب المرسوم الدستوري عدد 7، تُعطى لمن يستحقّها وفق شروط واضحة وصارمة لا ينالها إلاَّ المناضلين الممتازين فكرًا وفعلاً في سبيل القضيَّة الذين يجاهرون بمبادئ الحزب وقدَّموا تضحيات جلّى في سبيله.

كيف يتمُّ اختيار الأمناء؟ في حياة سعادة كان يختارهم أيضًا. أمَّا بعد استشهاده، فكان المجلس الأعلى يعيِّنهم بناء على توصية من السلطة التنفيذيَّة. هذه الصيغة جوبهت بمعارضة تحت شعار "المانح المستفيد" بمعنى أنَّ المجلس الأعلى يمنح رتبة الأمانة لمن يؤمِّن استمراريَّة خطٍّ معيَّن، وليس بالضرورة من يستحقَّها. تفاديًا لهذه المشكلة، أنيطت مهمَّة تعيين الأمناء مؤخَّرًا بلجنة خاصَّة ينتخبها مجلس الأمناء من بين أعضائه تحديدًا لهذه المهمَّة. غير أنَّ هذه الخطوة لم تُنهِ التساؤلات عن أهليَّة بعض الأمناء.

القانون المالي

يقدِّم القانون المالي – المرسوم عدد 5 – من الدستور صورة بديعة عن الإدارة عبر الضوابط والتوازنات. إنَّه يعطي صورة متكاملة عن العمليَّة الماليَّة في الحزب من الجباية إلى الصرف والرقابة والتدقيق لدرجة أنَّ سعادة لم يسمح حتَّى لنفسه بصرف مبالغ ماليَّة خارج الميزانيَّة إلا بصورة استثنائيَّة وبما لا يتجاوز الخمسين ليرة سوريَّة!

مجالس المنفَّذيَّات

قلنا في مطلع حديثنا عن الإدارة إنَّ السلطة التشريعيَّة موجودة في المجلس الأعلى ومجالس المنفَّذيَّات. هذه حقيقة لا يعرفها عدد كبير من القوميِّين على ما نظن، لا سيَّما أنَّ العمل بالسلطة التشريعيَّة لمجالس المنفَّذيَّات نادرًا ما طُبق في الحزب.

93) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثالث عشر، ص. 261 (رسالة إلى غسان تويني، 21 فبراير 1946)، أيضًا ص. 343، (رسالة إلى تويني تاريخ 3 سبتمبر، 1946). أيضًا أنظر قبرصي، عبد الله، عبد الله قبرصي يتذكَّر، الجزء الثاني ص. 166.

تنصُّ المادَّة التاسعة من المرسوم الدستوري عدد 4 على ما يلي:

ينشأ في كلِّ منفَّذيَّة من منفَّذيَّات الحزب السوري القومي الاجتماعي مجلس تمثيلي استشاري له صفة تشريعيَّة في الضرائب الماليَّة (الاشتراكات) المحليَّة، ويتألَّف من ممثلي لجان المديريَّات.

أمَّا المادَّة الحادية عشر، فتحدِّد صلاحيَّاته كما يلي:

... درس شؤون المنطقة الحزبيَّة والسياسيَّة ودرس مشاريع وتدابير سياسيَّة وماليَّة واجتماعيَّة واقتصاديَّة محليَّة. وتقرير الضرائب (الاشتراكات) المحليَّة ودرس موازنة المنفذيَّة وإقرارها كما هي أو بإحداث تخفيض في اعتماداتها والاطِّلاع على ماليَّة المنفَّذيَّة وحساباتها بواسطة لجنة ماليَّة ينتخبها من بين أعضائه.

المادَّة الرابعة من المرسوم الدستوري عدد 6، المختصُّ بالضرائب المحلِّيَّة تنصُّ على:

تسدِّد المنفَّذيَّة نفقاتها وتقوم بمشاريعها باعتمادها على الضرائب المحلِّيَّة والأموال التي تردها بطرق أخرى.

بيت القصيد من كلِّ ما تقدَّم، مع كون إدارة الحزب العليا وعلى المستوى القومي هي إدارة مركزيَّة، إلاَّ أنَّ إدارة شؤون الاجتماع البشري في المتَّحدات الاجتماعيَّة، المديريَّات التي تدير كلَّ منفَّذيَّة عددًا منها، تخضع لتشريع مالي محلِّي لا مركزي. فالمنفَّذيَّة مسؤولة عن جباية الضرائب المركزيَّة وإرسالها للمركز، ولكن مجلس المنفَّذيَّة هو الذي يقر ميزانيَّة المنفَّذيَّة. كما أنَّ المنفَّذيَّة تحتفظ بالاشتراكات المحلِّيَّة والأموال الأخرى التي تنتجها من مشاريع أو مبادرات ماليَّة.

اليمين وحماية المصلح من الفساد

وضع سعادة قَسَمًا للعضويَّة في الحزب وقَسَمًا آخر لكلِّ مَن يتحمَّل مسؤوليَّات فيه، وأعطى قيمة كبرى لهذين القَسَمَين، فتكلَّم عن "احترام قداسة اليمين التي يؤدُّونها" أي الأعضاء والمسؤولين.[94]

بالعودة إلى صلاحيَّات الزعيم المطلقة، فقد لفت هذا الشكل النظامي الفردي التسلسلي نظر المراقبين والناس الاعتياديِّين فسأل بعضهم عن سبب هذه السلطة المطلقة للزعيم، فكان جوابه في مقالين نشرتهما "الزوبعة" سنة 1941، نبرز أهمَّ ما فيهما أدناه لأهمِّيتهما:

94) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثامن، ص. 45. (مقال ضمان سلامة الحزب السوري القومي).

في سورية المناقب تحولت إلى مثالب والأخلاق انحطَّت. فالفساد في الشعب والشعب الفاسد الروحيَّة يحتاج إلى إصلاح. والإصلاح، الذي لا يمكن أن يكون إلاَّ من الداخل، يجب أن يكون من فرد انشقَّ على فساد المجموع وتغلَّب على أهوائه، **هذا الفرد هو الذي يحتاج إلى ضمانات السلطة ضدَّ فساد الشعب وليس الشعب هو الذي يحتاج إلى هذه الضمانات.**

إنَّ هذا الفرد المصلح يجب أن ينال ضمانات السلطة المطلقة ليضرب بيد من حديد على أيدي تجَّار الحقوق القوميَّة والمصالح الشعبيَّة وليضع حدًّا لعبث العابثين بالنظام ولتدجيل المزدرين بكرامة الأمَّة وحقوقها، وليمنع الفوضى وليعلِّم ويدرِّب وينشيء المؤسَّسات الجديدة الصالحة لحمل أعباء مطاليب الحياة الجديدة وليضع قواعد سلوكيَّة جديدة تقيم فضائل الحريَّة والواجب والنظام والقوَّة بدلاً من الفوضى والرغبات الخصوصيَّة والعادات والمشارب الانحطاطيَّة والتفكُّك والتراخي.

وإذا درسنا جيِّدًا تاريخ الحزب السوري القومي ودقَّقنا في الاختبارات التي مرَّت به وجدنا **هذه السلطة غير المحدودة للزعيم الضمان الوحيد لسلامة هذا الحزب الذي يمثِّل نهضة** الأمَّة السوريَّة. **ولولا هذه السلطة لكان الأرجح أن يتفكَّك الحزب، وإن بقيت العقيدة،** من جرَّاء المناورات التي قام بها أفراد جلبوا معهم إلى داخل الحزب أمراض النفسيَّة الانحطاطيَّة وحاولوا أن يحوِّلوا الحزب إلى ميدان تتبارى فيه منافعهم الخصوصيَّة وأهواؤهم. والفضل في إبطال هذه المناورات يعود إلى مقدرة الزعيم وإلى سلطته غير المحدودة التي زادت إيمان مجموع الحزب به، بدلاً من إضعافه.[95]

هذا المقطع مهمٌّ جدًّا ليس فقط لفهم تاريخ الحزب وفلسفة السلطة فيه، بل لحاضر الحزب ومستقبله أيضًا. كتب سعادة هذا المقال سنة 1941، واعتبر نفسه فيه "الضمان الوحيد لسلامة هذا الحزب" بناء على تجارب سنوات التأسيس الأولى وما رافقها من حملات تطهير سبقت الإشارة إليها. وكتب هذا الكلام قبل الانحراف الكبير، انحراف "الواقع اللبناني" الذي تعرَّض له الحزب أثناء غياب سعادة.

ضمانة الحزب

عاد سعادة إلى الوطن عام 1947، وأجرى حملة تطهير واسعة في صفوف الحزب شملت شخصيَّات قياديَّة واسعة. ولكن إذا **كانت السلطة غير المحدودة للزعيم الضمان الوحيد لسلامة الحزب أثناء وجوده، فما هي السلطة الضامنة للحزب في مرحلة غيابه مرَّة ثانية، أو إذا لم يتمكن من ذلك لأيِّ سبب؟** هل وضع سعادة الضوابط لتحول دون تفكُّك **الحزب، مع بقاء العقيدة** بعد اختبار "الواقع اللبناني" وانغماس قيادة الحزب بسلطتها

95) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثامن، ص. 41 (سلطة الزعيم).

التنفيذيَّة والتشريعيَّة في نهج انحرافي فاضح؟ هذا سؤال صعب يترك ثغرة كبيرة مفتوحة حتَّى اليوم، ولنا عودة إلى ذلك.

الالتزام بالدستور

التزم سعادة بالدستور منذ التأسيس وحتَّى استشهاده التزاماً تاماً. فقد ووجه بموقف دقيق عند تأسيس الحزب حين ظهر له فساد اثنين من المجموعة الأولى، النواة التي دعاها إلى عقيدته، وكانت من خمسة أشخاص. ولأنَّه لم يكن هناك دستور يجيز له طرد العضوين الفاسدين، فقد أقدم على حلِّ الحركة، ثمَّ أعاد الاتِّصال بالأعضاء الباقين.[96]

ولكن حين ووجه بحالة تمرُّد في الحزب بعد وضع الدستور، عقد محكمة دستوريَّة طردت كلاً من منفِّذ عام بيروت، شارل سعد، وبطرس سماحة مع ما في هذه الخطوة من خطورة على كشف الحزب قبل الأوان.[97]

الإدارة الملتزمة

مرَّ معنا أنَّ الحزب السوري القومي الاجتماعي ليس حزبًا سياسيًّا بالمعنى التقليدي للكلمة. إنَّه حزب ينطلق من عقيدة واضحة ويلتزم بتحقيق غاية سامية ونظرة إنسانيَّة يعتبرها أعضاؤه مثالهم الأعلى. من هذه النظرة وهذه الغاية تنبثق، مفاهيم جديدة عن **نوعيَّة الإدارة ومسؤوليَّتها والنظام والهدف منه، والتنظيم ووجهته.**

الإدارة ملتزمة بقضيَّتها ومسؤولة عن تحقيق غايتها. المقاطع التالية التي ننقلها عن مقال "النظام"، سنة 1936، على طولها، توضح لنا كم كان سعادة متميِّزًا من سواه في منهجيَّته وفي إخضاعه الإدارة والنظام المنبثق عنها للقضيَّة التي قامت لخدمتها.

المقطع الأوَّل أدناه يدفعنا إلى تخيُّل سعادة كأنه في ساحات بيروت سنة 2005 وما بعدها، وقد تجمَّع فيها مئات الألوف بقمصان ملوَّنة بألوان طوائف وشارات مذاهب، وفي نظام بعيد كلَّ البعد عن أيِّ فهم للحياة القوميَّة. أمَّا بعض المقاطع الأخرى، فيدفعنا إلى السؤال التالي: كيف يمكن لقيادة قرأت هذا الكلام سنة 1936، أن تؤسِّس "للواقع اللبناني" بمجرَّد أن غاب سعادة عن قيادة الحزب الفعليَّة سنة 1938؟

إنَّ النظام بلا قضيَّة يخدمها لا يفيد شيئًا ذا قيمة في الحياة عمومًا وفي الحياة

96) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الرابع، ص. 39-40 (خطاب الأوَّل من آذار).
97) جريج، جبران، من الجعبة، المجلَّد الأوَّل، بيروت، 1985، ص. 328-329.

في سورية المناقب تحولت إلى مثالب والأخلاق انحطَّت. فالفساد في الشعب والشعب الفاسد الروحيَّة يحتاج إلى إصلاح. والإصلاح، الذي لا يمكن أن يكون إلاَّ من الداخل، يجب أن يكون من فرد انشقَّ على فساد المجموع وتغلَّب على أهوائه، **هذا الفرد هو الذي يحتاج إلى ضمانات السلطة ضدَّ فساد الشعب وليس الشعب هو الذي يحتاج إلى هذه الضمانات.**

إنَّ هذا الفرد المصلح يجب أن ينال ضمانات السلطة المطلقة ليضرب بيد من حديد على أيدي تجَّار الحقوق القوميَّة والمصالح الشعبيَّة وليضع حدًّا لعبث العابثين بالنظام ولتدجيل المزدرين بكرامة الأمَّة وحقوقها، وليمنع الفوضى وليعلِّم ويدرِّب وينشيء المؤسَّسات الجديدة الصالحة لحمل أعباء مطاليب الحياة الجديدة وليضع قواعد سلوكيَّة جديدة تقيم فضائل الحريَّة والواجب والنظام والقوَّة بدلاً من الفوضى والرغبات الخصوصيَّة والعادات والمشارب الانحطاطيَّة والتفكُّك والتراخي.

وإذا درسنا جيِّدًا تاريخ الحزب السوري القومي ودقَّقنا في الاختبارات التي مرَّت به وجدنا **هذه السلطة غير المحدودة للزعيم الضمان الوحيد لسلامة هذا الحزب الذي يمثِّل نهضة الأمَّة السوريَّة. ولولا هذه السلطة لكان الأرجح أن يتفكَّك الحزب، وإن بقيت العقيدة،** من جرَّاء المناورات التي قام بها أفراد جلبوا معهم إلى داخل الحزب أمراض النفسيَّة الانحطاطيَّة وحاولوا أن يحوِّلوا الحزب إلى ميدان تتبارى فيه منافعهم الخصوصيَّة وأهواؤهم. والفضل في إبطال هذه المناورات يعود إلى مقدرة الزعيم وإلى سلطته غير المحدودة التي زادت إيمان مجموع الحزب به، بدلاً من إضعافه.[95]

هذا المقطع مهمٌّ جدًّا ليس فقط لفهم تاريخ الحزب وفلسفة السلطة فيه، بل لحاضر الحزب ومستقبله أيضًا. كتب سعادة هذا المقال سنة 1941، واعتبر نفسه فيه "الضمان الوحيد لسلامة هذا الحزب" بناء على تجارب سنوات التأسيس الأولى وما رافقها من حملات تطهير سبقت الإشارة إليها. وكتب هذا الكلام قبل الانحراف الكبير، انحراف "الواقع اللبناني" الذي تعرَّض له الحزب أثناء غياب سعادة.

ضمانة الحزب

عاد سعادة إلى الوطن عام 1947، وأجرى حملة تطهير واسعة في صفوف الحزب شملت شخصيَّات قياديَّة واسعة. ولكن **إذا كانت السلطة غير المحدودة للزعيم الضمان الوحيد لسلامة الحزب أثناء وجوده، فما هي السلطة الضامنة للحزب في مرحلة غيابه مرَّة ثانية، أو إذا لم يتمكن من ذلك لأيِّ سبب؟** هل وضع سعادة الضوابط لتحول دون تفكُّك **الحزب، مع بقاء العقيدة** بعد اختبار "الواقع اللبناني" وانغماس قيادة الحزب بسلطتها

95) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثامن، ص. 41 (سلطة الزعيم).

التنفيذيَّة والتشريعيَّة في نهج انحراف فاضح؟ هذا سؤال صعب يترك ثغرة كبيرة مفتوحة حتَّى اليوم، ولنا عودة إلى ذلك.

الالتزام بالدستور

التزم سعادة بالدستور منذ التأسيس وحتَّى استشهاده التزاماً تاماً. فقد ووجه بموقف دقيق عند تأسيس الحزب حين ظهر له فساد اثنين من المجموعة الأولى، النواة التي دعاها إلى عقيدته، وكانت من خمسة أشخاص. ولأنَّه لم يكن هناك دستور يجيز له طرد العضوين الفاسدين، فقد أقدم على حلِّ الحركة، ثمَّ أعاد الاتِّصال بالأعضاء الباقين.[96]

ولكن حين ووجه بحالة تمرُّد في الحزب بعد وضع الدستور، عقد محكمة دستوريَّة طردت كلاً من منفِّذ عام بيروت، شارل سعد، وبطرس سماحة مع ما في هذه الخطوة من خطورة على كشف الحزب قبل الأوان.[97]

الإدارة الملتزمة

مرَّ معنا أنَّ الحزب السوري القومي الاجتماعي ليس حزبًا سياسيًّا بالمعنى التقليدي للكلمة. إنَّه حزب ينطلق من عقيدة واضحة ويلتزم بتحقيق غاية سامية ونظرة إنسانيَّة يعتبرها أعضاؤه مثالهم الأعلى. من هذه النظرة وهذه الغاية تنبثق، مفاهيم جديدة عن **نوعيَّة الإدارة ومسؤوليَّتها والنظام والهدف منه، والتنظيم ووجهته.**

الإدارة ملتزمة بقضيَّتها ومسؤولة عن تحقيق غايتها. المقاطع التالية التي ننقلها عن مقال "النظام"، سنة 1936، على طولها، توضح لنا كم كان سعادة متميِّزًا من سواه في منهجيَّته وفي إخضاعه الإدارة والنظام المنبثق عنها للقضيَّة التي قامت لخدمتها.

المقطع الأوَّل أدناه يدفعنا إلى تخيُّل سعادة كأنه في ساحات بيروت سنة 2005 وما بعدها، وقد تجمَّع فيها مئات الألوف بقمصان ملوَّنة بألوان طوائف وشارات مذاهب، وفي نظام بعيد كلَّ البعد عن أيِّ فهم للحياة القوميَّة. أمَّا بعض المقاطع الأخرى، فيدفعنا إلى السؤال التالي: كيف يمكن لقيادة قرأت هذا الكلام سنة 1936، أن تؤسِّس "للواقع اللبناني" بمجرَّد أن غاب سعادة عن قيادة الحزب الفعليَّة سنة 1938؟

إنَّ النظام بلا قضيَّة يخدمها لا يفيد شيئًا ذا قيمة في الحياة عمومًا وفي الحياة

96) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الرابع، ص. 39-40 (خطاب الأوَّل من آذار).
97) جريج، جبران، من الجعبة، المجلَّد الأوَّل، بيروت، 1985، ص. 328-329.

> القوميَّة خصوصًا. والذين يظنُّون أنَّ النهضة هي عبارة عن صفوف مجموعة في ساحة من الساحات مبتهجة بألوان قمصانها وشارات رتبها يخطئون كثيرًا في فهم الحياة القوميَّة الصحيحة. ولذلك لا نرى في كلِّ الصفوف التي تجمع هنا وهناك، كما يجمع قطيع من الغنم، وتلوَّن بقمصان معيَّنة ما يصح أن يسمَّى نهضة تكوِّن خطرًا على الحزب القومي.
>
> لم يتغلَّب الحزب السوري القومي على جميع الاضطهادات التي وجِّهت إليه لمجرَّد النظام، بل إنَّ تغلُّب الحزب على الصعوبات التي وُضعت في طريقه يعود إلى سرٍّ المحافظة على النظام والتقيُّد به. **وهذا السرُّ ليس في النظام نفسه، بل في العقيدة التي وراءه والهدف الذي أمامه.**
>
> انتصار الحزب السوري القومي وتقدُّمه، على الرغم من الهجمة الشديدة التي وجهتها إليه الرجعيَّة **ليس عائدًا إلى نظامه بقدر ما هو عائد إلى غايته.** وليس يدلُّ على مجرَّد تفوُّق النظام بل على تفوُّق الوجدان القومي والعقيدة القوميَّة.[98]

السر إذًا هو في العقيدة التي وراء النظام والهدف الذي أمامه. وينطبق الشيء نفسه على الإدارة والحزب كله معًا.

وحدة الإدارة

الإدارة وحدة متكاملة في تركيبتها وموحَّدة في مسؤوليتها تجاه قضيَّتها التي قامت لأجلها، وغايتها التي تعمل لتحقيقها.

الوقت الكبير الذي صرفه سعادة في رسائله إلى غسَّان تويني عن "وحدة الإدارة" وصلاحيَّة العُمُد (جمع عميد) ومسؤوليَّة المؤسَّسات وما إذا كان يحقُّ لكلِّ عمدة أن تعلن مسؤوليَّتها تجاه "المثل العليا"، يشير إلى الاهتمام الذي أولاه هذا الموضوع. لا يتَّسع المجال هنا لإعادة نشر كلِّ ما كتبه في هذا الخصوص، لذا سنكتفي بإبراز أهمِّ النقاط.

1. المسؤوليَّة المطلقة تجاه القيم العليا لا يمكن، دستوريًّا، أن تكون من صلاحيَّة أيَّة عمدة أو إدارة جزئيَّة من إدارات الحزب.
2. لا يجوز أن تتقدَّم سياسة أيِّ عميد في المنزلة والأساس، على أهداف الحزب العليا وغايته الأخيرة وتعاليمه الأساسيَّة التي أوجدت عمدته.
3. ولا يجوز أيضًا أن تقدِّم أيَّة عمدة، كائنًا من كان عميدها، حتَّى الزعيم نفسه، مسؤوليَّتها المطلقة تجاه القيم العليا وحرصها على مصلحة الأمَّة التي تخدمها،

98) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثاني ص. 241 (النظام).

على مسؤوليَّتها الواضحة نحو المنظَّمة التي أوجدتها لتحقيق غايتها، ونحو وحدة إدارة المنظَّمة ووحدة إرادتها في الحرص على مصلحة الأمَّة.

4. ضرورة تخطيط كلِّ عميد سياسة عمدته العمليَّة في تطبيق ما يخصُّ عمدته من غاية الحزب وخطَّته الأساسيَّة.
5. لا يجوز أن يكون لأيَّة عمدة حرص مستقلٌّ على مصلحة الأمَّة غير مندمج في حرص المرجع الأخير للمنظَّمة مهما كان شكل هذا المرجع: الزعيم أو المجلس الأعلى أو المبادئ والتعاليم أو الدستور.[99]

لا بد لنا من إنعام النظر في هذا الكلام لأنَّه أساس في فهم موضوع البحث.

كان شرح سعادة في النقاط الواردة أعلاه منطلقًا من مشكلة فايز صايغ الإداريَّة حين ربط مسؤوليَّة عمدة الثقافة يوم كان عميدها "بالقيم المطلقة"، عوضًا عن ربطها بالمؤسَّسة التي أنشأتها. هي إذًا مسألة إداريَّة بسيطة تفاقمت بسبب "الكبرياء الفكريَّة" لدى صايغ، ولكنَّها لم تكن "مشكلة فكريَّة" كما ادّعى غسَّان تويني في مراسلاته مع سعادة.[100]

في مؤسَّسة كبيرة ذات إدارات (أو عمدات) متعدِّدة، لا بأس إذا وضعت كلُّ عمدة "غاية" لها توحِّد جهود العاملين فيها (أي في تلك الإدارة) بما يخصُّهم من تطبيق خطَّة المؤسَّسة الأساسيَّة، شرط توافقها مع غاية المؤسَّسة، وعدم خروجها عنها، وعدم اقتطاع جزء من صلاحيَّات المؤسَّسة الأم ونسبتها إليها. ولكن من الخطأ أن يضع كلٌّ منها "نظرة" خاصَّة به وإلاَّ وقعت هي والمؤسَّسة التي تتبع لها في الفوضى.

إذا شئنا تطبيق هذا الشرح على أزمة "وحدة الإدارة" التي عانى منها الحزب مع فايز صايغ، وانطلاقًا من النقطة رقم (4) أعلاه، كان يمكن لفايز صايغ مثلاً وضع "غاية" لعمدة الثقافة منبثقة من غاية الحزب ومتوافقة معها وتخدمها، كما يلي:

> غاية عمدة الثقافة في الحزب السوري القومي الاجتماعي تشجيع الانتاج الثقافي في سورية ورفع مستواه، وتنمية التبادل الثقافي بما يؤهِّل لمساهمة سورية في تقدُّم الإنسانيَّة الأدبي والحضاري.

إذا عدنا إلى الخارطة الاستراتيجيَّة للحزب التي وضعناها في الفصل الثاني، نجد أنَّها تتألَّف من مجموعة أهداف استراتيجيَّة منبثقة من تفكيك المواضيع الاستراتيجيَّة. ولكن عمليًّا، يكون تنفيذ كلِّ هذه الأهداف منوطًا بعمدات معيَّنة انطلاقًا من خطَّة كلِّ عمدة

99) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الرسائل، الجزء الثالث، عمدة الثقافة، بيروت، 1980، ص. 647.
100) المصدر نفسه، ص. 704.

لتنفيذ ما يخصُّها من خطَّة المؤسَّسة الأساسيَّة التي هي مشدودة دومًا إلى غاية الحزب ونظرته.

أمَّا النقطة رقم (5) فإنَّها تعيدنا إلى موضوع الالتزام، و"المرجعيَّة الأخيرة" التي تحدِّد الالتزام كما يشير إليها سعادة في تلك الفقرة: **الزعيم أو المجلس الأعلى أو المبادئ والتعاليم أو الدستور.**

القاعدة التي وضعها سعادة: "النظام بلا قضيَّة يخدمها لا يفيد شيئًا ذا قيمة في الحياة عمومًا وفي الحياة القوميَّة خصوصًا"، تنطبق على الحزب وإدارته: القضيَّة والغاية أوَّلاً ثمَّ المؤسَّسات والنظام والتنظيم. ما يحفظ قضيَّة الحزب السوري القومي الاجتماعي هو دستوره بمقدِّمته التي توضح العلاقة التعاقديَّة بين "الشارع صاحب الدعوة" والمقبلين على دعوته، ومن ثمَّ مادَّته الأولى: غاية الحزب، ومادَّتيه الثانية والثالثة: مبادئ الحزب الأساسيَّة والإصلاحيَّة. أما القيِّمون دستوريًّا على قضيَّة الحزب، فهم الزعيم، (المادَّة الرابعة من الدستور)، والمجلس الأعلى (مادَّته العاشرة)، **طالما هم ملتزمون بعقيدة الحزب وغايته.** لقد وضعنا هذه العبارة الشرطيَّة من عندنا مع أنَّها لم تكن متضمَّنة في عبارة سعادة أعلاه، ذلك أنَّ سعادة عندما كان يكتب إلى غسَّان تويني سنة 1946، لم يكن ليتخيَّل أنَّ المجلس الأعلى يمكن له أن يتورَّط في "الواقع اللبناني". ولكنَّه عاد فحذَّر بعد عودته إلى الوطن من خطر الخروج العقدي:

> والظاهر أنَّ الحزب قَبلَ انتشار "الواقع اللبناني" بحكم النظام فقط، لأنَّني وجدت أنَّ مجموع القوميِّين الاجتماعيِّين لم يتقيَّدوا بفكر واحد من هذه الأفكار. ولكن قبول هذا الخروج العقدي، وإن يكن في الظاهر فقط، يكون مسألة من المسائل الخطيرة. وإنَّ مجرَّد الإقدام على الخروج المذكور لم يكن ممكنًا إلاَّ بعامل إهمال تاريخ الحزب وإغفال درس عقيدته ونظرته إلى الحياة والكون والفن.[101]

هذه ثغرةٌ خطيرةٌ يمكن اختصارها بالسؤال الفلسفي الذي طرحه يسوع الناصري: إذا فسد الملح بماذا يملح؟ بمعنى، **من يوقف شطط المؤسَّسات العليا إذا شطَّت بعد غياب المؤسِّس؟** سنخصِّص فصلاً مستقلاً لدراسة الأخطار التي تواجهها المنظَّمة حين تتخلَّى عن أساسها الاستراتيجي أو عن عقيدتها، وبعض الوسائل لمنع ذلك.

101) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الأولى.

ثانيًا: إدارة عصريَّة: النوع أوَّلاً والكمُّ ثانيًا

> النوع أوَّلاً والكمُّ ثانيًا. هذه هي القاعدة العمليَّة التي سار عليها الحزب السوري القومي وتمكَّن بها من حفظ وحدة صفوفه وسلامة نظامه ووحدة عقيدته. ولكن اللاقوميِّين لم يفهموا شيئًا من حكمة هذه الخطَّة وكلُّ ما أدركوه بالتفكير السخيف الذي ورثوه من عهد الفوضى هو هذا الاستنتاج المعكوس: الحزب السوري القومي الاجتماعي يتزعزع لأنَّ عددًا من الذين انضموا إليه أخرج من الصفوف! والحقيقة هي أنَّ الحزب يقوى ويتراص بنيانه بإزالة العناصر المفسدة.[102]

هذا هو المبدأ العام الذي اعتمده سعادة لاختيار أعضاء الحزب، وفي عدم التهاون ليس فقط مع عناصر الفساد متى أطلَّت برؤوسها داخل الحزب، بل مع كلِّ من سلك سلوكًا يخالف عقيدة الحزب وغايته ووحدة قضيَّته ووحدة إدارته. ويلتقي سعادة في هذا المبدأ مع كبار الباحثين في علم الإدارة الحديث أمثال جيم كولنز.[103] ولنا عودة إلى ذلك.

توخَّى سعادة أن تكون إدارة الحزب متقدِّمة على عصرها: متعلِّمة، مثقَّفة، شابَّة، دقيقة في التخطيط، سريعة في التنفيذ، ذكيَّة، متطوِّرة، نظاميَّة، مسؤولة، شفَّافة وسابقة خصومها بخطوات. تجلَّى كلُّ هذا في كيفيَّة اختيار الأعضاء والمسؤولين، وكيفيَّة بنائه النظام الحزبي، وتسلسل المسؤوليَّات وترابطها، وتدريبه المسؤولين بالقدوة الحسنة والممارسة الدؤوبة ومبدأ المكافأة والحساب.

مَن يقرأ كتاب الأمين الراحل جبران جريج من الجعبة، الجزئين الأوَّل والثاني يلمس كم كان سعادة حريصًا على نوعيَّة الأعضاء الذين انضمُّوا في المرحلة السريَّة، وكان معظمهم من الطلاَّب والمثقَّفين وأصحاب المهن الذين لهم تأثير في محيطهم، وهذا ما مكَّن الحزب من الانتشار السريع والسرِّي. بأعضاء على هذا المستوى من النوعيَّة لا غرو أن انبثقت قيادة على مستوى عالٍ من النوعيَّة أيضًا.

المقطع التالي من مقابلة مع سعادة نشرتها مجلَّة "العاصفة" في الخامس من شباط/فبراير 1937، يعطي صورة عن نوعيَّة الإدارة وسلوكيَّتها في مركز الحزب آنذاك.

> دخلت عليه في غرفته القائمة في الصف الثالث من بناية شاهقة في قلب بيروت، يشغل الحزب فيها الشقة بكاملها، فهناك المكاتب المتعدِّدة، والدواوين المختلفة، والوجوه الطافحة بنور الشباب والحياة. وقد يخيَّل إلى الزائر لأوَّل وهلة أنَّ هنالك

102) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء العاشر، (نظرة الحزب السوري القومي الإداريَّة في أوروبة).
103) Jim Collins باحث أميركي مشهور في علم الإدارة. من كتبه المهمة: Built to Last و Good to Great.

دارًا حكوميَّة منظَّمة أحسن تنظيم والأصح دائرة عسكريَّة رئيسيَّة شعارها الطاعة والنظام والتفاني.

... وكان الزعيم الأستاذ سعادة جالسًا إلى مكتبه يحيط به رهط من المساعدين الأمناء وكلُّهم من خيرة الشبيبة المثقَّفة الراقية.[104]

أنظمة العمليَّات

من أهم عوامل نجاح الإدارة وضعها أنظمة عمليَّات دقيقة واضحة وفعَّالة والعمل بموجبها. وأهميَّة نظام العمليَّة أنَّه متى اعتُمد يصبح آليَّ الإطلاق، أي أنَّ عمله (الفعل) يبدأ مع (حدث) معيَّن، "زناد" يطلِق جميع آليَّاته. لم يشذ سعادة عن هذه القاعدة بل جعل لإدارته أنظمة للعمليَّات تعمل بموجبها. نأخذ مثالًا على ذلك قانون الطوارئ الذي وضعه بعد خروجه من السجن الأوَّل في 30 تموز/يوليو سنة 1936، وحدَّد الخطوات التي تتَّخذ في حال اعتقال قيادة الحزب، تجنُّبًا لحصول فراغ فيها. وقد وضعنا خطًّا تحت كلِّ حدث وخطَّين تحت كلِّ فعل:

مادَّة أولى: في حالة اعتقال الزعيم وهيئة الإدارة العليا، يعلن الإضراب العام والعصيان المدني في جميع أنحاء الجمهوريَّة اللبنانيَّة.

مادَّة ثانية: ينعقد مجلس المندوبين عن جميع مناطق الحزب (عن المنفَّذيَّات والمديريَّات المستقلَّة) لبحث التدابير والإجراءات الضروريَّة بصورة إيجابيَّة فقط وانتخاب هيئة إداريَّة جديدة وتعيين لجان لدرس الوسائل اللازمة من ماليَّة وغيرها.

مادَّة ثالثة: كلَّما اعتُقِلت هيئة إداريَّة ينعقد مجلس المندوبين لاختيار هيئة إداريَّة تحلُّ محلَّها.

وبعد أن يحدِّد المهمات التي على القوميِّين العمل لإنجازها من أجل إطلاق سراح المعتقلين في المواد من أربعة إلى ثمانية، يعود في المادَّة 9 فيحدِّد كيفيَّة العمل إذا شعر المجلس أنَّه معرَّض للخطر:

مادَّة تسعة: يعيِّن المجلس لجانًا احتياطيَّة إذا رأى أنَّ وجوده مهدَّد بخطر الاعتقال أو غيره.[105]

المعلومات والسريَّة

أدرك سعادة قيمة المعلومات الدقيقة والسريعة في اتِّخاذ القرارات السليمة، فأسس مكتب

104) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثالث، ص. 46. (مقابلة مع مجلة العاصفة).
105) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثاني، ص. 224.

الاستخبارات الذي عُرف في وقته باسم "مكتب أعلى مختص" (مام)[106]، وعيَّن فيه مَن رأى فيهم مؤهِّلات مميَّزة مثل الولاء والدقَّة والانضباط والكتمان والذكاء وسرعة البديهة. وكان من العوامل التي ساعدته في التخطيط واستباق خطوات خصومه كما سنبيِّن عند الكلام عن "أيَّام الحزب". من جهة ثانية، ومع أنَّ سعادة أعلن في المحكمة أنَّ الحزب نشأ سرِّيًّا بصورة مؤقَّتة، إلَّا أنَّه تابع تأسيس الفروع السريَّة للحزب لأكثر من سبب، لعلَّ أهمَّها وثوقه من أنَّ أيَّة هدنة ستعقبها معارك أقسى. ولأنَّه كان يدرك أنَّ حجم الهجوم على الحزب سوف يقوى بمقدار قوَّة الحزب وانتشاره.[107] وعي هذه الأخطار، دفعه إلى الاستمرار في تأسيس الفروع السريَّة، فكتب في كانون ثان/يناير 1938، إلى إدفيك شيبوب عن فرع سري أنشأه آنذاك.[108]

ثالثًا: إدارة شفَّافة

انطلق سعادة من عدد من الاعتبارات الأساسيَّة في إدارته للحزب. أولًا، أنَّ كلَّ مبدأ لا يخدم الشعب هو مبدأ فاسد، بالتالي فالشعب هو السلطة النهائيَّة التي يجب أن يحتكم إليها. ولكن لكي يصدر الشعب حكمًا سليمًا لا بدَّ له من المعرفة، والمعرفة تبدأ من المعلومات. ثانيًا، اعتبر سعادة حزبه "الأمَّة مصغَّرة" و"دولة الأمَّة" والمسؤول عن قضيَّتها كما مرَّ. هذا يعني أن يخاطب الشعب بصورة مستمرَّة لإبقائه على اطِّلاع بمستجدَّات الأحداث وانعكاساتها عليه وضرورة تحرُّكه لحماية مصالحه. في الوقت نفسه، كان يخاطب الفئات السياسيَّة الأخرى مسالمًا مرَّة، ومهاجمًا مرَّات، وكذلك الأمر مع الجهات الخارجيَّة. لقد كان يريد التكلُّم باسم القضيَّة السوريَّة ولكن ليس من موقع المعبِّر عن مصلحتها فقط، بل والممثِّل لأوسع شريحة شعبيَّة شاملة جميع مكوِّنات المجتمع، ومن مختلف مناطقه أيضًا، ليكون لتعبيره قوَّة حقيقيَّة تدعمه في مواقفه. بهذا، اعتبر معركة حزبه الأساسيَّة "الوصول إلى مخاطبة الشعب."[109]

انطلاقًا من هذه الاعتبارات، كان سعادة على تواصل دائم وصادق وشفَّاف مع الشعب. هذا ما يفسِّر العدد الكبير من البيانات الرسميَّة والبلاغات والمذكِّرات والرسائل – عدا عن المقالات والخطب – التي كان يوجِّهها إلى الشعب والأمَّة معلنًا فيها موقف الحزب من الأحداث، ومضمِّنها نتائج عمل الحزب بما فيه نجاحه أو إخفاقه.

106) المهتار، عجاج، أوراق غير منشورة، يوم صافيتا.
107) شيبوب، إدفيك، رسائل حب، بيروت، 1997، ص. 57-58.
108) المصدر نفسه ص. 121.
109) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السابع، ص.337. (خطاب بيت مري، 1947).

في انتخابات سنة 1937 النيابيَّة في لبنان، اتَّخذ الحزب موقفًا سياسيًّا مهادنًا يقضي بدعم لائحة الحكومة اللبنانيَّة في الانتخابات. التزمت جميع فروع الحزب بالموقف، لكن عددًا لا بأس به من الأعضاء لم يلتزم. لم يخجل سعادة من إعلان ذلك في جريدة "النهضة" ومن كشف عدد الذين لم يلتزموا، بل ومن الاعتراف أيضًا أنَّ الشيوعيِّين قد اخترقوا حزبه. ففي مقالة بعنوان "الأخلاق الحزبيَّة" يكتب:

> اعترف أحد أركان إذاعة الحزب السوري القومي بأنَّ الحزب قد سجَّل في عمليَّة الانتخابات مائتي حادثة خروج على النظام، بعضها عائد إلى بعض الشيوعيِّين الذين تمكَّنوا في فترة الاضطرابات التي تعرَّض لها الحزب من التغلغل في صفوفه، والبعض الآخر عائد إلى الضعف الشخصي في الأعضاء المارقين.
>
> ...إنَّ ما صرَّح به أحد موظَّفي عمدة الإذاعة يفوق كثيرًا المعلومات التي تسرَّبت إلى الرأي العام عن حوادث عدم التقيُّد بتعليمات الحزب...[110]

كذلك لا يخجل سعادة من الاعتراف للخصم بنجاحه. "البلاغ الأزرق" الذي سنتوسَّع في تحليل مضمونه لاحقًا صريح جدًّا سواء لاعترافه بنجاح الخصم أو لعدم نجاح الحزب في تحقيق أحد أهدافه بالسرعة المطلوبة:

> إنَّ المناورة التي قام بها الجانب الانتدابي كانت حتَّى الآن موفَّقة. فإنَّ هذه المناورة رمت إلى إقرار الحالة الراهنة بسرعة قبل أن يتاح لحركة الحزب السوري القومي الاجتماعي أن تعمَّ البلاد بأسرها وتحوِّلها إلى جبهة واحدة يدخل فيها لبنان. ولا بدَّ لنا من الاعتراف بأنَّ هذه المناورة قد تكلَّلت بالنجاح في مفاوضات بيروت الأساسيَّة وترجَّح انتصارها في مفاوضات باريس التكميليَّة، لأنَّ الوفد لا يمكنه الخروج على مقرَّرات بيروت. وقد نجحت حتَّى الآن مناورة الجانب الانتدابي في لبنان نفسه بانتخاب الحكومة اللبنانيَّة الحاليَّة الانفصاليَّة...[111]

التوثيق

لن ندخل في تفاصيل عمل الإدارة الحزبيَّة في كيفيَّة تسجيل الأعضاء الجدُد وجمع الاشتراكات ومحاضر الاجتماعات وتنظيم العمدات إلخ. لكن من المهمِّ القول إنَّ سعادة أولى عناية عظمى بتوثيق جميع القرارات الحزبيَّة والاتِّصالات الداخليَّة والخارجيَّة ليكون في ذلك تراكم للمعرفة والخبرات والعبر والاستفادة منها. بل إنَّ قارئ رسائل

(110) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الرابع، ص. 214 (مقال الأخلاق الحزبيَّة).
(111) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثالث، ص. 218 (البلاغ الأزرق).

سعادة وبعض مقالاته يلاحظ كم تعمَّد توثيق أحداث حزبه خوفًا عليها من الضياع. هذا الاهتمام هو الذي ترك لنا هذا التراث الكبير الموجود في ما يزيد على إثني عشر مجلَّدًا من كتابات سعادة تحت اسم: الآثار الكاملة.

المبادرات والمشاريع

نختم هذا الفصل بإعطاء لمحة عن بعض المبادرات التي اعتمدها سعادة في تحقيق أهدافه، ذلك أنَّه مارس عمليًّا مفهوم عدم ترك أهداف يتيمة بدون مبادرات تدعمها. سنأخذ عددًا من الأهداف الموجودة في خارطة الحزب الاستراتيجيَّة لنرى أيَّة مبادرات استخدم سعادة لتحقيقها.

الموضوع الاستراتيجي	الهدف الاستراتيجي	المبادرات
بعث نهضة سوريَّة قوميَّة اجتماعيَّة	تأسيس فكرة الأمَّة	كتابة نشوء الأمم، ووضع المبادئ الأساسيَّة
تنظيم حركة سوريَّة قوميَّة اجتماعيَّة	التغلُّب على الصعوبات الداخليَّة	أعضاء من مختلف الطوائف والعائلات والمناطق
	تحريك عناصر القوَّة القوميَّة	استقطاب الطلَّاب
		زيارة المغتربات لتأمين المال
	الاتِّصالات السياسيَّة	لقاء مع رئيس الغرفة السياسي
		لقاء مع المندوب السامي
		لقاءات مع سياسيِّين سوريِّين
		لقاءات سياسيَّة في أوروبة

الموضوع الاستراتيجي	الهدف الاستراتيجي	المبادرات
تنظيم حركة سوريَّة قوميَّة اجتماعيَّة	التحرُّر من التقاليد الرثَّة	الرد على البطريرك عريضة
	مهاجمة المفاسد	مقالات الأحزاب الببغائيَّة
إقامة النظام الجديد	الوصول إلى الشعب ونشر المعرفة	مجلَّة النهضة
		مهرجانات الحزب
		مقابلات صحافيَّة
	بناء المؤسَّسات	وضع الدستور
السعي لإنشاء جبهة عربيَّة	تشجيع العمل الثقافي المشترك	كتابة نشوء الأمم، والصراع الفكري في الأدب السوري وإطلاق حركة ثقافيَّة وأدبيَّة
	آليَّة العمل العربي المشترك	مفهوم العروبة الواقعيَّة

الفصل الثالث: في السياسة

نحن لسنا بهذه الصعوبة وهذه الصلابة في السياسة التي يتصوَّرها الواهمون الجاهلون، ولكنَّنا لسنا بهذه السهولة في معترك العقائد، معترك الأهداف والمبادئ والغايات والأسس الأخلاقيَّة التي لا تنهض أمَّة إلاَّ عليها. نحن نتساهل في السياسة ولكنَّهم لا يقدروا أن يحوِّلوا عقائدنا إلى سياسة، وسياستهم إلى عقائد لنا! السياسة عندنا فنٌّ يخدم غاية. أمَّا الغاية فقد قرَّرناها، وقد حاربنا في سبيلها. فهي موجودة ونحن فيها سياسيُّون، لا مراوغون ولا متلاعبون ولا محتالون. نحن في السياسة آخذون بما تقضي به قواعد النهوض بالأمَّم وأنَّ من السياسة الصلابة حيث تجب الصلابة، والقتال حيث يجب القتال، والمرونة حيث تفيد المرونة.[112]

112) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السادس عشر، ص. 45 (خطاب أول آذار في منزل الرفقاء شاوي).

تحديد الأهداف

"المغناطيس لا يجذب الخشب."[113]

نظر سعادة إلى السياسة على أنَّها وسيلة لا غاية وعرَّفها بأنَّها فن بلوغ الأغراض القوميَّة وتحقيق الغايات القوميَّة بأقرب الطرق وأقلِّ التكاليف.[114] إذا كانت غاية سعادة الأوَّليَّة من تأسيس الحزب هي جعله حركة الشعب السوريَّة العامَّة، وإذا كانت الأخطار التي مرَّت معنا هي هاجسه، فما هو المبدأ العام الذي حكم عمله السياسي؟ وما هي الأهداف السياسيَّة التي وضعها لنفسه؟

المبدأ العام الذي وضعه في بداية عمله السياسي وحكم مواقفه السياسيَّة في جميع المراحل هو: "**عدم تجاهل الأمر الواقع حين معالجة القضايا السياسيَّة، وعدم الخروج على هدفنا ومبادئنا.**"[115] هذا المبدأ والسياسات التي نتجت عنه هو الذي دفع سعادة إلى القول إلى غسَّان تويني في أحدى رسائله التي نوَّهنا عنها: "ودستور الحزب وتشكيلاته كلُّها تدلُّ على **اتِّجاهه العملي مع تأمين أساسه العقائدي.**"

ينطلق هذا المبدأ من القاعدة العمليَّة نفسها التي وضعها سعادة لنفسه ووصفها في كلامه عن النظام: **المبدأ هو دائمًا وراء العمل (أو النظام أو الحزب كلّه) والهدف دائمًا أمامه.** أمَّا المرونة فتكمن في "عدم تجاهل الأمر الواقع"، وفي تحديد الأولويَّات وأسلوب معالجتها انطلاقًا من مبادئ الحزب وغايته وأهدافه. سندرس نهج سعادة السياسي تحت العناوين العريضة التالية:

1. الانتداب الذي كان يحتلُّ البلاد عسكريًّا والمسؤول عنها تجاه عصبة الأمم.
2. الحكومات المتعاملة مع الانتداب.
3. علاقات إنترنسيونيَّة أخرى.
4. سورية والعالم العربي.

الانتداب البريطاني

لن نتكلَّم كثيرًا عن الانتداب البريطاني في فلسطين والعراق لأكثر من سبب. أوَّلها، أنَّ

113) المهتار، عجاج، أوراق غير منشورة.
114) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الثامنة.
115) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثاني، ص. 233 (رسالة إلى رفقائي السوريِّين القوميِّين).

سعادة، عند التأسيس لم يكن قد اعتبر العراق جزءًا من الوطن السوري.[116] ثانيًا، كان سعادة يدرك عمق العلاقة والتورُّط البريطاني المعنوي والمادِّي مع الحركة الصهيونيَّة منذ استشرافه أخطار الحركة الصهيونيَّة في العشرينيَّات من القرن الماضي، فوجَّه جهده إلى شرح أخطار الحركة الصهيونيَّة ووضع المذكِّرات القانونيَّة والرسميَّة حيال الحق السوري في فلسطين،[117] ولكنَّه وجَّه جهد الوحدات الحزبيَّة فيها إلى العمل العسكري من ضمن إمكانيَّاتها المحلِّيَّة. وبالفعل استشهد للحزب عدد من الرفقاء في فلسطين، نذكر منهم الشهيدين سعيد العاص وحسين البنَّا سنة 1936. وقد استمرَّ القوميُّون بالقتال هناك تحت لواء فرقة الزوبعة حتَّى سقوط معظم فلسطين سنة 1948. ثالثًا، لم ينمُ الحزب في فلسطين بالسرعة والزخم نفسيهما اللذين نما بهما في منطقة الانتداب الفرنسي قبل انكشافه. رابعًا، إنَّ لقاءه الوحيد مع سماحة الحاج أمين الحسيني، سنة 1936، أكَّد له إفلاس السياسيِّين السوريِّين في فلسطين. فقد سأله سعادة: "والآن يا سماحة المفتي، ما العمل؟ ما هو المخطَّط الذي رسمتموه للوضع في فلسطين؟" فكان جواب سماحته: "العلم عند الله، العلم عند الله،"[118] أخيرًا، ليس بين أيدينا أيَّة وثائق عن محاولات للاتِّصال بالانتداب البريطاني.

الانتداب الفرنسي

بالنسبة إلى الانتداب الفرنسي، كان الوضع مختلفًا. فالحزب تأسَّس في منطقة الإنتداب الفرنسي، ونما فيها بشكل سريع ممَّا أتاح لسعادة فرصة للعمل السياسي الواسع.

وضع سعادة نصب عينيه هدفًا سياسيًّا مرحليًّا هو انتزاع اعتراف من فرنسا بحقوق سورية والتفاوض معها على أساس "المصالح المتبادلة".[119] للوصول إلى ذلك كان عليه أن يشكِّل تيَّارًا قوميًّا عريضًا قويًّا عابرًا للطوائف والمناطق، يقوده في التمسُّك بوحدة القضيَّة القوميَّة، ورفض التقسيمات السياسيَّة الناجمة عن معاهدات سان ريمو وسيفر ولوزان،[120] ويواجه الفرنسيِّين باسمه، وينتزع التنازلات منهم. للنجاح في ذلك كان عليه أن يحقِّق مجموعة من الأهداف الفرعيَّة المترابطة في سرعة قياسيَّة:

116) أعلن سعادة إيضاح الحدود الشرقيَّة للوطن السوري في الطبعة الرابعة المنقحَّة لكتاب التعاليم السورية القومية الاجتماعية 1947/9/18.
117) سعادة، أنطون، مراحل المسألة الفلسطينية.
118) جريج، جبران، من الجعبة الجزء الثالث، بيروت، 1988، ص. 283.
119) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السادس، ص. 66، كذلك المصدر نفسه، (رد الزعيم على المفوض الفرنسي) ص. 30.
120) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثاني، ص. 193 (المحاكمة الأولى).

- أن يكون صوت الذين لا صوت لهم، عبر استقطاب أوسع شريحة من الطلاَّب والمهنيِّين والحرفيِّين وأصحاب المصالح والذين يريدون حياة حرَّة خارجة عن سيطرة الاقطاع والإرادات الأجنبيَّة.[121]
- كشف فساد الطبقة الحاكمة المتعاونة مع الانتداب وفضحها.[122]
- الاشتراك في جبهة قوميَّة وإقامة تحالفات توحِّد صوت سورية في القضايا القوميَّة.[123]
- أمَّا حيث لا تنجح السياسة، فإنَّ المبدأ السياسي العام الذي أتينا على ذكره يتيح له، بل يحتِّم عليه "رفض أيَّة اتِّفاقيَّات تناقض مصلحة سورية والسوريِّين."[124]

كيف اتَّجه سعادة إلى تحقيق هذه الأهداف؟ شرحنا في مستهلِّ هذا الفصل الإطار العام لإدارة الاستراتيجيَّة عند سعادة وتكلَّمنا عن استخدامه الإدارة والحرب في خدمة السياسة، والإدارة والسياسة لمنع الحرب، والثلاثة معًا لدفع قوَّة الحزب إلى الأمام. بناء على ذلك، نرى التسلسل المنطقي التالي في الأحداث التي رافقت التأسيس.

البناء

بنى سعادة أوَّلاً أساسًا إداريًّا متينًا لحزب عقيدي سرِّي ضمَّ أكثر من ألف شاب وشابَّة من مختلف المناطق والأديان والمذاهب والمستويات الاجتماعيَّة. كان يدرك أنَّ هذا العدد غير كاف ليستطيع الزعم أنَّه يتكلَّم باسم الأمَّة جمعاء، ولكنه كان على ثقة من التفاف السوريِّين حول حركة عامَّة تردُّ كرامتهم وترفع مستوى حياتهم، وتقضي على الفساد الداخلي الذي يمتصُّ حيويَّتهم وتدفع الأخطار الخارجيَّة التي تهدِّدهم. لقد أدرك أنَّ في شعبه معدنًا خالصًا بحاجة إلى مغناطيس قويٍّ ليجذبه، ولكنَّه كان بحاجة إلى مواجهة كبيرة لوضع هذا الإدراك موضع الاختبار. هذه المواجهة سوف تقع يوم انكشاف الحزب، يوم المواجهة الأولى مع الفرنسيين.

المواجهة

لقد كان سعادة يتوق إلى ذلك اليوم، وقيل إنَّه خطَّط له.[125] بغضِّ النظر عن صحَّة هذا الزعم أو عدمه، فما حدث في المحاكمة الحزبيَّة الأولى دليل على استعداد سعادة لذلك

121) المصدر نفسه، ص. 194-195 (المحاكمة الأولى).
122) راجع جدول مقالات سعادة عن الاحزاب الببغائية، (ص 138).
123) كما تشير إلى ذلك محاولاته المستمرَّة مع الكتلة الوطنيَّة إبَّان معركة سلخ لواء الإسكندرون. أنظر أيضًا "البلاغ الأزرق" 15 حزيران، (يونيو)، 1936، ونداءه إلى الأمَّة السوريَّة، تاريخ 1 تموز/يوليو، 1939.
124) المصدر نفسه، ص. 240 (خطاب صافيتا).
125) جريج، جبران، من الجعبة، المجلَّد الأوَّل، بيروت، 1985، ص. 395-396.

اليوم وثقته بنفسه وبحزبه وبتطلُّعه إلى مواجهة المستعمر الفرنسي وجهًا لوجه ليشرح قضيَّته ويكسب عطف الناس وثقتهم وولائهم.

سنتكلَّم بتفصيل عن المحاكمة الحزبيَّة الأولى في الفصل عن "الحرب"، ولكن المهم القول إنَّ سعادة شعر بنتيجة المحاكمة، والعطف الشعبي الكبير الذي شهده الحزب خلال وجوده في السجن مرَّتين سنة 1936، الأولى لمدة ستَّة أشهر، والثانية لمدَّة أربعة أشهر ونيِّف، أنه يستطيع التوجُّه إلى مفاوضة الفرنسيِّين.

المفاوضات

في الجزء الأوَّل من مذكِّراته، عبد الله قبرصي يتذكَّر، يكتب الأمين الراحل عبد الله قبرصي أنَّ سعادة التقى المسؤول السياسي في المفوضيَّة الفرنسيَّة العليا "المسيو كيفر" في مطلع شهر حزيران/يونيو 1936، أي بعد أيَّام من خروجه من السجن الأوَّل.[126] كما يكتب عن هدنة نتيجة التقاء مصالح الحزب ومصالح فرنسا بالنسبة إلى قضيَّة لواء الإسكندرون الذي "كانت تركيا قد بدأت تحرِّك قضيَّته، وفرنسا تريد الاحتفاظ بها سوريَّة لتبقى تحت انتدابها (هكذا) مما سمح للحزب باستراحة من الاضطهاد والملاحقات، اغتنمها سعادة فرصة للقيام برحلة إذاعيَّة – سياسيَّة في طرابلس ومنطقة العلويِّين المتاخمة لإنطاكية والإسكندرون."[127]

في الواقع، هذا القسم من المذكِّرات بحاجة إلى مراجعة نقديَّة لأنَّ الأمين الراحل كتبها من الذاكرة بعد سنين طويلة جدًّا من حدوثها، ولأنَّ سعادة وثَّقها في مقالات له كتبها وقت حدوثها أو بعد مضيِّ سنة على وقوعها بما يخالف ما ذكره الأمين قبرصي، ولأنَّ نظرة سعادة إلى أمور جوهريَّة مثل هذه كانت شموليَّة أكثر بكثير من مجرَّد التقاء على مصلحة واحدة كما سنبيِّن.

سنترك الكلام عن تفاصيل "يوم صافيتا" إلى قسم "الحرب" أيضًا، ولكنَّنا على ثقة من مراجع أخرى متوفِّرة من الأمور التالية:

1. أنَّ سعادة التقى المسيو "كيفر" بعد خروجه من السجن الثاني وليس الأوَّل.[128]
2. أنَّ الهدنة أو "التفاهم" مع الفرنسيِّين لم تبدأ إلاَّ بعد السجن الثالث،[129] أي بعد

126) قبرصي، عبد الله، عبد الله قبرصي يتذكَّر، الجزء الأوَّل، مؤسَّسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت، 1982، ص. 144-145.
127) المصدر نفسه، ص. 152، وص. 154، وص. 157.
128) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السادس، ص. 30 (ردُّ الزعيم على تصريح المفوَّض السامي).
129) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الرسائل، الجزء الثالث، منشورات عمدة الثقافة، بيروت، 1980، ص. 295. أيضًا، الجزء السادس، (مقال جهاد الحزب السوري القومي لتحرير سورية).

جولة صافيتا بحوالي خمسة أشهر، ولم تأخذ مفاعيلها إلاَّ في نهاية سنة 1937.

3. أنَّ سعادة كان يخطِّط لرحلة صافيتا ويعدُّ العدَّة لها ويطلب المعلومات الدقيقة عن القوى السياسيَّة فيها أثناء السجن الأوَّل،[130] أي قبل لقائه المسيو كيفر.
4. على الرغم من اعتبار الأمين الراحل قبرصي رحلة صافيتا كانت نتيجة تلاق بين أهداف الفرنسيِّين وأهداف سعادة، فإنَّ خطابه فيها كان بمعظمه هجومًا على الاقطاع السياسي المتحالف مع الفرنسيِّين.
5. يمكننا من مراجعة تاريخ تلك المرحلة استنتاج أنَّ هذه الرحلة كانت جزءًا من خطَّة هجوميَّة واضحة تهدف إلى استقطاب أكبر عدد من السوريِّين وقيادتهم ودعوتهم إلى التمسُّك بوحدة القضيَّة القوميَّة، كما سنبيِّن لاحقًا.

نكتفي بهذا التصويب الآن وننتقل إلى أهداف سعادة من المفاوضات مع المنتَدِب الفرنسي. ويمكن اختصارها بما يلي:

1. محاولة ردم الفجوة بين نظرة كلٍّ من الانتداب وسعادة إلى سورية.
2. تمييز سعادة نفسه وحزبه من باقي السياسيِّين السوريِّين، فيكون التعامل على أساس إيجاد قاعدة من المصالح المشتركة والتفاوض انطلاقًا منها، عوضًا عن علاقة قائمة على مصالح السياسيِّين المحلِّيِّين الشخصيَّة.

النظرة إلى سورية

النظرة العامة التي حكمت تعامل الفرنسيِّين مع سورية والسوريِّين كانت قائمة على القواعد الفكريَّة والسياسيَّة والعمليَّة التالية:

1. إنَّ سورية ليست سوى بقعة تمر فيها طريق الهند الجديدة وتمتدُّ عليها أنابيب النفط، ووسط من الأوساط الإسلاميَّة تعشش فيه "النفسيَّة الشرقية".
2. بناء عليه فإنَّ الفرنسيِّين يعاملون السوريِّين معاملتهم "سكَّان البلاد الأصليِّين" Autochtones أو Indigènes في مستعمراتهم الأفريقيَّة والآسيويَّة.[131]
3. إنَّ احتكاك الفرنسيِّين مع الطبقة السياسيَّة المتعاملة معها في لبنان والشام زادتهم يقينًا بصحَّة نظرتهم، وزادت احتقارهم للسوريِّين بشكل عام.[132]

130) المهتار، عجاج، أوراق غير منشورة، يوم صافيتا.
131) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السادس، ص. 30 (ردُّ الزعيم على تصريح المفوَّض السامي).
132) لا بدَّ من العودة إلى مذكِّرات إسكندر رياشي التي مرَّ ذكرها لا سيَّما الفصول المتعلِّقة بالكونت دي مارتل وتحكيمه عشيقته بأمور الانتخابات النيابيَّة في لبنان على سبيل المثال لا الحصر. ص. 311-320.

أمَّا منطلق سعادة فكان التالي:

1. إنَّ سورية هي أمَّة لها حقوق سياديَّة مُعترف بها.
2. ليست سورية أمَّة شرقيَّة وليس لها نفسيَّة شرقيَّة. إنَّها أمَّة أوسطيَّة (مديترانيَّة) ولها نفسيَّة التمدُّن الحديث الذي وضعت قواعده الأساسيَّة فيها.
3. إنَّ استخدام الفرنسيِّين لعبارة "السكَّان الأصليِّين" فيه حطٌّ من كرامة السوريِّين ويزيد التناقض الروحي أو النفسي بين **المطامح** السوريَّة الطبيعيَّة و**المطامع** الفرنسيَّة السياسيَّة.
4. قد يكون بعض من يتعامل معهم الفرنسيُّون من "أشخاص المتناقضات" من السوريِّين من إكليريكيِّين وجنود ومثقَّفين وغيرهم، مقتنعين "بالنفسيَّة الشرقيَّة". أمَّا العقليَّة السوريَّة الصحيحة الممثَّلة في النهضة السوريَّة القوميَّة، فتعدُّها تهجُّمًا على كرامة الشعب وترفضها رفضًا باتًا.[133]

من الوثائق المتوفِّرة لنا، نتتبَّع الخطوات التي قام بها سعادة والحزب مع الفرنسيِّين.

- انكشاف الحزب، والمحاكمة الأولى، والسجن الأوَّل والثاني.
- طلب المسيو "كيفر" من الغرفة السياسيَّة الفرنسيَّة لقاء مع سعادة بعد السجن الثاني.
- أيَّام صافيتا وتلكلخ وعماطور وبكفيًّا.
- السجن الثالث بعد أيَّام من مهرجان بكفيًّا.
- تفاوض مع المندوب العام للمفوض السامي السيِّد "ميريه" الذي أرسل تقريرًا مفصَّلاً عن لقائه سعادة إلى الخارجيَّة الفرنسيَّة.[134]
- لقاء مجاملة مع المندوب السامي نفسه.[135]

يبيِّن الجدول التالي الأهداف التي كانت لدى كلٍّ من سعادة والانتداب من هذه المفاوضات:[136]

133) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السادس، ص. 30 (ردُّ الزعيم على تصريح المفوَّض السامي).
134) جريج، جبران، من الجعبة، المجلَّد الثالث، بيروت، 1985، ص. 242-244.
135) المصدر نفسه، ص. 282-283.
136) المصدر نفسه، ص. 238.

الهدف	النتيجة	ملاحظات
أهداف سعادة من المفاوضات مع السلطات الفرنسيَّة والحكومة المحليَّة		
الهدف	**النتيجة**	**ملاحظات**
حريَّة العمل الحزبي	نال وعدًا بالسماح للحزب في العمل ولكن دون علم وخبر.	رفع الختم بالشمع الأحمر عن مركز الحزب.
إصدار جريدة تكون لسان حال الحزب.	نال وعدًا بذلك.	صدرت النهضة، في تاريخ 1937/10/14
منحه جواز سفر.	تمَّت الموافقة.	كان سعادة يخطِّط لجولة إلى المغتربات
مَنْحُ عفوٍ عن الدعاوى بحقِّ الحزب.	أوقفت ولكن بقي القضاء مسلطًا فوق رأس الحزب.	راجع التفاصيل أدناه.
أهداف الانتداب والحكومة من المفاوضات مع سعادة		
الهدف	**النتيجة**	**ملاحظات**
اعتراف باستقلال لبنان.	رسالة يتعهَّد فيها سعادة بعدم العمل لهدم الكيان اللبناني.	نصُّ الوثيقة: أنا، أنطون سعادة، أؤكِّد أنَّ المبادئ القوميَّة هي عقيدة علميَّة، تعمل في سبيل تحقيق وحدة المجتمع ولا تعمل على هدم الكيان اللبناني.[137]
دعم الحزب للحكومة في الانتخابات المقبلة.	لم يبتّ سعادة في الموضوع فوراً.	استمرَّت المفاوضات حتَّى تشرين أوَّل/ أكتوبر 1937، وأعطى سعادة دعمًا مشروطًا لقائمة الحكومة، يحتفظ معه بحق معارضة أي مشروع يرى الحزب أنَّه ليس في مصلحة الأمَّة والوطن.[138]

137) المصدر نفسه.
138) شيبوب، إدفيك، رسائل حب، بيروت 1997، ص. 25.

نستخلص ممَّا تقدَّم أنَّ سعادة حقَّق معظم أهدافه السياسيَّة عبر نوع من لعبة "القطِّ والفأر" مع الانتداب والحكومة. حين وافق الفرنسيُّون على إطلاق سراحه في 15 أيَّار/ مايو 1937، اعتبروا ذلك إجراءًا مؤقَّتًا ومشروطًا،[139] أي إبقاء سيف الاعتقال مسلطًا على رأسه. أمَّا الوثيقة التي وقَّعها سعادة، فقد اعتبرها الانتداب في تقريره إلى الخارجيَّة الفرنسيَّة "اعترافًا منه باستقلال لبنان." وحين طالب سعادة السيِّد "كيفر" أن يضعا "قواعد للتفاهم" كان جوابه: "إنَّ أبواب المفوضيَّة مفتوحة دائمًا لاستقبالكم." وهذا ما فسَّره سعادة أنَّه مناورة تعني تسليط الحكومة المحليَّة على الحزب بحيث لا يكون أمامه سوى الالتجاء إلى أبواب المفوضيَّة "المفتوحة" شرط الإذعان لشروطها.[140] وهذا ما أكدته الأحداث إذ هدَّدته الحكومة المحليَّة بتحريك الدعاوى القضائيَّة ضدَّه إن لم يعلن تأييده لها في الانتخابات كما أشرنا إلى ذلك في الجدول أعلاه.

أمَّا سعادة، فمع تأييده الحكومة في الانتخابات، فقد شنَّ عليها وعلى المعارضة في آن معًا هجومًا قاسيًا جدًّا في سلسلة مقالات "الأحزاب الببغائية" التي نُشرت في مجلَّة النهضة التي منحته تلك الحكومة ترخيصًا لها.

في المحصِّلة الأخيرة، كان سعادة على استعداد لتوسيع الهدنة مع الفرنسيِّين إلى تفاهم حقيقي معهم واعتبارهم "أصدقاء" والاستفادة من الانتداب، شرط اعتراف فرنسا بحقوق سورية. هذا ما دفعه إلى القيام بزيارة تهنئة إلى قصر المندوب السامي، الكونت "دي مارتل"، بمناسبة الرابع عشر من تموُّز/ يوليو، 1937، يوم العيد الوطني الفرنسي، ودار بينهما حديث مقتضب وجَّه فيه "دي مارتل" سؤالاً إلى سعادة مفاده: "زعيم معناه قائد، فإلى أين تريدون أن تقودونا؟" كان جواب سعادة جواب قائد: "إنَّنا نفضِّل التفاهم على أساس الاعتراف بحقِّنا." ولكن "دي مارتل" الذي أبدى رغبته في الوصول إلى تفاهم، عاد فوضع سياسة الفصل بين المصالح المشتركة وسياسة الاهتمام بالامتيازات الماليَّة والحربيَّة والاقتصاديَّة، ما دفع سعادة إلى التأكُّد أنَّ التناقض بين الانتداب وسورية ما زال قائمًا. هذا التناقض سوف يستمر مع المفوض التالي الذي تبع دي مارتل، السيِّد "بيو"[141]، ممَّا يثبت قول سعادة في رسالته إلى حميد فرنجيَّة: "وإذا كانت المسألة القوميَّة تتجه بطبيعتها إلى تنازع البقاء بين السيادة القوميَّة والانتداب فذلك أمر من طبيعة القوميَّة وطبيعة الانتداب."[142]

139) جريج، جبران، من الجعبة، المجلَّد الثالث، بيروت، 1985، ص. 242-244.
140) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السادس، ص. 67 (نداء الزعيم إلى الأمَّة السوريَّة).
141) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السادس، ص. 30 (ردّ الزعيم على تصريح المفوض السامي).
142) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الثانية.

الحكومات المحليَّة والكيانات السياسيَّة

لا يمكن الكلام عن المفاوضات السياسيَّة مع الانتداب دون الكلام عن موقف الحزب من الحكومات التي كانت تحكم في كلٍّ من لبنان والشام في ظلِّ الانتداب. هذه الحكومات كانت تتفاوض مع الانتداب على "الاستقلال" وتحارب الحزب تارة باسمه وتارة أخرى باسمها. وسنأخذ وثيقتين من تلك المرحلة تلخِّصان مجريات الأحداث آنذاك وانعكاسها على المصالح القوميَّة والأهداف التي أراد سعادة تحقيقها والأسلوب الذي اتَّبعه في ذلك بما يؤكِّد على مبدأ المرونة والمبدئيَّة في الشأن السياسي. الوثيقتان هما: "البلاغ الأزرق" تاريخ 15 حزيران/يونيو 1936، ورسالته إلى القوميِّين تاريخ 16 تشرين ثانٍ/نوفمبر من السنة نفسها.

"البلاغ الأزرق"، وزَّعه الحزب بعد انتهاء المفاوضات بين المندوبين السوريِّين والفرنسيِّين سنة 1936، التي أُخرجت فيها المسألة اللبنانيَّة نهائيًّا من المفاوضات. يشرح سعادة الجهود التي بذلها مع "الكتلة الوطنيَّة" بحيث توسِّع دائرة نظرها فتشمل القضيَّة القوميَّة كلَّها، أو ما يقع منها ضمن منطقة الانتداب الفرنسي، فلا تُفصل المسألة اللبنانيَّة عن القضيَّة السوريَّة. كُتب البيان بصيغة واقعيَّة ومبدئيَّة في آن معًا: هو يعترف أنَّه ليس من الضروري تحقيق كلِّ الوحدة السياسيَّة في المرحلة الأولى، لكنَّه في الوقت نفسه، يصرُّ على تحقيق الوحدة القوميَّة، ويعلن أنَّ القوميِّين متربِّصون ويراقبون التطوُّرات السياسيَّة:

إنَّ الفرصة كانت سانحة لبحث قضيَّة سورية المشمولة بالانتداب الفرنسي بكاملها بعد أن أوجدت نهضة الحزب السوري القومي الاجتماعي كلّ الوسائل العمليَّة الممكنة لتوحيد الجبهة وتمثيل لبنان والشام في قضيَّة واحدة يمكن أن تحلَّ بطريقة تكفل استمرار التطوُّر نحو الوحدة التامَّة الوثيقة.

... وكنَّا حريصين على أن لا تسير المفاوضات من غير أن تتناول اعتبار لبنان جزءًا من البلاد السوريَّة له الحقُّ بالدخول في الوحدة السوريَّة حين تقرِّر أكثريَّته ذلك...

... إنَّ السوريِّين القوميِّين الاجتماعيِّين يقولون بتوحيد قضيَّة سورية المشمولة بالانتداب الفرنسي توحيدًا **ليس بالضروري أن يحقق كلَّ الوحدة السياسيَّة في المرحلة الأولى، ولكنَّه يجب أن يحقِّق وحدة القضية القوميَّة في كلِّ حال**، ووحدة كبيرة من الشؤون السياسيَّة والاقتصادية وتمثيلاً واحدًا مشتركًا في المفاوضات.

... إنَّ السوريِّين القوميِّين الاجتماعيِّين يقولون أيضًا إنَّ قضيَّة سورية المشمولة بالانتداب البريطاني هي قضيَّة سورية عامَّة. وإنَّنا نزعم وزعمنا حق، أنَّ وعد بلفور وعد سياسي لا

حقوقي وأنَّه ليس لليهود حقوق خاصَّة أو عامَّة في أيَّة أرض سوريَّة.

... ومهما كانت الحلول الممكنة أو غير الممكنة قريبة التحقيق للقضايا العارضة في سورية بكاملها فإنَّ السوريِّين القوميِّين الاجتماعيِّين يتربَّصون ويراقبون التطوُّرات السياسيَّة برباطة جأش وروية ويتأهَّبون لإسماع صوتهم عند الضرورة.[143]

هذا الموقف المتين دفع مجلَّة البرلمان العربي إلى القول سنة 2002:

عملت الكتلة الوطنيَّة للأحزاب البرجوازيَّة الوطنيَّة الإصلاحيَّة التي نشأت في سورية عام 1928 على إحراز سيادة ووحدة سورية ضمن حدودها الجغرافيَّة وعقد اتفاقيَّة سوريَّة – فرنسيَّة تحدِّد التزامات الطرفين وإلغاء الإدارة المباشرة والامتناع عن التدخُّل في الشؤون الداخليَّة للبلاد وإعلان عفو عام عن السجناء السياسيِّين وتكوين جيش وطني وإطلاق الحرِّيَّات العامَّة وإلغاء القوانين الاستثنائيَّة وغير ذلك. **وشكَّل موقفًا أكثر حزمًا الجناح المتطرِّف للقوميِّين السوريِّين المتمثِّل في الحزب السوري القومي** الذي تأسَّس عام 1932.[144]

أمَّا الرسالة إلى القوميِّين فإنَّها تجمع النقاط الأساس الواردة في "البلاغ الأزرق" وتضعها في المبدأ السياسي آنف الذكر وتشرحه: "عدم تجاهل الأمر الواقع حين معالجة القضايا السياسيَّة وعدم الخروج على هدفنا ومبادئنا." كما تتضمَّن تصوُّرًا لكيفيَّة التعامل مع واقع الكيانات السياسيَّة التي استحدثها الانتداب، وردًّا على حملة التأويل المغرضة التي تناولت ما ورد في "البيان الأزرق". تقول الرسالة:

إنَّ الأمر الواقع يقسِّم سورية إلى عدَّة مناطق أقرَّها الاعتراف الإنترنسيوني، وأوجد منها معضلة في الحقوق القوميَّة والإنترنسيونيَّة تحتاج إلى كلِّ ما في نهضتنا من مرونة سياسيَّة وشكليَّة لحلِّها.

... إنَّ مطالب العمل السياسي لفروع الحركة السوريَّة القوميَّة المنتشرة في لبنان والشام وفلسطين وشرقي الأردن والعراق وضرورة الاهتمام بالعمل السياسي العلني توجب علينا الاهتمام بالبرامج السياسيَّة الخاصَّة التي يجب أن تقرِّر لكلِّ فرع من فروع الحركة السوريَّة القوميَّة بطريقة يمكن معها العمل للغاية الكبرى بدون تعريض سلامة الحركة للخطر.

... إنَّ خطة إيجاد برنامج خاص بكلِّ فرع من فروع الحركة السوريَّة القوميَّة الاجتماعيَّة تسهِّل له العمل ضمن أوضاع الحال الراهنة وتنقذه من سوء فهم قضيته هي الخطَّة التي يجب علينا أن نهتمَّ بها لأنَّها الخطَّة العمليَّة التي مشينا عليها.

143) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثالث، ص. 220 (البلاغ الأزرق).
144) مجلَّة البرلمان العربي، السنة الثالثة والعشرون – العدد الرابع والثمانون: آب/أغسطس 2002.

إنَّ خصوم الحركة القوميّة لا يعدمون أن يجدوا في كلِّ خطَّة سياسيَّة فنيَّة من خطط الحركة موضعًا للتأويل. فمنعًا لأي التباس، نصرِّح أنَّ مبادئنا ستظلُّ هي هي، وبأنَّ **كلَّ برنامج سياسي فرعي سيكون مؤسَّسًا على هذه المبادئ ومستمدًا منها.**[145]

هذه القاعدة الأخيرة – قاعدة بناء البرامج الفرعيَّة استنادًا إلى المبادئ الأساسيَّة – أي قاعدة التراصف بين الأهداف والمواضيع الاستراتيجيَّة، وبين هذه وغاية المؤسَّسة ونظرتها هي ما ركَّز سعادة عليه في عمله السياسي وما افتقده في "الواقع اللبناني" كما افتقده الحزب في أكثر من محطَّة من تاريخه.

المبادرات الإنترنسيونيَّة

إنَّ سياسة الحزب السوري القومي هي سياسة سوريَّة قوميَّة مستقلَّة غير مختلطة مع أيَّة سياسة أجنبيَّة، كما هو مبيَّن ومشروح في مبادئ الحزب وخطب الزعيم ومقالاته.[146]

بهذا الكلام التوجيهي تاريخ 10 تشرين ثان/نوفمبر 1939، خاطب سعادة رئيس تحرير صحيفة "سورية الجديدة" ومجلس إدارتها التي أسَّسها في البرازيل بعد هجرته القسريَّة سنة 1938. وكان سعادة قد أسَّس الصحيفة بموجب اتِّفاق بينه وبين السيِّدين فؤاد وتوفيق بندقي، بحيث يتولى الحزب الناحية الروحيَّة (الفكريَّة والإنشائيَّة) من المشروع، والسيِّدان بندقي الناحية الماديَّة.[147]

لا يفوت مَن يقرأ عشرات الرسائل التي أرسلها سعادة إلى الأخوين بندقي وإلى مجلس الإدارة، أنَّه كان يرى شططًا، لم يكن راغبًا فيه، في مقالات الصحيفة باتِّجاه دول المحور. أهميَّة هذه الرسائل أنَّها تلقي الضوء على توجيهات سعادة في هذا الخصوص، وتعطينا نظرة عميقة عن منهجيَّته في السياسة الدوليَّة المنسجمة تمامًا مع مضمون خطابه المنهاجي الأوَّل سنة 1935، الذي حذَّر فيه من الدعاية الأجنبيَّة. فلنتابع توجيهات سعادة إلى مجلس الإدارة:

1. سياسة الحزب القومي ليست فاشيَّة.
2. سياسة الحزب القومي ليست نازيَّة.
3. سياسة الحزب القومي ليست "ديمقراطيَّة".
4. سياسة الحزب القومي ليست شيوعيَّة أو بلشفيَّة.

145) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثاني، ص. 234، (رسالة إلى القوميِّين الاجتماعيِّين).
146) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السادس، ص. 261. (إلى رئيس وأعضاء مجلس إدارة سوريَة الجديدة).
147) المصدر نفسه، ص. 263.

5. سياسة الحزب السوري القومي سياسة لا تخضع لغير المبدأ الثامن من مبادئه الأساسيَّة القائل: "مصلحة سورية فوق كلِّ مصلحة."[148]

يتابع سعادة تعليماته من التعميم إلى التخصيص، فيحدِّد موقف الحزب من فرنسا كما يلي: **الحملة عليها وعلى سياستها في سورية بدون إقفال كلِّ باب بل يقصد حملها على الاقتراب من الحزب.** ولكي لا يَترك أيُّ مجال للالتباس يضيف:

موقف الحزب السياسي الحالي من محور روما برلين يقصد منه، في الدرجة الأولى، التأييد إلى حدٍّ محدود بقصد توليد ضغط كافٍ على فرنسا وبريطانيا يجعلهما تغيِّران موقفهما السلبي من سورية ونهضتها القوميَّة **لا بقصد الثقة بسياسة المحور المذكور** وإفناء فرنسا وبريطانيا.[149]

عبارة "لا بقصد الثقة بالمحور المذكور" جديرة بالتوقُّف عندها.

لم يكن سعادة يتوخَّى استبدال محتلٍّ أجنبيٍّ بأجنبيٍّ آخر، وإنَّما الخلاص من الاحتلال الأجنبي والإرادات الأجنبيَّة. ومن المرجح أنَّه كان يرى الخلاص من دولتين استعماريَّتين قديمتين، إحداهما على الأقلِّ ضعيفة ومفكَّكة حتَّى قبل دخولها الحرب، ونعني فرنسا، أسهل من الخلاص من احتلال جديد ألماني أو فاشي، كان يرى خطورته:

ولو كان تمَّ الانتصار لألمانيا في الحرب التي مضت كنَّا رأينا تكتيك التسلُّط على الجماعات القوميَّة بأجمل وأقوى وأروع وأقبح صورة يمكن أن ترسم لها. إنَّ اتِّجاه ألمانيا هو أن تكون هي المركز الصناعي الأكبر الذي تحيط به مراكز زراعيَّة محض تحرم باتِّفاقات انترنسيونيَّة من حقِّ إنتاج صناعي ثقيل، وأن تنصرف للزراعة بآلات ألمانيَّة تعطيها بدلها المحصولات الزراعيَّة.[150]

مع أن سعادة وصف ألمانيا بهذا الكلام سنة 1948، فلا شكَّ عندنا أنَّه كان يرى هذا الاتِّجاه قبل الحرب وأثناءها، ولم يكن لديه شك في نوع العبوديَّة التي كانت ستمارسها ألمانيا على سورية فيما لو انتصرت في الحرب.

من هذا الشرح المتقدِّم، نفهم سبب زيارة سعادة إلى ألمانيا بعد مغادرته الوطن. إنَّها تأتي في سياق المفاوضات التي كان قد بدأها مع الفرنسيِّين، وضرب بها الفرنسيون عرض الحائط. فقد كان يهدف من الزيارة الضغط على الفرنسيِّين للعودة إلى طاولة

148) المصدر نفسه ص. 261.
149) المصدر نفسه، ص. 262.
150) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الثامنة.

المفاوضات، أكثر من تقديم ولاء لألمانيا.

نختم هذا القسم بكلام سعادة إلى جبران جريج بعد مفاوضاته مع الفرنسيِّين سنة 1937، والتي انتهت بالتفاهم مع الانتداب والحكومة:

> **إنَّ الزعيم عنيد ومتصلِّب في الرسالة والعقيدة. أمَّا فيما يخدم هذه الرسالة وهذه العقيدة فالموضوع خاضع للأخذ والرد.**[151]

الخطر العربي والمصري

لعلَّ أهم ما ميَّز سعادة من جميع معاصريه هو عدم تزييفه الحقائق أو تزيينها بل عرضها كما كان يراها. وأحد الحقائق التي رآها منذ ما قبل تأسيسه الحزب كانت خطر وضع الدول العربيَّة المجاورة يدها على بعض مسائل سورية الداخليَّة ومقايضتها في سبيل مصالحها الخاصَّة، أو ما هو أدهى. وضع يدها على بعض الأراضي السوريَّة نتيجة تفكُّك سورية وضعفها وعجزها عن تعيين حقوقها ومصالحها والدفاع عنها، والاستعانة في سبيل ذلك بسوريِّين لتسهيل أيٍّ من الأمرين أو الترويج لهما.

ولا يسع المراقب اليوم إلاَّ أن يعجب بمقدار تمسُّك مصر والسعوديَّة مثلاً، بوحدة الشخصيَّة القوميَّة لكلٍّ منهما وحقوقها ومصالحها وعدم السماح إطلاقًا لأيِّ طرف عربي، بما فيه جامعة الدول العربيَّة التدخُّل في أيٍّ من شؤونهما الداخليَّة، إزاء تخلِّي السوريِّين عن مسؤوليَّتهم حيال فلسطين والسماح لها أن تصبح قضيَّة "عربيَّة" لمصر فيها أو للسعودية ما لسورية وأكثر.

من جهة ثانية، يذهل المراقب لرؤية دولة عربيَّة كبرى مثل مصر، تمارس حصارًا تجويعيًّا على قسم من الجنوب السوري، غزَّة، سنة 2009، دون وجود هيئة سوريَّة قادرة على وضع حدٍّ لذلك قانونيًّا وعمليًّا. فإذا حاولوا، ألقي القبض عليهم بتهمة "الإرهاب والتآمر" على النظام المصري.

هل هناك من مبدأ عام نستطيع استشفافه من السياسة الخارجيَّة لكلٍّ من مصر والسعوديَّة حيال سورية الطبيعيَّة، بلاد الشام والرافدين؟

مصر

يمكن القول إنَّ مصر تعتبر فلسطين حديقتها الخلفيَّة أو منطقة عازلة بينها وبين بلاد الشام. ذلك أنَّ الصراع بين المنطقتين يعود إلى فجر التاريخ. تقوى الإمبراطوريَّات

151) جريج، جبران، من الجعبة المجلد الثالث، بيروت، 1985، ص. 239.

السوريَّة، مثل الهكسوس في التاريخ القديم، أو الأيوبيِّين في العصر الحديث، فتزحف جنوبًا وتعبر نهر النيل إلى مصر، وتحتلُّ أقسامًا منها وتقيم لها حكمًا فيها. أو تقوى مصر، فتعبر النيل وتزحف شمالاً إلى سورية، مثل رعمسيس الثاني في العصر القديم، أو إبراهيم باشا في العصر الحديث، وتحتلُّ أقسامًا منها.

الشرط الضروري لقيام الإمبراطوريَّة في كلا البلدين هو وحدتها الداخليَّة. إذن يمكننا القول إنَّ إبقاء البلد الآخر مقسَّمًا وضعيفًا هو هدف استراتيجي في ظلِّ النظرة التاريخيَّة السياسيَّة التي تحكم البلدين.

الجزيرة العربيَّة

أمَّا الجزيرة العربيَّة، فإن المبدأ العام الذي يمكن استنتاجه عن سياستها منذ انتقال قاعدة الحكم بعد الإسلام منها إلى دمشق الأمويِّين، فبغداد العباسيِّين، فقاهرة الفاطميِّين، فاسطنبول العثمانيِّين، هو استعادة مركز "القيادة الإسلاميَّة". الشرط الضروري لتحقيق هذا المبدأ هو وحدة الجزيرة الداخليَّة وقوَّتها بحيث لا يتمكَّن جيرانها من تهديد مكانتها أو الاستيلاء على دورها. ويمكن إضافة مبدأين آخرين بعد أن هزم الملك عبد العزيز بن سعود الشريف حسين بن علي الهاشمي، وبعد ظهور النفط في الجزيرة: الأوَّل، بعد تعيين اثنين من أبناء الشريف حسين "ملوكًا" على الأردن والعراق، منع قيام وحدة هاشميَّة تهدِّد الوحدة السعوديَّة، وبالتالي تعطيل أيَّة إمكانيَّة للوحدة بين شرق سورية وغربها، بين العراق والأردن وسورية ولبنان وفلسطين، كما سنبيِّن لاحقًا.

أمَّا الثاني، فهو حماية الثروة العربيَّة الجديدة، النفط، عبر تحالف مع الولايات المتَّحدة، وما سوف ينتج عن هذا التحالف من مقايضة للتأثير السعودي في مسألة فلسطين، بما يخدم الولايات المتَّحدة ومن خلالها إسرائيل.

هذه هي المبادئ العامَّة التي كانت تسود العلاقة بين هذه الأمم الثلاث، ونستطيع القول، ووراءنا عقود من التجارب المرَّة على سورية ومصالحها، إنَّها ما تزال سائدة اليوم.

بين التزاحم والتعاون

حاول سعادة تغيير هذه العلاقة إلى أخرى إيجابيَّة تقوم على مبدأ التعاون العربي، لا سيَّما في وجه الأخطار التي رآها لا ريب آتية بين الحربين الكبيرتين، فوضع في صلب غاية الحزب بند: "السعي لإقامة جبهة عربيَّة" تكون سدًّا ضدَّ الاستعمار وتنظِّم العلاقات القائمة على تبادل المصالح بين هذه الأمم، ففشل.

من هذه النظرة العقلانيَّة الهادئة للعلاقات القوميَّة والمصالح، انطلق سعادة في وضع سياسته مع العالم العربي، فنبَّه للخطر العربي على سورية من جهةٍ، ولكنه دعا للتعاون بينها وبين العالم العربي من جهةٍ ثانية.

بدأ انتباه سعادة للخطر العربي والمطامع العربيَّة والمصريَّة في سورية منذ بداية وعيه السياسي. ففي مقالة له نُشرت في مجلَّة "المجلَّة" سنة 1924، يكتب عن سعود بن عبد العزيز الأوَّل الذي هدَّد الدولة التركيَّة في سورية والعراق وبلغت حدود سلطنته سنة 1809، صحراء سورية." [152]

ثمَّ يكتب سنة 1937، في مقال بعنوان "العقبة بين سورية والمملكة العربيَّة" منبِّهًا فيه إلى مطامع عبد العزيز بن سعود في خليج العقبة، ويحلِّل أسباب ذلك لأهميَّة هذا الخليج التجاريَّة والحربيَّة، ولقربه من المملكة العربيَّة. ويضيف سعادة بأنَّ خطر المملكة على سورية لا ينحصر في خليج العقبة وحده، بل يمتدُّ إلى سورية كلِّها بسبب الحاجة إلى الموارد التي بدونها لا تستطيع الثبات في الملك بل تتفكَّك وتنهار. وحيث أنَّ الدعوة إلى الفتح في بلاد العرب لا تقوم على فهم عوامل الحاجة الاقتصاديَّة والاستعمار، لجأ إلى عامل العصبيَّة الدينيَّة الوهَّابيَّة "المعادية للسنَّة والشيعة والتمدُّن المسيحي الإسلامي." [153]

ومن الأساليب التي لاحظ سعادة استعمال ابن سعود لها، أسلوب شراء الدعاة في سورية بين السياسيِّين الرسميِّين وغير الرسميِّين وأساتذة المدارس الذين ينشرون الدعاية له باسم "الوحدة العربيَّة" ويتزاحمون في ذلك مع دعاة ملك العراق وصنائع السياسة العراقيَّة. [154]

في الواقع، كانت الدعاوة تلك على أشدِّ ما تكون من التزاحم بين المملكة العربيَّة والعراق بحيث لفتت انتباه إسكندر رياشي، فكتب أكثر من مقال في كتابه، قبل وبعد، عن ذلك التنافس وعن تسابق السياسيِّين اللبنانيِّين لكسب ودِّ هذا الطرف أو ذاك. لكن العبارة التي تختصر سياسة المملكة العربيَّة تجاه سورية هي التالية:

> وطبعًا وجدت السياسة السعوديَّة التي كانت على تزاحم متتابع مع العراق أن تكون حاضرة أيضًا ببيروت لئلاَّ تنفرد السياسة العراقيَّة في النهضة التحريريَّة القائمة بلبنان، والتي أخذت جميع مظاهرها تقول بفوزها القريب جدًّا، لا سيَّما وهي قد تخلق للعراق اتصالاً سياسيًا مع لبنان مما يخالف سياسة ابن السعود الأساسيَّة، **التي اشتغلت دومًا لمنع كل**

152) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الأوَّل، ص. 189 (الفاتح العربي الجديد).
153) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثالث، ص. 131-132 (العقبة بين سورية والمملكة العربيَّة).
154) المصدر نفسه.

> **تقارب بين العراقيِّين والسوريِّين والأردنيِّين ودون اتِّصالهم ووحدتهم وعلى الأخص اتِّصالهم ووحدة لبنان معهم.** [155]

إذًا، في حين تدعو السياسة السعوديَّة إلى "وحدة عربيَّة وعصبيَّة وهَّابيَّة"، تعمل كل ما في وسعها لمنع أيِّ التقاء عراقي سوري أردني لبناني!

ويكتب سعادة في مقال بعنوان: "الآن فرصتكم"، في 1 أيلول/سبتمبر، سنة 1940، يردُّ فيه على الذين اعتقدوا أنَّ فرصة الحزب قد حانت بسبب انشغال فرنسا وبريطانيا بالحرب الكبرى، فيذكِّر بذيول ثورة 1936، في فلسطين وتدخُّل "ملوك العرب" في تلك السنة لتجريد الثورة من سلاحها من أجل المساومات بين أولئك الملوك وبريطانيا العظمى. [156]

في برودة سعادة الواقعيَّة وفي عمله وفق مبدأ "مصلحة سورية فوق كلِّ مصلحة"، لم يكن ليهوِّن الخطر على سورية فيما لو نطق بالعربيَّة أم بالتركيَّة أو بأيَّة لغة أخرى. فتراه يذكر في المحاضرة الأولى في 25 كانون ثانٍ/يناير سنة 1948، كيف تبادل السفيران المصري والتركي الأنخاب بعد انتزاع الإسكندرون من سورية وإعطائها للأتراك. ويسأل في المحاضرة نفسها، قبل أشهر من انهيار فلسطين: "مَن الذي يكفل لنا أنَّ العمل صار بإخلاص من جميع الجوانب التي تدخَّلت في القضيَّة لمصلحة فلسطين والأمَّة السورية؟" [157]

ويستطرد، فيبدي شكَّه في كون السعوديَّة جادَّة في الدفاع عن فلسطين للغاية نفسها التي يريدها السوريُّون. ويتكلَّم عن دلائل تعزِّز اعتقاده بأنَّ "مصالح ماديَّة هامَّة تمكَّنت المملكة العربيَّة السعوديَّة من الحصول عليها بطرق المساومات على كيفيَّة تقرير مصير فلسطين... كما أنَّ المصريِّين نظروا إلى فلسطين من وجهة نظر مصريَّة بحتة." [158]

تشتدُّ وتيرة هجوم سعادة سنة 1948 على الدول العربيَّة، وتحديدًا على مصر والسعوديَّة، وعلى العقليَّة "العروبيَّة" التي أوصلت فلسطين إلى مأساتها آنذاك، فيتكلَّم في مقالة "العروبة أفلست" عن أنَّ مصر كانت نظريًّا تحارب مع السوريِّين ضدَّ اليهود، في حين أنَّها كانت عمليًّا، تشاطر اليهود احتلال أرض سورية. [159]

مقابل هذه النظرة السلبيَّة، كان سعادة يرى أهميَّة تعاون الدول العربيَّة لصدِّ الإرادات

155) رياشي، إسكندر، قبل وبعد، ورؤساء لبنان كما عرفتهم، دار أطلس، دمشق، 2006، ص. 243.
156) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السابع، ص. 62 (الآن فرصتكم).
157) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة الثالثة.
158) المصدر نفسه.
159) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السادس عشر، ص. 16.

الأجنبيَّة الطامعة بالأراضي والموارد العربيَّة. لكنَّه كان يرى استحالة ذلك إن لم تنهض كلُّ أمَّة بنفسها أوَّلاً ليكون لديها شيء تقدِّمه للعالم العربي في جبهة موحَّدة. كما كان يرى خطر بقاء سورية ضعيفة ومفكَّكة إذ أنَّ ذلك سوف يجعلها عرضة لتجاذب الدول الكبرى الأقوى. لذا، كانت دعوته وإلحاحه إلى السوريِّين أن يضطلعوا بمسؤوليَّاتهم تجاه قضيَّتهم ووحدتهم ومصالحهم أوَّلاً.

هل وضع سعادة مبادرات عمليَّة لتثبيت دعوته هذه كمذكِّرات إلى القوَّتين العربيَّتين الأقوى مصر والسعوديَّة، أو اتِّصالات سياسيَّة معهما بغية شرح مفاهيمه وتوضيح نظرته؟ ليس بين يدينا ما يشير إلى ذلك سوى إشارة بسيطة في شرح المحاضرة العاشرة عن النظرة العالية الموجودة في بعض العواصم العربيَّة عن الحزب وعن طلب – من جهات غير محدَّدة – أن يلعب الحزب دورًا كبيرًا في تنظيم شؤون العالم العربي شرط قول الحزب بالعروبة. قد تكون هذه العبارة وليدة محادثات مع جهات مسؤولة في مصر إبَّان مروره فيها في رحلة العودة من مغتربه القسري. رفض سعادة هذا الطرح لسببين: أوَّلاً رفضه وضع الحدس والتخمين موضع العلم والحقيقة، وثانيًا انشغاله بالهمِّ السوري.

هل يمكن أن نعتبر عدم توجُّه سعادة في مبادرات إلى الدول العربيَّة والمسؤولين فيها تقصيرًا أو خطأ؟ مَن يدري. لكنَّنا نستطيع تقديم تبريرٍ – ولا نقول عذرًا – ذي شقَّين. الأوَّل عامل الوقت والضغط السياسي. فمن مراجعتنا جدول أهمِّ المحطَّات التي رافقت مرحلة التأسيس بين 1932- 1938، نجد أنَّ سعادة أمضى حوالي السنة في السجون، والباقي في تأسيس البنيان الحزبي وترميمه. أمَّا بعد عودته سنة 1947 من مغتربه القسري، لِتسع سنوات، فقد أمضى الأشهر الستَّة الأولى مطاردًا من القضاء اللبناني، وفي الوقت نفسه مواجهًا أكبر أزمة حزبيَّة داخليَّة انتهت بطرد بعض كبار المسؤولين فيه، ثمَّ اضطراره إلى تمضية قسم كبير من وقته لترميم الحزب من جديد، وإعادة شرح مفاهيمه. مذ ذاك، تسارعت وتيرة الأحداث في الجنوب، وانتهت بخسارة فلسطين، ثمَّ حرب الدولة اللبنانيَّة عليه التي انتهت باستشهاده سنة 1949.

أمَّا الشقُّ الثاني، وهو الأدهى، فكان عدم توحُّد السوريِّين في قضيَّتهم، وانجرار قسم كبير منهم وراء الدعاوة "للوحدة العربيَّة" المموَّلة من السعوديَّة ومصر، وقد صوَّرت سعادة عدوًّا للعرب والمسلمين، ووجدت لها تجاوبًا عاطفيًّا باسم اللغة أو الدين. بالتالي، لم يكن بإمكانه مخاطبة المسؤولين العرب باسم السوريِّين، بينما كان قسم كبير من السوريِّين يطالب هؤلاء المسؤولين العرب بالتدخُّل في شؤون سورية و"إنقاذ فلسطين".

الفصل الرابع: في الحرب

"لأنَّ بكفيًا كلُّ هذا..."

مدخل

لسعادة في الحرب استراتيجيَّة واحدة هي الهجوم. وهو في ذلك ينسجم مع أولى القواعد العسكريَّة التي تقول باستحالة تحقيق النصر من موقع الدفاع. شرح سعادة نهجه الهجومي في مقالات وخطب عديدة. ولكن أيَّ نوع من الحرب خاض، وأيَّ نوع من الهجوم؟

في مقال له بعنوان "سلاحا الحرب بين الحزب السوري القومي وأعداء الأمَّة" نُشر في صحيفة "سورية الجديدة"، في 10 شباط/فبراير 1940، يشرح سعادة نوع الحرب التي خاضها الحزب في بداية عهده، يقول:

> كلُّ حرب تنشب لا بدَّ لها من سلاحين: معنوي ومادِّي. ولأنَّ القوَّة الروحيَّة هي القوَّة الأساسيَّة الفاعلة في حركة الحزب السوري القومي، فنوع الحرب في هذا الطور الأوَّلي، لا بدَّ من أن يكون روحيًّا. فالحرب إذًا حتَّى الآن تعتمد على السلاح المعنوي. **يمثِّل الحزب السوري القومي في هذه الحرب القوَّة المهاجمة، وسلاحه المناقب القوميَّة** التي ولَّدها وبثَّها في الشعب السوري ورفع مقدرته الروحيَّة إلى درجة عالية جدًّا. وبهذا السلاح، صار الحزب السوري القومي قوَّة عظيمة يحسب حسابها ويخشى فعلها متى ابتدأت تستخدم السلاح المادِّي. **ويمثِّل أعداء الأمَّة السوريَّة الخارجيُّون والداخليُّون القوَّة المدافعة وسلاحهم المثالب الأجنبيَّة واللاقوميَّة.**[160]

إنَّها حرب إذًا بين المناقب القوميَّة والمثالب الأجنبيَّة واللاقوميَّة.

إنَّ هذا القول يمكِّننا أوَّلاً من فهم بدايات الحزب السوري القومي الاجتماعي وسرعة انتشاره وثقة الناس به والتفافهم حوله من جميع المناطق السوريَّة وفي المغتربات، ومن

160) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء العاشر، (مقالة سلاحا الحرب).

جميع المذاهب والطوائف والطبقات. ثانيًا، يمكِّننا من فهم البطولات العظيمة التي أظهرها القوميُّون الاجتماعيُّون في ساحات الحرب المادِّيَّة، سواء في "أيَّام الحزب" التي سنأتي على تفاصيلها، أو في ساحات فلسطين، أو غيرها من ساحات المعارك المادِّيَّة التي خاضها الحزب على مرِّ تاريخه. ثالثًا، الأهم من كلِّ ذلك، يمكِّننا من فهم ابتعاد القوميِّين عن حزبهم في بعض الأحيان. إنها، قبل كلِّ شيء، حرب المناقب ضدَّ المثالب.

تقول الفيلسوفة الأميركيَّة "آين راند" في مقدِّمة كتابها النبع:

> بغضِّ النظر عن المستقبل الذي ينتهون إليه، يبحث الشباب في فجر حياتهم عن نظرة نبيلة للطبيعة الإنسانيَّة والإمكانيَّات التي تقدِّمها الحياة.[161]

هذه العبارة بالإضافة إلى عبارة الأمين عجاج المهتار، التي أشرنا إليها في القسم السابق من هذا الكتاب، "المغناطيس لا يجذب الخشب"، تختصر توق الشباب السوري إلى نظرة نبيلة للحياة وإلى الإمكانيَّات التي تقدِّمها لهم، وإلى بحثهم عن طريقة لترجمتها إلى أفعال. هذا التوق، سدَّده لهم سعادة في نظرة نبيلة إلى الحياة، وقدَّمها مثالاً أعلى لهم وغاية لحياتهم تعطيها المعنى الأسمى الذي يستحقون. لذا، كان تركيز سعادة على عنصر الشباب وعلى سعيه لإطلاق "عناصر القوَّة القوميَّة".

الهجوم الروحي

قلنا إن سياسة سعادة في الحرب هي الهجوم، والمناقب القوميَّة سلاحه. إنَّه يستهلُّ خطاب عمَّاطور، الشوف في مطلع 1937، بإعلان مبدئه هذا وبتحديد العدوِّ، وبرسم خطوط الصراع. من الواضح أنَّ الإقطاع الجنبلاطي المتحالف مع فرنسا، دون أن يسمِّيه، كان المقصود:

> إنَّنا قد اجتمعنا على المهاجمة لا على المسالمة. إنَّنا لم نجتمع قوَّة مدافعة. إنَّ الذين يدافعون ويليق بهم الدفاع هم الذين يملكون الأعناق ويستعبدون الناس. هؤلاء المدافعون عن احتكارهم مصالح الشعب وامتيازاتهم فيه.[162]

وفي سنة 1948، يتوسَّع في شرح حركته الهجوميَّة وطبيعتها وأعدائها:

> نحن حركة هجوميَّة لا حركة دفاعيَّة. نهاجم بالفكر والروح، ونهاجم بالأعمال والأفعال أيضًا. نحن نهاجم الأوضاع الفاسدة القائمة التي تمنع أمَّتنا من النموِّ ومن استعمال نشاطها وقوَّتها.

161) Rand, Ayn, The Fountainhead, Scribner, NY, 2000, p. xiii.

162) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثالث، ص. 20.

> نهاجم المفاسد الاجتماعيَّة والروحيَّة والسياسيَّة.
> نهاجم الحزبيَّات الدينيَّة،
> نهاجم الإقطاع المتحكِّم بالفلاَّحين،
> نهاجم الرأسماليَّة الفرديَّة الطاغية،
> نهاجم العقليَّات المتحجِّرة المتجمِّدة،
> نهاجم النظرة الفرديَّة. ونستعدُّ لمهاجمة الأعداء الذين يأتون ليجتاحوا بلادنا بغية القضاء علينا، لنقضي عليهم.
> هذه هي وجهة سيرنا. هذا موقفنا في المشاكل السياسيَّة الكبرى المحيطة بنا.[163]

حركة الحزب سريعة في الهجوم وخاطفة، تهدف إلى اكتساب المواقع عبر مواقف متميِّزة تستحوذ على اهتمام الشعب وإعجابه، وتبني على عنصر الشباب وعلى القوَّة والنظام والولاء، وفي معظم الأحيان تستخدم قوَّة الخصم ضدَّه وتستخفُّ به. مع أنَّ الأمثلة كثيرة، سنركِّز على أربعة نماذج من سياسة الهجوم هي: المحاكمة الأولى بعد انكشاف الحزب التي سمَّاها سعادة "المعركة السياسيَّة التاريخيَّة الأولى"، وما عرف بـ "أيَّام الحزب"، وردُّه على البطريرك عريضة، وهجومه على السياسيِّين اللبنانيِّين في سلسلة مقالات بعنوان: "الأحزاب الببغائيَّة". في كلٍّ من هذه الأمثلة، سنبيِّن الهدف المنشود من الهجوم والأسلوب المعتمد والنتيجة الحاصلة.

المحاكمة الأولى

كانت المحاكمة الأولى عند انكشاف أمر الحزب أوَّل نموذج على هذا النوع من الحرب الخاطفة التي استخدم فيها سعادة قوَّة الانتداب ضدَّه في المحكمة، فجعل منها منبرًا إعلاميًّا كبيرًا للحزب الجديد وزعيمه الشاب، ولفت الأنظار إليه وأعطاه دعاية كبيرة مجَّانيَّة. ما حدث في تلك المحاكمة، مفصَّل في الجزء الثاني من الآثار الكاملة، لكنَّنا سنركِّز على بعض النقاط الأساسيَّة بدءًا من خطورة الموقف.

جرت المحاكمة تحت سلطة الانتداب الفرنسي الذي سبق لقوَّاته أن قتلت العشرات من المدنيِّين العزَّل في لبنان لتثبيت هيبتها،[164] وفق قانونين كلٌّ منهما أشدُّ ظلمًا من الآخر. الأوَّل قانون الجزاء العثماني، والثاني، "قانون قمع الجرائم" الذي يحرِّم الاجتماعات وحريَّة الفكر.[165]

163) سعادة، أنطون، المحاضرات العشر، المحاضرة التاسعة.

164) رياشي، إسكندر قبل وبعد، ورؤساء لبنان كما عرفتهم، دار أطلس، دمشق، 2009، ص. 443-446.

165) جريج، جبران، من الجعبة الجزء الثاني، طبعة أولى، بيروت، 1986، ص. 158.

ما الذي توخَّاه سعادة من تلك المحاكمة؟ كان له مجموعة أهداف، منها ما يرتبط بهدف "تأسيس فكرة الأمَّة،" ومنها مرتبط بهدف "تحريك عناصر القوَّة". أمَّا الأسلوب فلم يكن ردَّ التهمة، بل تحويلها إلى اتِّهام وتحويل المتَّهَم متهِمًا، بالإضافة إلى تحقيق ما يلي:

- تقوية معنويَّات رفقائه بعد دخولهم السجن لأوَّل مرَّة في حياتهم لشحذ هممهم.
- إظهار ثقته بشعبه وافتخاره بثقافته ولغته للرأي العام.
- شرح قضيَّة حزبه.
- إعلام الرأي العام بأنَّ الإنتداب يحرم المواطنين من حريَّة التعبير عن أنفسهم.
- التأكيد على أنَّ حزبه هو الإطار الطبيعي لتعبير الشعب عن مصالحه.

في المحاكمة، أعلن سعادة أنَّه قائد الحزب، ويتحمَّل المسؤوليَّة كاملة عنه. ورفض أن يجيب حين نُودي عليه بلفظ اسمه بالأجنبي "أنطوان"، وأصرَّ على أن يُنادى باسمه المعرَّب "أنطون". كما رفض التكلُّم باللغة الفرنسيَّة وأصرَّ على التكلُّم بلغة بلاده.

بداية الهجوم، كانت في ردِّ سعادة على اتِّهام المدَّعي العام له بالعمل على خرق وحدة البلاد الجغرافيَّة، فيقول:[166]

> إنِّي متَّهم بخرق وحدة البلاد الجغرافيَّة وانتهاك حرمة الأرض. فأراني مضطرًا، علميًّا لا بالعاطفة للقول: إنَّ خرق وحدة وطننا الجغرافيَّة وانتهاك حرمة أرضنا قد تمَّا بالفعل في سان ريمو وسيفر ولوزان. والمسؤولون عن ذلك هم غير الحزب السوري القومي.

أمَّا عن تهمة تغيير شكل الحكم فيقول:

> إنَّ تغيير شكل الحكم الحاضر قد يكون واجبًا وضروريًّا لمصلحة البلاد. فرغبات كلِّ جماعة وحاجاتها تتطوَّر مع الزمن. وهذه القضيَّة التي تشغل عقولنا كثيرًا لم يقرِّر الحزب شيئًا نهائيًّا في صددها. فلا يمكن أخذ الحزب بشيء من هذه الناحية.

وعن تهمة منع الناس من ممارسة حقوقهم بسبب نظام الحزب المحكم، يردُّ سعادة:

> فالأمَّة المعترف باستقلالها وبأهليَّتها لهذا الاستقلال، وتمنع فيها الحريَّة التامَّة في إبداء الآراء السياسيَّة والعقائد القوميَّة – الأمَّة التي تخلو من منبر عام ومن حريَّة تشكيل الأحزاب السياسيَّة هي أمَّة تحيا، ولا شكَّ، في ظروف غير اعتياديَّة. والظروف غير الاعتياديَّة تقضي نهجًا غير اعتيادي. وإنِّي أسَّست الحزب السوري القومي لتمكين أبناء أمَّتي من ممارسة حقوقهم المدنيَّة والسياسيَّة المحرومين منها بحريَّة، وليس لمنعهم من ممارسة هذه الحقوق.

166) الفقرات الثلاث من: سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثاني، ص. 192. (المحاكمة الأولى).

النتيجة

نكتفي بهذا القدر الذي يظهر بوضوح كيف قلب سعادة التهمة إلى ادِّعاء والدفاع إلى هجوم. أمَّا نتيجة المحكمة فنأخذها من كتاب "من الجعبة":

> نعم، خرج أنطون سعادة، "الأستاذ" من هذه المحاكمة التي استمرَّت أربعة أيَّام منتصرًا انتصارين كبيرين: الأوَّل، ثبَّت عامل الحياة في النهضة السوريَّة القوميَّة الاجتماعيَّة وأطلقها لتتبوَّأ مركزها في الوجود. والثاني، ثبَّت في نفوس أعضاء الحزب ثقتهم به. إنَّه الزعيم الذي يُسلَّم إليه المصير. لم يعد "الأستاذ" كما كنَّا نلقِّبه، بل صار الزعيم. لم يصبح زعيمًا بموجب اليمين الذي اقسمت. صار الزعيم عن حقٍّ وحقيق.[167]

بالإضافة إلى الضجَّة الكبيرة التي أحدثتها محاكمة الزعيم وأعضاء الحزب والتغطية الصحافيَّة الكبيرة التي رافقتها، فإنَّ أخبار الحزب وسعادة تحديدًا وصلت إلى المغتربات، بما فيها البرازيل حيث كتب كلٌّ من "الشاعر القروي" والشاعر "سليم فرحات" عن المحاكمة واعتقال سعادة: الأوَّل كتب مقالاً يقرِّظ فيه سعادة أيَّما تقريظ، والثاني وجَّه له رسالة له يعتبر نفسه فيها "أحد جنوده".[168]

"أيَّام الحزب"

هي سياسة هجوميَّة واضحة أطلقها سعادة وترجمت في مهرجانات حزبيَّة كبيرة في مناطق يحكمها الإقطاع الزمني أو الديني أو الإثنان معًا، مثل بكفيًّا والشوف أو منطقة صافيتا وتلكلخ. إنَّها تشكِّل نموذجًا رائعًا عن نقل المعركة إلى صميم أرض الخصم، والانتقال بسرعة مذهلة من منطقة إلى أخرى لا تسمح للعدوِّ بالتقاط الأنفاس.

يمكن أن نقسِّم "أيَّام الحزب" إلى ثلاث مراحل: ما قبل الإغتراب القسري، أثناءه، وبعد العودة. سنركِّز في هذا الفصل على أبرز "أيَّام الحزب" في المرحلة الأولى، ونضعها في سياق النشاطات الحزبيَّة، منذ انكشاف أمر الحزب وحتَّى مغادرة الزعيم إلى المغتربات سنة 1938.

167) جريج، جبران، من الجعبة الجزء الثاني، طبعة اولى، بيروت، 1986، ص. 143.
168) المصدر نفسه، ص. 159-160.

الحدث	التاريخ
إنكشاف أمر الحزب واعتقال سعادة	16 تشرين ثانٍ (نوفمبر) 1935
المحاكمة الأولى	24 كانون ثانٍ (يناير) 1936
كتابي "نشوء الأمم"، وشرح المبادئ	أثناء السجن الأوَّل
خروج سعادة من الاعتقال الأوَّل	12 أيّار (مايو) 1936
الاعتقال الثاني	26 حزيران (يونيو) 1936
خروج سعادة من الاعتقال الثاني	12 تشرين ثانٍ (نوفمبر) 1936
مقابلات مع السيِّد كيفر، رئيس الغرفة السياسيَّة في المفوَّضيَّة الفرنسيَّة.	بين 12 تشرين ثانٍ (نوفمبر)، 1936، و14 تمُّوز (يوليو) 1937،[169]
مهرجان الشهيد حسين البنَّا في شارون	بعد السجن الثاني وقبل يوم صافيتا
جولة صافيتا – تلكلخ	15- 17 كانون أوَّل (ديسمبر) 1936
المذكِّرة إلى المفوَّض السامي	8 كانون ثانٍ (يناير) 1937
يوم عمَّاطور (الشوف)	19 كانون ثانٍ (يناير) 1937
مقالة سعادة عن لواء الإسكندرون	29 كانون ثانٍ (يناير) 1937
يوم بكفيَّا (المتن)	27 شباط (فبراير) 1937
الاعتقال الثالث	8 آذار (مارس) 1937
إنتهاء الاعتقال الثالث	15 أيَّار (مايو) 1937
زيارة المفوَّضيَّة الفرنسيَة وتهنئة دي مارتل	14 تمُّوز (يوليو) 1937، عيد فرنسا
جولة الشمال، القلمون وطرابلس والكورة	صيف 1937
صدور العدد الأوَّل من النهضة	14 تشرين أوَّل (أكتوبر) 1937
سلسلة مقالات الأحزاب الببغائيَّة (11 مقالاً)	من 1- 14 كانون أوَّل (ديسبمر) 1937

169) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السادس، ص. 65 (نداء الزعيم إلى الأمة السورية).

الحدث	التاريخ
الردُّ على البطريرك عريضة	كانون أوَّل (ديسمبر) 1937
مهرجان الأوَّل من آذار/ مارس (بيروت)	1 آذار (مارس) 1938
يوم زرعون (تشييع الشهيد سلمان جنبلاط)	5 آذار (مارس) 1938
مغادرة لبنان إلى فلسطين فالمغتربات	11 حزيران (يونيو) 1938

الأهداف

توخَّى سعادة تحقيق مجموعة أهداف من هذه المهرجانات: الأوَّل، إظهار قوَّة الحزب وحُسن تنظيمه، والثاني شرح قضيَّته، والثالث التكلُّم باسم السوريِّين انطلاقاً من وحدة قضيَّتهم وشخصيَّتهم ومصالحهم، والرابع الهجوم على مواقع الفساد والرجعيَّة، والخامس استخدام قوَّة الحزب لاستقطاب حلفاء داخليِّين وخارجيِّين، والسادس الحصول على اعتراف من القوى الدوليَّة بالحزب.

في التخطيط والتنفيذ

هل استطاع سعادة تنفيذ كلِّ هذه الأهداف؟ وكيف؟ سنستعين بشاهد من تلك المرحلة هو الأمين عجاج المهتار الذي كان من الرعيل الأوَّل إذ انتمى إلى الحزب في مرحلة العمل السرِّي، وكان من الأمناء الأوائل، كما كان عضوًا في (مام)، وسنركِّز على أيَّام صافيتا – تلكلخ، وعمَّاطور، وبكفيَّا.

بين أوراق الأمين عجاج المهتار غير المنشورة، مجموعة بعنوان "أيَّام الحزب" يصفها فيها بقوله: "هي الأيَّام التي كان الزعيم يحضرها ويقودها ويلهبها بخطاباته الناريَّة الحكيمة."[170] سنستفيد من هذه الأوراق لدراسة منهجيَّة سعادة في التخطيط، وسرعة معاونيه ودقَّتهم في التنفيذ. من هذه الأوراق أيضًا، نأخذ صورة تفصيليَّة أفضل عمَّا قصده حين تكلَّم عن "الصعوبات الداخليَّة" التي اعتبر التغلُّب عليها شرطًا ضروريًّا للتمكُّن من التصدِّي "للإرادات الأجنبيَّة"، ولنرى أين يفترق في عمله عن جميع معاصريه من القادة والسياسيِّين.

170) المهتار، عجاج، أيَّام الحزب، أوراق غير منشورة.

يوم صافيتا

في ورقة بعنوان: "يوم صافيتا 1936" يكتب الأمين المهتار:

عندما قرَّر الزعيم زيارة صافيتا ومنطقة العلويِّين، كان يخطِّط للرحلة وهو في سجن الرمل حيث كان يمضي مدَّة الستة أشهر التي حُكم فيها، إلى جانب اهتمامه بإكمال تأليف كتابه العظيم "نشوء الأمم". ولهذا، كان يسرِّب الأوامر والتعليمات عبر بريد سرّي وشيفرة ابتكرها في الانفراد، وأبرز التعليمات بخصوص الرحلة كانت عبر المكتب الأعلى المختص (مام) ونحن من جنوده بوجوب جمع معلومات "ريفرانس" عن زعماء القبائل والعشائر وكبار أراخين الإقطاع في تلك المنطقة، شاملة حياة المذكورين وثرواتهم وعدد أفراد كلّ عشيرة وعن مدى علاقة كلّ واحد منهم بجماعة "الكتلة" في دمشق، والأهمّ علاقتهم بسلطات الانتداب والمستعمرين... وعن عدد النملات على بيدر كلّ منهم.

...وتنفَّذت مشيئة الزعيم بسرعة وبسريَّة تامَّة وجاءت الملفَّات ضخمة ومنها كثيفة الصفحات طالعها الزعيم بروية وإمعان قبل الزحف بمشواره التاريخي الطويل.[171]

كيف ترجم سعادة المعلومات التي جمعها له القوميُّون في خطاب صافيتا؟ كان الخطاب شاملاً ركَّز على ثلاثة محاور. الوحدة القوميَّة، والوضع في الإسكندرون والحرب على الإقطاع والرجعيَّة. ويلاحظ القارئ استنباطه لتعابير ومفاهيم جديدة مثل **المقاومة الرجعيَّة المتلبسة لباس الوطنيَّة**. فيما يلي بعض فقرات من هذا الخطاب المهم:

... وقد بدأ الحزب السوري القومي عمله بمعالجة أعظم حاجة من حاجات الأمَّة السوريّة، ألا وهي الحاجة إلى أساس واحد عام مشترك يشمل جميع مصالح الشعب السوري ويصلح لبناء صرح القوميَّة السوريَّة ونهضة الأمَّة السوريَّة.

... إنَّ الدعوات إلى الاتِّحاد كانت خلوًا من فهم عوامل الاتِّحاد، وهي لذلك بقيت حبرًا على ورق.

..إنَّنا لم نقم منادين بوجوب الاتِّحاد ولكنَّنا درسنا أسباب الوحدة القوميَّة في حاجات الشعب وانتهينا إلى وضع مبادئ أساسيَّة وإصلاحيَّة تعطي الأمَّة حاجاتها وتؤسِّس مصالحها.

... إنَّني قد دعوتكم إلى حلٍّ أساسي عام للمشاكل الداخليَّة التي أنزلت التفرقة والتشعُّث في الأمَّة فلبَّيتم الدعوة وها أنتم الآن شهود أحياء على أنَّ الأمَّة السوريَّة حيَّة، وأن المجتمع واحد.

إنِّي أعلن أنَّ الأسكندرونة أراض سوريَّة ضروريَّة لحياتنا وتقدُّم مصالحنا، وأنَّنا مستعدُّون للاحتفاظ بها مهما كلَّف الأمر.

171) المصدر نفسه، يوم صافيتا.

وإنِّي أعلن أيضًا أنَّ كلَّ قضيَّة من قضايا الشرق الأدنى تكون لنا مصلحة فيها وتسوَّى بإهمال مصالحنا وإرادتنا تكون تسويتها فاسدة.

إنَّنا قد فرغنا في الحزب السوري القومي من مشاكل التعصُّبات الدينيَّة المنهكة. ولكنَّنا لم نقف عند هذا الحد بل تقدَّمنا إلى تعزيز المصالح المتنوِّعة ضمن الأمَّة. فالفلاحون والملاكون والصنَّاع والعمَّال يرون في مبادئ الحزب السوري القومي تحقيقًا لمصالح كلِّ فئة من فئاتهم ضمن المصلحة العامَّة التي تؤمِّن الكل.

... لقد انتصرنا على الاضطهاد، لم يبق علينا إلاَّ الانتصار على المقاومة الرجعيَّة المتلبِّسة بلباس الوطنيَّة.

إنَّ الرجعيَّة تقاوم الحزب السوري القومي لأنَّ الحزب السوري القومي يريد أن يحرِّر الفلاَّح من الرقِّ والعبوديَّة.

إنَّ الرجعيَّة تقاوم تقدم الحزب السوري القومي لأنَّ الحزب السوري القومي يطلب إنصاف العامل وإعطاءه حقَّه في الحياة.

إنَّ الرجعيَّة تحمل على الحزب السوري القومي لأنَّه يحرِّر أفراد الأمَّة من عبوديَّة الانقياد الأعمى وسلطة المؤسَّسات العتيقة الفاسدة.

إنَّ الرجعيَّة تقاوم الحزب السوري القومي لأنَّ الحزب السوري القومي يحرِّر العامَّة من سيطرة المستثمرين والنفعيِّين.

إنَّ الرجعيَّة تقاوم الحزب السوري القومي لأنَّ الحزب السوري القومي يؤمِّن مصلحة المنتج من أيِّ صنف كان.

إنَّ الرجعيَّة تحارب الحزب السوري القومي لأنَّ الرجعيَّة تريد أن تحارب حربها الأخيرة.[172]

بمثل هذا الترابط والتراصف بين غاية الحزب والمواضيع والأهداف الاستراتيجيَّة، كان سعادة ينجح في نشر رسالته ورصِّ صفوف حزبه بسرعة فائقة.

يوم عمَّاطور

سنأخذ مثلاً ثانيًا من يوم عمَّاطور يقدِّم صورة تفصيليَّة أخرى من كيفيَّة معالجة سعادة المشاكل الداخليَّة التي نوَّه عنها في الخطاب أعلاه، ناهيك عن بعد النظر والتخطيط الاستراتيجي والعملي.

نبدأ بالمكان، لماذا الشوف؟ للشوف خاصيَّة تاريخيَّة. يقول الأمين المهتار:

172) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثاني، ص. 237-240 .

الشوف كان ولا يزال منذ فجر التاريخ قاعدة الحكم على المقلب الغربي من ربوع برِّ الشام... ومنذ أيَّام الفتح العربي وتكنيس بقايا الرومان عن أرضنا، بدأت الإمارات العربيَّة والولايات والإقطاعيَّات تتمركز على هذا البرزخ... منذ التنّوخيِّين الذين حكموا بيروت والجبل قبل فخر الدين، إلى المعنيِّين...والشهابيِّين.[173]

إذًا سعادة يريد تثبيت قاعدة له في هذه البقعة المهمَّة جغرافيًّا وسياسيًّا. أمَّا لماذا عمَّاطور؟ فلأنَّها لا تبعد أكثر من "ضربة حجر" عن المختارة، قاعدة حكم الإقطاع الجنبلاطي في الشوف، والمتحالف مع الفرنسيِّين إبَّان الإنتداب.[174] هناك فائدة مزدوجة إذًا في إظهار قوَّة الحزب في عمَّاطور، من ضمن استراتيجيَّة شاملة هي الهجوم على عقر دار الفرنسيِّين وحلفائهم: آل جنبلاط في الشوف، والكتائب اللبنانيَّة بقيادة بيار الجميِّل في بكفيَّا، وقبلهم الإقطاع في صافيتا المتحالف مع الكتلة الوطنيَّة في دمشق، ومع الانتداب الفرنسي بشكل عام. ويلاحظ القارئ من مراجعة جدول أيَّام الحزب الذي مرَّ أعلاه أنَّ المسافة الزمنيَّة الفاصلة بين يومي عمَّاطور وبكفيَّا لا تزيد على شهر ونيِّف، كما أنَّ المدَّة الزمنيَّة بين مهرجان صافيتا وعمَّاطور هي شهر واحد.

كيف خطَّط سعادة ليوم عمَّاطور؟ نعود إلى أوراق الأمين عجاج المهتار، لنأخذ العبر من مواجهة المصاعب الداخليَّة:

عندما دخلت مطاعيم النهضة القوميَّة إلى عمَّاطور بدروس المبادئ والتعاليم، كانت روح العداوة والخلافات مخمَّرة بدمِّ الثارات، ومنتشرة من أجيال في كلِّ حارة... وكان من الصعب إيجاد مطلق شخص خارج هذا المستنقع برغم كون جميع سكَّان الضيعة من طائفة واحدة باستثناء بيتين ربَّما من طائفة أخرى. ومعظم أسباب العداوة والشرذمة تنطلق من المثل السائر "مش رمَّانة، قلوب مليانة" دفاشها الأقوى الحزبيَّات المحلِّيَّة، ولا مزاح في المزاج الجبلي متى كان جنبلاطيًّا ويزبكيًّا.[175]

كيف تغلَّب الحزب على هذه المعضلة؟ يقول الأمين عجاج المهتار إنَّ الزعيم وجَّه مجموعتين من القوميِّين تعمل كلُّ واحدة منهما مع فريق من الفريقين المتناحرين بسريَّة تامَّة عن الأخرى. وكان التركيز على الأخلاق النبيلة والتهذيب والحاجة إلى الإلفة والمحبَّة والاتِّحاد ويقظة الوجدان، ومنع الخلاف بين أعضاء الحزب تحت مطلق الظروف،

173) المهتار، عجاج، أيام الحزب، أوراق غير منشورة، يوم عمَّاطور.
174) للمزيد من المعلومات عن دور آل جنبلاط في التعاون مع الفرنسيِّين، يمكن مراجعة كتاب إسكندر رياشي قبل وبعد، ورؤساء لبنان كما عرفتهم، دار أطلس، دمشق، 2006، ص. 91.
175) المهتار، عجاج، أيَّام الحزب، أوراق غير منشورة، يوم عمَّاطور.

والإيعاز بمصالحة الأعداء مهما كانت الثارات قديمة.

حين أدرك الزعيم أنَّه تكوَّنت من الطرفين نواة صالحة، أعدَّ ليوم تعارف بين القوميِّين في السرِّ حيث فوجئ الرفقاء الجدد أنَّ في حزبهم الجديد أعضاء ممن توارثوا العداء معهم على مدى أجيال، وأنَّهم يشكِّلون وإيَّاهم اليوم كتلة قوميَّة واحدة.

وبهذه البساطة العظيمة، تمَّت المصالحة بين خصوم الأمس، وتحوَّلت العداوة إلى محبَّة... القسم الثاني من اللقاء كان حفلة خطابيَّة لشرح تعاليم النهضة وتفسير المبادئ، ومن ثمَّ مسيرة جماعيَّة في ساحات البلدة وشوارعها على نغمات الناي والمجوز وألحان الأناشيد... واستفاقت ضيعة "عين ما طور" على مصالحة جماعيَّة...[176]

بعد تكوُّن هذه القاعدة، أصبح بإمكان سعادة التخطيط لمهرجان الشوف، فيدعو إلى اجتماع سرِّي في مغارة "البزوز" في واد عميق بين بعقلين والمختارة يحضره حوالي ستين رفيقًا من عمَّاطور وغيرها من مناطق الشوف في ليلة شتويَّة قارسة البرد – المهرجان كان في شهر كانون ثانٍ/ يناير 1937 – ويوجِّههم سعادة بما فحواه:

نحن على مفترق خطير من تاريخ الأمَّة والبلاد، وفي هذا المحيط "الشوفي" تترسَّب جذور عداوات عنيفة وثارات ضخمة متولِّدة منذ زمن بعيد خميرتها تحزُّبات محليَّة، "قيسي ويمني" و"جنبلاطي ويزبكي"، وإذا ألقينا نظرة على هذه الحزبيَّات وتاريخها نتبيَّن أنَّها نتيجة خلافات شخصيَّة بين متزعِّمين تقليديِّين من الأزلام يغذِّيها ويلهب نارها تنازع الإقطاعيِّين وتنافسهم على الوجاهات والوظائف وإذلال الشعب وسلبه الحريَّة ورغيف الحلال.
وهنا تترسَّب جذور عداوة خطيرة تعود إلى "مذابح الستِّين"... لقد وضعنا الحدَّ الفاصل بين ذاك العهد العتيق وقضينا على رواسب "سنة الستِّين".[177]

ماذا حدث في المهرجان؟ نأخذ الجواب من أوراق الأمين عجاج المهتار، أو من سعادة نفسه، فالوصف واحد.[178] حاولت الدولة منع المهرجان وأرسلت فرقة من الدرك لذلك بقيادة الكولونيل نسيب دحروج، فقامت قوَّة مسلَّحة من القوميِّين بتطويقهم ومنعهم من الحركة لحين انتهاء المهرجان. وقف القوميُّون في نظام بديع فلا أرهبتهم بنادق الدرك في أوَّل المطاف، ولا استفزَّهم منظرهم مطوَّقين لشنِّ أعمال عدائيَّة ضدَّهم في نهايته. أمَّا أبرز ما جاء في كلمة سعادة، إضافة إلى ما ذكرناه أعلاه عن سياسة الهجوم، كان

176) المصدر نفسه.
177) المصدر نفسه.
178) المصدر نفسه بالنسبة إلى الأمين عجاج. أنظر أيضًا: سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء السادس، ص.63-64 (نداء الزعيم إلى الأمَّة السوريَّة).

التركيز على أنَّ القوميِّين هم القوَّة المنظَّمة الوحيدة في البلاد، ولهم وحدهم الحقُّ في التوجُّه للشعب لكسب تأييدهم وتمكينهم من كسر السلاسل التي تقيِّد الشعب. وتضمَّن الخطاب أيضًا دعوة للفئات الأخرى بنبذ المكر والتعامل مع الحزب بصدق وصراحة: "سنكون صريحين لمن يصارحنا. أمَّا الذين يحاولون أن يمكروا بنا فسنكون ماكرين بهم." وفي هذا الخطاب، قال سعادة كلمته الخالدة: "ثقوا بأنفسكم قبل كل شيء واعتصموا بإرادتكم قبل كل شيء ولا تهتزَّ أعصابكم حين الخطر، لأنَّ الخطر في اضطراب الأعصاب".[179]

يوم بكفيا

كنَّا وحيدين أنا وحضرة الزعيم في منزل كائن في عين القسيس عندما طلب منِّي أن أعدَّ لمظاهرة ستجري في بكفيا.

أذهلني الأمر، فطرحت على حضرته السؤال التالي: هل يتذكَّر حضرة الزعيم أنَّ بكفيا مركز حكومي (وكر لليسوعيَّة) وبلد ماروني متعصِّب، ومركز للكتائب (مؤسَّسة رياضيَّة) ومقر لحزب يوسف السودا الطائفي، وأنَّ فرع حزبنا فيها هو أضعف الفروع؟

أجاب الزعيم: "لأنَّ بكفيَّا كلُّ هذا، أريد أن تكون المظاهرة في بكفيا."[180]

بهذا الكلام، وصف الرفيق جميل قيامة سبب قرار سعادة إقامة مظاهرة في بكفيَّا، وهو ما يؤكِّد النهج الهجومي عند سعادة في المواقع الأكثر التصاقًا بالانتداب الفرنسي، والأكثر فسادًا وتسلُّطًا بالنسبة إلى المواطن السوري. ما ميَّز يوم بكفيَّا من يومي صافيتا وعمَّاطور، هو العراك الجسدي الذي تخلَّله بين قوَّة من الشرطة مدجَّجة بالسلاح بما فيه الحراب على رؤوس البنادق، وقوَّة القوميِّين الذين كانوا عزَّلاً تمامًا. هذا العراك تخلَّلته مرحلة طوَّق فيها القوميُّون قوَّة الشرطة وعزلوها عن قائدها، وانتهى باعتداء الشرطة على فلول القوميِّين وسقوط جريحين منهم.

على ما يبدو من وصف المهرجان، فإنَّ سعادة ألقى كلمة ارتجاليَّة فيه ولكنَّها لم تحفظ. ثمَّ أصدر بيانًا عنيفًا في الأيَّام اللاحقة له، أدَّى الى اعتقال عدد من القوميِّين بمن فيهم سعادة في الثامن من آذار/ مارس 1937. لهذا البيان أهميَّة خاصَّة. إنَّه بيان هجومي صرف يصف فيه سعادة تطوُّر الفساد، ويقدِّم لمحة عن أسباب نموِّ الحزب السريع، ويدحض عددًا من المفاهيم التي كانت سائدة، ويؤسِّس لمفاهيم جديدة.

179) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة الجزء الثالث، ص. 19.
180) جريج، جبران، من الجعبة، المجلَّد الثالث، بيروت، 1985، ص 162.

يصف البيان نموَّ الفساد بهذا التسلسل الرائع أسبابًا ونتائج:

- **نام الشعب** عن تعهُّد شؤون حياته ومصالحه، فتعهَّدها ذوو المصلحة في ذلِّه واستعباده.
- **سكت أفراده** عن حقوقهم في الدولة وشؤونها، فاهتضمتها جماعة تدَّعي أنَّها منه وليست منه.
- **نامت قوَّة الأمَّة** مدَّة فحسبها الطغيان قد ماتت، وسكت الشعب فظن ذوو النفع الخاص أنَّه قانع خانع.
- وتحوَّلت الجماعة النفعيَّة إلى **طبقة حاكمة**، وأنزل الشعب منزلة **الطبقة المحكومة** ولا رأي له في مصيره بل الرأي رأي فئة جشعة طامعة، والإرادة إرادة نفر اتَّفقوا على أن يعيشوا على خراب الشعب وأن يتلذَّذوا بآلامه.
- وظنُّوا، وبعض الظن إثم، أنَّهم **يوقعون الشعب في معترك الطائفيَّة** فيبقى لاهيًا عنهم في محاولة كلِّ طائفة **احتكار المصلحة العامَّة ومحاربة الطوائف الأخرى**.
- وكادوا يفلحون في **إرهاق الشعب وترويضه على العبوديَّة لولا كرامة في الأمَّة** وطيب عنصرها.

أمَّا عن دور الحزب، مطلق النهضة وقائدها فيقول:

جاءت النهضة القوميَّة التي يقودها الحزب السوري القومي منبِّهة الشعب إلى حقوقه ومصالحه، موضِّحة أساس الوحدة القوميَّة السياسيَّة والاجتماعيَّة، قاضية على المنازعات الطائفيَّة، محوِّلة الشعب المتفرِّق شيَعًا إلى أمَّة **تنظر** نظرة واحدة إلى الحياة، وتريد إرادة واحدة، هي أن **تحيا** وترتقي. وما كادت مبادئ هذه النهضة تظهر حتَّى سرى مفعولها العجيب في نفوس الناشئة وأخذ الشعب يدرك أنَّ المصلحة مصلحته وأنَّ الإرادة إرادته وأنَّ الحياة حياته وأنَّ ليس لفئة نفعيَّة أو طبقية رجعيَّة أن تقرِّر مصيره.

ليس هناك وصف أجدى وأدقُّ من هذا الوصف لعمليَّة تغييريَّة جذريَّة وشاملة بامتياز أشرنا فيها إلى الكلمات المعبِّرة عن فعل التغيير بخط، والنتيجة باللون الأسود. أمَّا عن ردَّة فعل الطبقة الحاكمة على انكشاف أمر الحزب وبعث النهضة فإنَّه يتدرَّج من الاستخفاف إلى الانزعاج، فوعي بالخطر الناشيء، فصراع مميت:

فكانت هذه النهضة شيئًا لم يدرك أولياء المصلحة الخاصَّة أهميَّته، ثمَّ أخذ يتحوَّل إلى شوكة في الفراش الوثير تقضُّ مضاجع المستريحين على آلام الشعب، النائمين على ما استفادوا من ويلاته، ثمَّ تدرَّج إلى نزاع شديد وصراع مميت بين حياة الأمَّة وحياة الطبقة الحاكمة، بين الموت والحياة.

ثمَّ يعلن سعادة أنَّ الحكومة عاصية لأنها تحاول ربط مصير الشعب بمصيرها:

إنَّ لكلِّ حكومة حدًّا تقف عنده فيما يختصُّ بأمر تقرير المصير العام الأخير الذي هو مصير الشعب لا مصير الحكومة. وكلُّ حكومة تحاول أن تربط مصير الشعب بمصيرها هي، تكون حكومة خائنة مصلحة الدولة. الحكومة التي تمنع أعضاء الدولة من التفكير في مصير دولتهم ومن استعمال حقوقهم المدنيَّة والسياسيَّة في تقرير هذا المصير، حكومة قد تجاوزت حدودها وخرقت حرمة المبادئ التي تقوم هي نفسها عليها وعصت إرادة الشعب الذي له وحده حقُّ تقرير مصيرها ومصيره. إنَّ حكومة من هذا النوع يجب إعلانها حكومة عاصية، وإنِّي أعلنها حكومة عاصية![181]

يتَّضح أنَّ سعادة يضع المسؤوليَّة الأولى على الشعب نفسه الذي نام وسكت أفراده، فنامت الأمَّة، ممَّا أوصل الفساد إلى أن يصبح طبقة حاكمة والشعب محكومًا. لكنَّه في الوقت نفسه، يعرِّفه بكرامته الكامنة ويدعوه إلى ممارستها عبر انضوائه تحت لواء النهضة التي هي فعلاً من الشعب. ويعطي تعريفًا للدولة، فيقول إنَّها "جمعيَّة الشعب الكبرى"، وإنَّ كلَّ فرد من أفراد الشعب مشترك في حياة الدولة هو عضو فيها، بمن فيهم السوريُّون القوميُّون. ويعلن أنَّ "الحكومة ليست الدولة"، وأنَّ هذا المبدأ قد "دُفن مع لويس الرابع عشر، ويرقد جنبه بسلام."

الردُّ على البطريرك عريضة

في السادس من كانون أوَّل/ديسمبر، 1937، ألقى البطريرك عريضة، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للطائفة المارونيَّة خطبة تناول فيها مسائل السياسة اللبنانيَّة. وصف سعادة الخطاب أنه:

جاء أمرًا هامًّا وحادثًا خطيرًا في السياسة اللبنانيَّة لا يمكن أن يمرَّ كما مرَّ الكثير من خطب البطريركيَّة السابقة بدون تعليق يوضح مجاري الفكر السياسي الحديثة، ويضع الأمور الهامَّة في الأمور اللائقة بها، خصوصًا وأنَّ غبطته قد خصَّ الحزب السوري القومي الاجتماعي ومبادئه بعناية دقيقة توجب مقابلتها بعناية مثلها.[182]

علَّق سعادة على الخطاب في مقال مسهب ربَّما قد نُشر في أكثر من عدد من صحيفة النهضة ابتداء من العدد 58، الصادر في 18 كانون أوَّل/ديسمبر 1937.

181) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثالث، ص. 49-52. جميع المقتطفات من (بيان إلى الشعب والتاريخ).
182) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثالث، ص. 102، (الردُّ على البطريرك عريضة).

سنربط هذا الخطاب بالهدف الاستراتيجي "تحرير عناصر القوَّة القوميَّة من التقاليد الرثَّة وتحريكها"، وندرس كيف عالجه سعادة، بدءًا من تعريفه للتقاليد والعادات.

وبالإجمال، العادة تتعلَّق، على الأكثر، بالذوق وما هو مستحسن وما هو مكتسب في الحياة الجيدة اليوميَّة، والتقليد يختصُّ بما هو جوهري في الحياة الاجتماعيَّة وما يتعلَّق بالاعتقادات الخفيَّة المتوارثة، ومنها ما صار اعتقادات دينيَّة أو نصف دينيَّة.[183]

يجب أن تكون حياة الأمَّة أقوى من تقاليدها وإلاَّ قتلتها التقاليد.[184]

يستهل سعادة مقاله بكلمات تقدير للبطريرك بسب موقفه المحمود من الوحدة فيما بين لبنان والشام، الذي بدا قريبًا كثيرًا من موقف النهضة القوميَّة، ويشكر موقفه من احتكار زراعة التبغ، وإن جاء "بعد فوات الأوان."

بعد هذا التمهيد، ينتقل سعادة مباشرة إلى الهجوم الصاعق فيقول: "وإذا كان لغبطة البطريرك عريضة هذان الموقفان وغيرهما من المواقف الحميدة، فإنَّ له كذلك مواقف غير حميدة كموقفه من محاولة اليهود التسرُّب إلى لبنان، والتي دفعت المطران مبارك إلى مخاطبة غبطة البطريرك بالقول: "نحن إنَّما انتخبناك بطريركًا للموارنة لا بطريركًا لليهود." ثم يتابع:

نرى من مواقف البطريرك عريضة السابقة أنَّه من الوجهة الشخصيَّة، ليس ذا اتِّجاه معيَّن متَّزن ولا ذا مذهب سياسي خاص، وأنَّ أعماله السياسيَّة هي هبَّات تثيرها العوامل العارضة وتوجِّهها المؤثِّرات الشخصيَّة الحاصلة التي يتعرَّض لها البطريرك بواسطة المتَّصلين به.

من هذا الهجوم، يتوخَّى سعادة تثبيت مقولة أنَّ مواقف البطريرك ليست فوق النقد، لا سيَّما حين تكون بعد فوات الأوان، مثل النظر في الكوارث بعد حدوثها. لا يقف سعادة هنا، بل إنَّه يصعِّد هجومه، فيعلن انتهاء دور رجال الدين في معالجة المسائل الزمنيَّة:

فمعالجة رجال الدين اليوم مسألة الأمم الاجتماعيَّة السياسيَّة والاقتصاديَّة كمعالجة رجال الدين في الأزمان الغابرة الأمراض الجسديَّة والنفسيَّة (العقليَّة) حين كان الكاهن ذا سلطة خفيَّة مستمدَّة من جهل تلك الأجيال السحيقة على الروح والمادَّة. وكما أدَّى ارتقاء علم الاجتماع وفنِّ السياسة إلى استحالة حلول مطران أو بطريرك محل العالم الاجتماعي أو الخبير السياسي أو الثقة في الاقتصاد. وكما يؤدِّي تدخُّل رجل الدين، من حيث هو رجل

183) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الرابع، ص. 158، (نشوء الأمم).
184) المصدر نفسه، ص. 159.

دين، في معالجة الشؤون الاقتصاديَّة الاجتماعيَّة والسياسيَّة إلى إفساد عمل الخبير بالشؤون الاقتصاديَّة الاجتماعيَّة والسياسيَّة وعلاجه.

بعد سرد طويل لتطوُّر المقام البطريركي ذي "التقاليد المستمدَّة من الأزمنة المتطاولة في القدم"، والحاجة التي كانت قائمة إلى مؤسَّسات مثله، عملت على "حفظ مصلحة الجماعة الدينيَّة وإيجاد أسباب بقائها"، وإلى ذلك "يُعزى استمرار نفوذ المقام البطريركي السياسي حتَّى الآن،" يقدِّم سعادة النتيجة التالية:

> فمنذ تلك الأزمنة القديمة إلى اليوم سار التطوُّر سيره الطبيعي وفعل فعله فتغيَّرت الظروف وتغيَّرت الأوضاع واختلفت الاعتبارات. ولكن الشعب بطبيعته بطيء إلى إدراك التغيُّرات الاجتماعيَّة السياسيَّة إدراكاً جليًّا فظلَّت عامَّة الجماعة الدينيَّة تتَّجه اتِّجاه الجماعة السياسيَّة في حين لم تعد الظروف توجب أو تسمح ببقائها جماعة سياسيَّة. وفعلت قوَّة الاستمرار فعلها في مقام البطريرك الماروني فتدخَّل بعد الحرب باسم الجماعة المارونيَّة لإقرار مسائل سورية وفاقاً للاعتبارات الدينيَّة وكان تدخُّله ابتداء المسألة اللبنانيَّة الحديثة التي بلغت بالشعب اللبناني إلى موقفه الحاضر. وإلى هذا التأخُّر في الإدراك تجد أسباب امتداد نفوذ رجال الدين السياسي إلى هذه الأيَّام والعامل الأساسي في بقاء هذا النفوذ ذا شأن هام في تقرير مصير القضايا القوميَّة والسياسيَّة.

لا يكتفي سعادة بهذا المقدار، بل إنَّه يناقش البطريرك فيما إذا كان فعلاً مفوَّضًا تفويضًا من "الشعب على مختلف نزعاته" لكي يهتمَّ بأموره الزمنيَّة والروحيَّة أيضًا، فيعلن شكَّه في كون "الجماعات الدينيَّة غير المارونيَّة تنظر إلى غبطته نظرها إلى أب ووكيل عنها مفوَّض إليه منها تفويضًا مطلقًا الاهتمام بمصالحها العامَّة والخاصَّة." ولكي لا يترك ثغرة في كلام البطريرك ينفذ منها، يوضح له أنَّه إذا قصد "بالشعب اللبناني خاصَّة" الموارنة فقط، فهذا يناقض زعمه أنَّه مفوَّض من الشعب "على مختلف نزعاته"، ناهيك عن آلاف القوميِّين الاجتماعيِّين من "اللبنانيِّين الصرف" (أي الموارنة) وكثيرًا من الموارنة المثقَّفين الذين لما يتسنَّ لهم دخول الحزب لا يعطونه هذا التفويض.

ويستمر الهجوم. فالبطريرك، في إصراره على ضرورة تدخُّله في الشؤون الزمنيَّة، يلجأ إلى الروحانيَّات فيدخل في مقدِّمة طويلة عن الأمور الروحيَّة وغاياتها، وتركيب الإنسان الذي هو من روح وجسد ليخلص إلى النتيجة التالية:

> الجسد، إذ هو الجزء الأدنى، يجب أن يخضع للنفس، لأنَّها الجزء الأشرف من الإنسان وهو ليس إلاَّ آلة تستعملها النفس لأغراضها. والأعمال الروحيَّة إنَّما تتمُّ بواسطة الجسد. ولمَّا كان

> أساس الدين المسيحي قائمًا بالمحبَّة لله تعالى توجَّب على الرئيس الروحي أن يعاون الشعب بكلِّ الأمور، روحيَّة كانت أم زمنيَّة، التي تعود لخيره الروحي أو الزمني.

سلَّم سعادة جدلاً مع البطريرك في وصفه الأمور الروحيَّة وغايتها، (خلاص النفوس بحفظ الإيمان، والشرائع الإلهيَّة)، وفي تركيب الإنسان (روح وجسد) وحتَّى في العلاقة بين الجسد والروح، (الجسد أدنى والروح أشرف)، لكنَّه اختلف معه في النتيجة للأسباب التالية:

1. إنَّ مسؤوليَّة الرئيس الروحي والمؤسَّسات الروحيَّة يجب ألاَّ تتعدَّى "تثقيف النفوس في حفظ الإيمان والشرائع الإلهيَّة" إلى الأجساد، لأنَّه إذا تعدَّاها "أبطل ذاتيَّة الروح الخاصَّة واستقلال الفرد وحرِّيَّته في تصريف شؤون جسده وفاقًا للإيمان والشرائع الإلهيَّة."
2. إنَّ العلم الروحي نفسه المختصَّ بالروحانيَّات لا يمكنه أن يعلِّم العلوم المادِّيَّة وفنَّ الإحصائيَّات وعلوم الطب والكيمياء والهندسة والاقتصاد.
3. يجب ألاَّ يتعدَّى الرئيس الروحي دائرة الروح إلى الجسد لئلاَّ تنطبق أحكام الدائرة الجسديَّة عليه، فيصبح "كواحد من الناس".
4. وعن استنتاج البطريرك بما أنَّ الجسد خاضع للروح، يجب أن تخضع الأجساد لسلطة زمنيَّة للرئيس الروحي، يجيب سعادة بأنَّ خضوع "كلِّ الأجساد لروح واحدة، تعطِّل مواهب الأرواح الأخرى وتنقض غرض الروح المرسلة من عند الله. فإذا كانت الروح مسؤولة عن الخضوع للإيمان والشرائع الإلهيَّة، فهي ليست مسؤولة عن ترك شؤون جسدها الزمنيَّة لروح واحدة، هي روح الرئيس الروحي."
5. ليس للشعب "سلطة روحيَّة واحدة بل سلطات يؤيِّدها التعصُّب الديني والطائفي." هذا يؤدِّي حكمًا إلى تنازع "السلطات الروحيَّة" على "الشؤون الزمنيَّة".
6. إنَّ الإصرار على اعتبار الممثِّل الديني ممثِّلاً سياسيًّا كذلك لا يعني سوى إبقاء الجماعة الدينيَّة جماعة سياسيَّة، فيظل الشعب مقسَّمًا إلى جماعات دينيَّة.

لن نزيد على ما تقدَّم، فالمقال طويل جدًّا، ويفنِّد جميع المسائل الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة التي تناولها البطريرك. ويظهر سعادة، في نهاية المطاف، عجز البطريركيَّة عن معالجتها لأنَّها شؤون فنيَّة اختصاصيَّة خارجة عن نطاق اختصاصها.

لا شكَّ في أنَّ هذا الهجوم على تدخُّل السلطات الروحيَّة في الشؤون الزمنيَّة قد زاد

من شعور هؤلاء بالخطر الذي يمكن لسعادة وحزبه أن يشكِّله عليهم. وإذا ربطنا ذلك بالخطر الذي لا بد وأن يكون السياسيُّون التقليديُّون من مختلف الطوائف قد شعروا به بعد هجومه الصاعق عليهم في سلسلة مقالات الأحزاب الببغائيَّة، يمكن لنا تخيُّل الحلف الرهيب الذي سيقوم بين هاتين الفئتين بشكل يجعلهما يتخلَّيان عن خصوماتهما الدينيَّة ويتَّفقان على ضرورة الخلاص من سعادة، إدراكًا منهما أنه صراع مصيري بين الطرفين.

الردُّ على الأحزاب الببغائيَّة

في نهاية سنة 1937، تقع حوادث شغب في لبنان افتعلتها بعض الأحزاب التي تضرَّرت على ما يبدو من نتيجة الانتخابات التي وقعت في تلك السنة، فأقدمت الحكومة على حلِّ تلك الأحزاب بحجَّة أنَّها أحزاب طائفيَّة. وكان الحزب قد دعم لوائح الحكومة بناء على الهدنة أو التفاهم الذي أشرنا إليه في الفصل السابق. غير أنَّ هذا لم يمنع سعادة من شنِّ هجوم على الأحزاب المحلولة والحكومة على حدٍّ سواء في سلسلة مقالات بعنوان: "قضيَّة الأحزاب الببغائيَّة في المجلس النيابي".

كان الهدف من هذه المقالات كشف الفساد والطائفيَّة والأكاذيب التي يتبادلها كلٌّ من الحكومة والمعارضة والأحزاب الطائفيَّة، كما أنَّه ينزع القناع فيها عن النزعات العنصريَّة- الدينيَّة القائمة في لبنان.

فيما يلي جدول بهذه المقالات مع تاريخها وعنوانها وموضوع كلٍّ منها.

التاريخ	العنوان	الموضوع
1937/12/1	إنَّ من البيان لسحرًا	هجوم على توفيق عوَّاد، رئيس حزب الوحدة اللبنانيَّة، وعلى مفهوم المناطق اللبنانيَّة الصرف (أي المارونيَّة)، واعترافه أنَّ الحزب قد نجح بالدخول حتَّى إلى هذا المناطق.
1937/12/2	السحر والساحر	الهزء من عوَّاد وبيار الجميِّل ومن استعارتهما تعابير الحزب، ومن اعترافهما أنَّ الحكومة كانت "تأمر" الموظَّفين بالانضمام إلى حزبيهما، وكيف أنَّ الظروف قضت أن يكونا "هم في جهة وإخواننا المسلمين في جهة."
1937/12/3	العجب العجاب	متابعة الهجوم على عوَّاد والجميِّل، وعلى اعتراف عواد: "تقول الحكومة إنَّ لأحزابنا صبغة طائفية. إنَّ مجلسكم ودستوركم وكل شيء في هذه البلاد قد بني على الطائفيَّة. انزعوا الطائفيَّة من أنظمتكم قبل أن تطلبوا من الشباب نزع الطائفيَّة من صفوفه."
1937/12/5	الواسطة تبرِّر الغاية	هذا المقال آية في السخرية، يعكس فيه سعادة القول المأثور، الغاية تبرِّر الواسطة أو الوسيلة. أمَّا هدفه، فنجيب نكد وشارل عمُّون. الأوَّل دافع عن الحكومة "فكان بليغًا جدًّا في ضعفه." .. "لم يهد الضالين ولم يزد في هدى المهتدين." أمَّا حين يقول نكد: "لقد انتقدوا على المجلس بالأمس اختلاف أعضائه فقالوا: اختلفوا على الكراسي. ثمَّ عاد فتم الائتلاف فقالوا: اتَّفقوا على تقسيم الوظائف والغنائم، فبأيِّ الرأيين يجب أن نأخذ؟" يجيبه سعادة: "بالرأيين كليهما يا حضرة النائب لأنَّهما يتجانسان كلَّ التجانس ويتَّفقان كلَّ الاتِّفاق ولا يبقيان حاجة في نفس يعقوب." أمَّا الثاني فانتقد الحكومة التي حلَّت الأحزاب الطائفيَّة سنة 1937، فيذكِّره سعادة أنَّ الحكومة أنشأت الأحزاب نفسها سنة 1936. فالحكومة أعطت، والحكومة أخذت.

1937/12/7	القضيَّة الخطيرة	يسخر من تناقض عمُّون حين يصف الكتائب بأنَّها "جمعية وطنيَّة رياضيَّة ولكنَّها حركة ترمي إلى اتقاء المخاطر الخارجيَّة ولها ميول سياسيَّة."
1937/12/8	الدم اللبناني الصرف	يستمُّر سعادة في تشريح تناقضات ما يرد على لسان السيِّد عمُّون حين يقول إنَّ حوادث 21 تشرين ثان/نوفمبر لم تكن إلاَّ ردًّا على استقبال بشارة الخوري قبل ثلاثة أشهر. "ليست هذه الحوادث إلاَّ وليدة تلك." فيستنتج سعادة أنَّ الموضوع إذًا لم يكن "نتيجة حلِّ الأحزاب بل التنازع والتكالب على الحكم." ويربط بين هذه الحوادث والحوادث الطائفيَّة التي وقعت قبل سنة، في 16 نوفمبر 1936، التي وقف فيها الحزب بين الكتائب والنجَّادة مانعًا وقوع مذبحة طائفيَّة.
1937/12/9	أوصنا في الأعالي	هدف المقال حميد فرنجية المحامي الذي تبرَّع للدفاع عن سعادة وحزبه في المحاكمة الأولى، وبرَّأه من تهمة العمل "للإرادات الأجنبيَّة" فإذ به يقف في المجلس سائلاً عن "المؤسَّسات المنحلَّة التي تعمل بإرادات أجنبيَّة على هدم الكيان اللبناني."
1937/12/10	العقم القومي الباهر	يتابع سعادة هجومه على حميد فرنجيَّة بسبب طلبه، مواربة، من الانتداب الفرنسي الحمل على الحزب بتهمة عمله "للإرادات الأجنبيَّة."

1937/12/11	بين الماضي والمستقبل	هدف هذا المقال محي الدين نصولي، الذي قال إنَّ الحكومة يجب أن تهدم وتبني لأنَّها مصدر الحركات والمؤسَّسات وإنَّها يجب أن تكون كذلك. وهو قول وصف سعادة قائله أنَّه يتكلَّم "كلامًا طيِّب العرف الأدبي، ساذجًا كلَّ السذاجة صادرًا عن رجل طيِّب القلب لا يعرف ما هي إدارة الدولة ولا ما هي الحكومة ولا ما هو الشعب ولا ما هو المجلس النيابي ولا ما هي مبادئ الحكم ولا ما هي السياسة."
1937/12/12	الموقف العصيب	"الأستاذ بشارة الخوري يتكلَّم." يسخر سعادة بمرارة وقسوة من بشارة الخوري، "زعيم المعارضة" الذي صرَّح في الندوة النيابيَّة بأنَّ "الندوة البرلمانيَّة أصلح من منابر المدارس ومسارحها لتصفية هذه الحوادث، حتَّى ولا منابر ومسارح مدرسة الحكمة تصلح لتقوم مقام الندوة البرلمانيَّة." وكان قد استهلَّ خطبته بعبارة جاء فيها: "قلَّما عرفت البلاد وعرف هذا المجلس ساعات أدقَّ من هذه الساعات.." في إشارة إلى "حوادث الأحد" التي سبقت حلَّ التنظيمات الطائفيَّة. بعد أن يعدِّد سعادة كلَّ المخاطر التي تهدِّد البلاد من تركيا إلى خطر انهيار الفرنك، إلى التسلُّح العالمي، ومماثلته بتصريح كهذا، يختتم بالقول: هذا هو الموقف العصيب الذي يرتقي فيه السخف إلى مراتب الرصانة، ويصعد فيه الهزء درجات الرأي، فيشطُّ المزار وتتوسَّع الحلقات وتلتبس الغايات وتصبح الأمور التافهة أمورًا خطيرة، وتمسي الأمور الخطيرة أمورًا تافهة. فما أدقَّ هذا الموقف العصيب!"

1937/12/14	خاتمة الأحزان	يهاجم سعادة في هذا المقال الحكومة التي كان في موقع هدنة معها، على أسلوبها وانصياعها للإكليروس، وعلى "الحكم الحاضر الموجود بنعمة الانتداب" ومبدئها الواحد الذي يقوم على "قهر كلّ روح شعبيَّة تتجرَّأ على رؤية قضايا ومسائل لا تراها الحكومة، وكسر كلّ نفس أبيَّة تتجاسر على أن يكون لها رأي مستقل في مصير الأمَّة والوطن."

نتيجة هذه المعارك

- هدنة مع الانتداب والحكومة وإن لم تعمِّر طويلاً.
- إطلاق موجة عارمة من التأييد للحزب وزعيمه وبدء نمو الوعي بمبادئه وقدرته التغييريَّة، لا سيَّما في محاربة الطائفيَّة والفساد، وترسيخ النظرة القوميَّة في وحدة المصالح ووحدة الحياة.
- تشديد الضغط على سعادة سنة 1938 ممَّا اضطره إلى تسريع مغادرته سورية إلى المغتربات، وغيابه قسريًا تسع سنوات.
- إدراك الرجعيَّة والفساد خطر هذه النهضة المميت، واستعدادهما للقضاء عليها عبر القضاء على مؤسِّسها، بحيث يمكننا فهم "مذكَّرة التوقيف" التي أصدرتها الحكومة اللبنانيَّة بحقِّ سعادة يوم عودته إلى الوطن سنة 1947، على أنَّها متابعة ما عجزت عن فعله سنة 1938.

الهدنة

أدرك سعادة أنه لتحقيق الانتصار لا بدَّ له من الهجوم، وأدرك أيضًا أهميَّة الهدنة لالتقاط الأنفاس ورصِّ الصفوف والاستعداد لجولات جديدة من الصراع، أو لكسب موقف سياسي. لم يلجأ سعادة إلى الدفاع، بل استمرَّ في الهجوم لدفع الخصم إلى الهدنة، على الرغم من جسامة ما يقتضيه هذا من تضحيات وإرهاق له ولحزبه بشكل عام. هذه السياسة ثبَّتت القوميِّين ومنحتهم العزيمة والمضاء والمهابة.

في رسائل سعادة إلى إدفيك شيبوب الكثير من المعلومات عن تلك المرحلة السياسيَّة الدقيقة، وما يرغب في الحصول عليه من المجلس النيابي القادم. يقول في إحداها إليها

في 24 تشرين أوَّل/أكتوبر 1937: "آمل أن يكون لنا في المجلس والحكومة المقبلين أصدقاء ومناصرون. وهذا ما فعلت المستطاع للحصول عليه."[185] وفي رسالة أخرى في تشرين ثانٍ/نوفمبر 1937، نقرأ ما يلي:

> إنَّ كثيرين كانوا ينتظرون أن يقف الحزب موقفًا عدائيًّا من الحكومة. ولكن الحزب قد وقف موقفًا مسالمًا، لأنَّه يحتاج إلى هدنة يتمكَّن خلالها من إحياء نشاطه السابق وتقوية حيويَّته وتنظيم داخليَّته وتكميل استعداداته.[186]

وفي كانون ثانٍ/يناير 1938، يقول لها:

> قد فعلت جهدي للسير بالحزب على سياسة سلميَّة للانصراف إلى الأعمال الثقافيَّة والإنشائيَّة، وسأبذل جهدي للمحافظة على هذه السياسة ما أمكن، لأنَّنا بحاجة لوقت لنرمِّم فيه ما تهدَّم من المعنويَّة العامَّة واستعادة الثقة بالنجاح القريب التي كان الحزب قد فقد معظمها أثناء وجودي في السجن وقيام أفراد على إدارته ليسوا أهلاً لإعطاء القدوة في الشجاعة والإيمان ورباطة الجأش.[187]

أدرك سعادة أنَّه كلَّما اتَّسعت دائرة الحزب وقوَّته، اتَّسعت دائرة الأعداء والرجعيَّة التي ترى خطر الحزب عليها: "إنَّ العراك بيننا وبين القوَّات الرجعيَّة لا يقف عند هذا الحد، فكلَّما ازددنا نموًّا كلَّما ازداد الضغط."[188] ويؤكِّد على الموضوع نفسه في رسالة منه إلى إدفيك شيبوب: "الخصومة على الحزب آخذة في الازدياد بقدر ما يزداد الحزب رسوخًا وانتشارًا. لأنَّه مع الانتشار، تكثر حوادث الاصطدام مع الرجعيِّين ومؤسَّساتهم، وتزداد الحاجة إلى وسائل جديدة تفي بمتطلَّبات الحرب الناشبة."[189]

بذلك، كان سعادة يرى أهميَّة الهدنة، ليس لالتقاط الأنفاس فقط، بل إدراكًا منه للخطر المتأتِّي عن ازدياد وعي الرجعيَّة والفساد بخطر الحزب الوجودي عليها، وبالتالي المتطلَّبات والأعباء الماليَّة التي سوف تنشأ ولن يكون بمقدور الحزب في الوطن وحده تأمينها:

> "فإنَّ انتشار الحركة أصبح يتطلَّب نفقات كبيرة لإدارة واسعة متشعِّبة، والأمَّة قد افتقرت وأغنياؤها ورأسماليُّوها في غفلة عن حاجاتها ومتطلَّبات كرامتها، فلم يبق أمامنا سوى المهجر الذي يتمكَّن من تقوية مركزنا تجاه القوَّات السياسيَّة المتربِّصة بنا. ويجب أن أزور المهجر في

185) شيبوب، إدفيك، رسائل حب، بيروت 1997، ص. 33.
186) شيبوب، إدفيك، رسائل حب، بيروت 1997، ص. 53.
187) المصدر نفسه ص. 126–127.
188) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثالث ص. 51.
189) شيبوب، إدفيك، رسائل حب، بيروت 1997، ص. 57–58.

أقرب فرصة لأتمكَّن من إيجاد الوسائل اللازمة لتنفيذ القسم الأعظم من برنامجي العملي الذي لا يزال معظمه واقفًا."[190]

الخلاصة

درسنا في هذا القسم الطويل منهجيَّة سعادة لتنفيذ أهدافه باستخدام إطار واضح للإدارة. إلى أي حد نجح في ذلك استنادًا إلى التعريف الذي وضعناه لكلمة "إدارة" في مستهلِّ هذا الفصل: **الإدارة هي استخدام المؤسَّسة لجميع مواردها وطاقاتها لتحقيق غايتها بأكثر فاعليَّة وأقلِّ كلفة؟** نحدِّد النجاح استنادًا إلى الغاية التي وضعها سعادة لحزبه أي أن يكون "حركة الشعب السوري العامَّة"، والمعايير التي حدَّدها لقياس النجاح في خطاب الأوَّل من آذار/مارس 1938، أي البنية والعقيدة والروحيَّة، فهل نجح في ذلك؟

البنية: ثبت الحزب في مقاومة الصدمة الأولى، صدمة الانكشاف والاعتقال والمواجهة مع المنتَدِب والحكومات التابعة له. كما نجح في تنقية صفوفه من الخونة والطفيليِّين والنفعيِّين.

عدديًا: لقد نما الحزب إلى ما يقارب الألف عضو ونيِّف خلال ثلاث سنوات من العمل السرِّي،[191] ثمَّ إلى عشرات الآلاف من الرفقاء في السنوات الثلاث التي تلت الانكشاف.[192]

الانتشار الجغرافي: انتشر الحزب سرِّيًّا تحت أنف الاستخبارات الفرنسيَّة – مركز الحزب السرِّي كان فوق مكتب المخابرات الفرنسيَّة في بيروت – والبريطانيَّة والإكليروس والإقطاع، في مديريَّات ومنفَّذيَّات من بيروت إلى القدس وصافيتا وتلكلخ ودمشق وحيفا ويافا.[193] ثمَّ علنًا في مختلف المناطق السوريَّة.

الانتشار الاجتماعي: انتشر الحزب في جميع الأوساط والطبقات والأديان والطوائف والمذاهب السوريَّة، فكان الحزب الوحيد الذي يمكن بحقٍّ وصفه "حزب سوريٌّ قوميٌّ اجتماعي".

النظام والتنظيم: أثبت القوميُّون أهليَّتهم لحمل نظام يضبط حركتهم، وتنظيم يربط هذه الحركة بالمبادئ والأهداف والمصالح التي أنشئت لخدمتها.

190) شيبوب، إدفيك، رسائل حب، بيروت 1997، ص. 53.
191) جريج، جبران، من الجعبة، المجلَّد الأوَّل، بيروت، 1985، ص. 398.
192) راجع مقابلة الزعيم مع مجلَّة العواصف، أو خطاب الزعيم في صافيتا، سنة 1936.
193) المصدر نفسه، شجرة انتشار الحزب، ص. 401–402.

العقيدة: أثبتت الأحداث التاريخيَّة سواء في حياة سعادة أو بعد استشهاده، أنَّ عقيدته صحيحة وصحيَّة لسورية والعالم العربي. إنَّ مبدأ النهوض القومي لكلِّ أمم العالم العربي، ومبدأ التعاون بين هذه الأمم هو الغائب اليوم عن العالم العربي، وغيابه سبَّب ويسبِّب كوارث هائلة وخسائر ماديَّة وماليَّة كبيرة، ناهيك عن الغياب شبه الكامل في الحركة الفكريَّة والعلميَّة والثقافيَّة العالميَّة المعاصرة.

الروحيَّة: لا يُعزى النجاح الكبير الذي لاقاه الحزب إلى نظاميَّته فقط، بل إلى الروحيَّة والوجدان اللذين أطلقهما الحزب استنادًا إلى عقيدته ونظرته وغايته. وكان سعادة أوَّل من نبَّه إلى ذلك في بداية عصر الحزب في مقال: "النظام" كما أسلفنا سابقًا.

الكلفة: تمكَّن الحزب من تحقيق كلِّ الانجازات بأقلِّ الإمكانيَّات الماليَّة، ولكن بقدر كبير من التضحيات والآلام، وباعتماد حصري على الذات.

لا يعني هذا الكلام أنَّ الإدارة الحزبيَّة لم تخلُ من الشوائب. رسائل سعادة وكتاباته وكتابات بعض الرعيل الأوَّل مليئة بالشواهد التي تظهر أن وجوده شخصيًّا هو ما كان يشدُّ عصب هذه الإدارة. أمَّا أثناء غيابه، أو وجوده في السجن، فكانت تعود إلى الخمول والكسل أو التآمر والتلهِّي بالخلافات الشخصيَّة.[194] وصولاً إلى ما سبقت الإشارة إليه من "إهمال في الإدراة العليا" ووصف سعادة له: بِـ "الميعان العقدي والنظامي". هذه العوامل كان لها أثر بعيد جدًّا في إضعاف الحزب، ومن ثمَّ انشقاقه وشرذمته إلى أجنحة وتكتُّلات في أكثر من مرحلة بعد استشهاد المؤسِّس.

194) أنظر شيبوب، إدفيك، رسائل حب، بيروت، 1997، ص. 107، 117، 119، 127.

القسم الرابع: كي لا تزول ويتبدَّد أتباعها

كلُّ عقيدة عظيمة تضع على أتباعها المهمَّة الأساسيَّة الطبيعيَّة الأولى التي هي انتصار حقيقتها وتحقيق غايتها. كلُّ ما دون ذلك باطل. وكلُّ عقيدة يصيبها الإخفاق في هذه المهمَّة تزول ويتبدَّد أتباعها.

سعادة

الفصل الأوَّل: مؤسَّسة بلا غاية

تمهيد

في كتاب "أوراق المؤتمر الثاني للمهاجر القومي الاجتماعي" الصادر عن الحزب السوري القومي الاجتماعي سنة 2004، دراسة من إحدى المديريَّات تضمَّنت العبارة التالية:

"أن تضع قيادة الحزب الخطط عبر نقاش هادئ ومستمرٍّ مع الفروع، يلحظ قدراتها الحاليَّة وبرامجها التنمويَّة، وأن تعلن باستمرار عن برامجها المرحليَّة للفروع وعن تقدُّمها أو تراجعها..."[195]

كلام جميل! ربَّما. ولكنَّه كلام مجتزأ من الورقة التي قُدمت للمؤتمر وكان نص العبارة فيها:

أن تضع قيادة الحزب، **أيَّة قيادة وكلُّ قيادة، مهمَّة أساسيَّة لها هي تحقيق غاية الحزب**. وأن تضع الخطط **لذلك** عبر نقاش هادئ ومستمرٍّ مع الفروع يلحظ قدراتها الحاليَّة وبرامجها التنمويَّة، وأن تعلن باستمرار عن برامجها المرحليَّة للفروع وعن تقدُّمها أو تراجعها. لا يكفي، في رأينا، القول: "إنَّ غاية الحزب هي في صميم أعمالنا." علينا أن نفصِّل هذه الغاية وفق أهداف مرحليَّة تخضع للقياس والمراقبة لمعرفة ما إذا كنَّا نخطو في الاتِّجاه السليم أم لا.

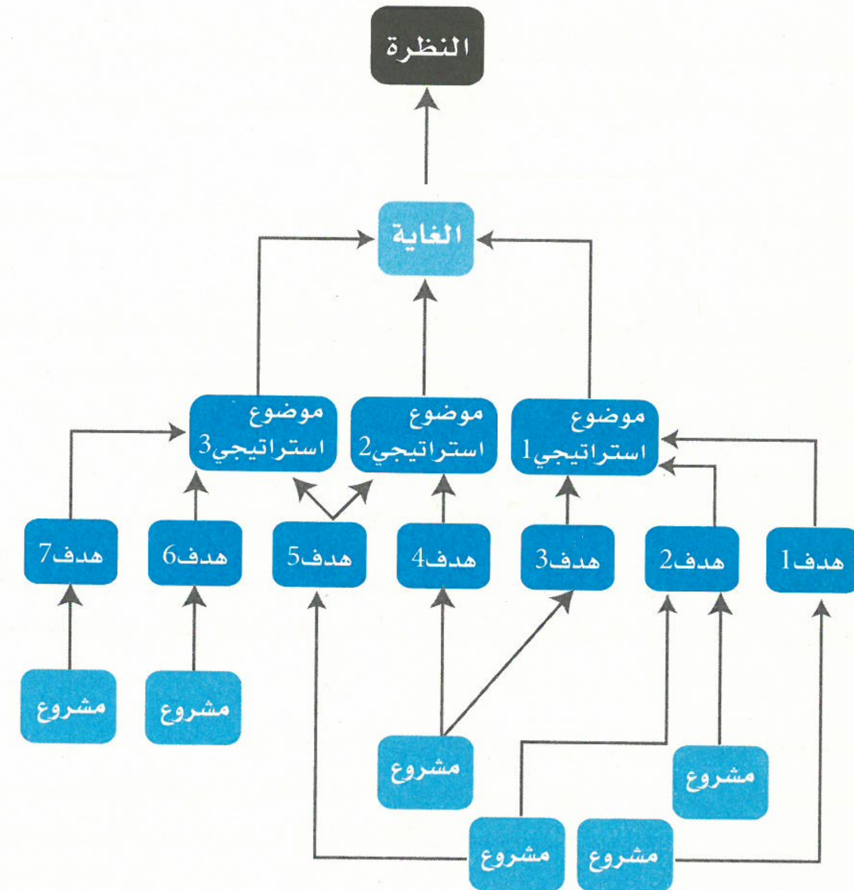
لا يمكن أن يكون هذا السطر قد سقط سهوًا. أتكون جملة: "**أيَّة قيادة وكلُّ قيادة، مهمَّة أساسيَّة لها هي تحقيق غاية الحزب**" قد حُذفت عمدًا! ثمَّ كلمة "**لذلك**" كي يستقيم المعنى لفاعله.

لماذا لم تَرُقْ عبارة أن "**تضع قيادة الحزب، أيَّة قيادة وكلُّ قيادة، مهمَّة أساسيَّة لها هي تحقيق غاية الحزب**" مسؤولاً أو أكثر في مركز الحزب، فعمد إلى استخدام مقصِّ الرقيب لطمسها! سنحاول فيما يلي الإجابة عن هذا السؤال.

195) أوراق المؤتمر الثاني للمهاجر القومي الاجتماعي، بيروت، 2004، ص. 76.

أهميَّة موقع الغاية

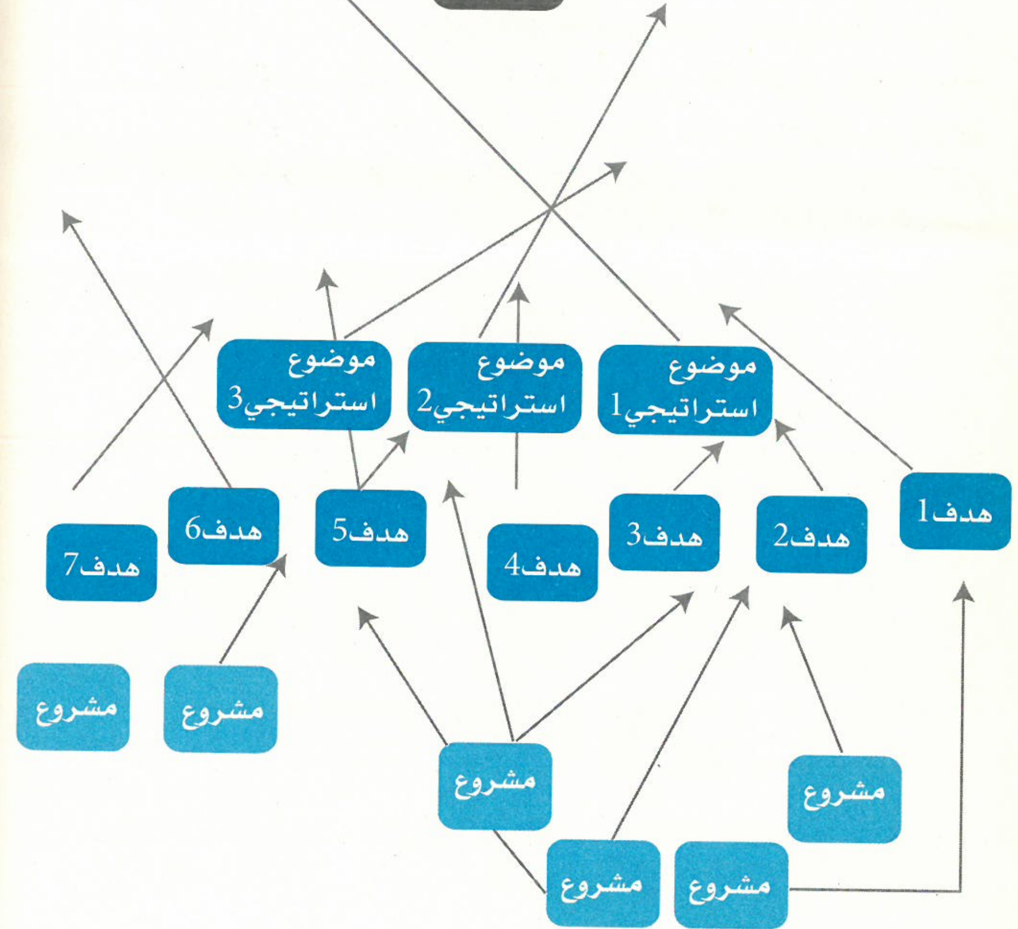
بالعودة إلى الشكل رقم 5 من القسم الأوَّل، نعيد نشره هنا، تتبيَّن لنا أهميَّة "الغاية" في حياة أيَّة مؤسَّسة. إنَّها الجسر الذي يربط بين نظرتها وبين أهداف محدَّدة وقياسيَّة ينتج عنها مشاريع وميزانيَّات ومعايير أداء وأدوات رقابيَّة من ضمن عمليَّة نظاميَّة شاملة. فالترابط الواضح من النظرة إلى المشاريع، يضمن عدم قيام مواضيع استراتيجيَّة خارجة عن الغاية، ولا أهداف خارجة عن المواضيع الاستراتيجيَّة، ولا مشاريع خارجة عن الأهداف. تكمن أهميَّة هذا النموذج في ترابط مكوِّناته بحيث لا يمكن للقيادة - أيَّة قيادة وكلِّ قيادة - أن تعمل إلَّا لغاية المؤسَّسة التي وجدت لخدمتها. فإن فعلت، كشفت الضوابط والتوازنات المتحكِّمة بإدارتها هذا الخروج ووضعت حدًّا له.



اختلال موقع الغاية

ماذا يحدث إذا اختلَّ موضع "الغاية" في الشكل أعلاه؟ هذا سؤال جدير بإنعام النظر.

1. **غموض الغاية**: تكلَّمنا في القسم الأوَّل عن أهميَّة الوضوح في عبارات الأساس الاستراتيجي ومنها "الغاية". غموض الغاية يؤدِّي إلى شلل المؤسَّسة بسبب عدم قدرة المديرين والمسؤولين على تطوير مواضيع وأهداف استراتيجيَّة واضحة.
2. **إهمال الغاية**: تبقى المؤسَّسة سائرة بقوَّة الاستمرار المتناقص من مخلَّفات مرحلة كانت فيها الغاية موضع التركيز الاستراتيجي، فتنحدر حركتها من المستوى الاستراتيجي إلى نمط طقسي لا رابط له بأهداف وغايات استراتيجيَّة. بمرور الوقت، تضيع بوصلة المؤسَّسة وتختلط أهدافها بأهداف خاصَّة، وتعمُّ الفوضى، فتنهار ويتبدَّد العاملون فيها.



15: مؤسّسة بلا غاية (الغاية مهملة)

3. **تغيير الغاية**: هنا نجد أنفسنا أمام عدد من الحالات جديرة بالمراجعة.

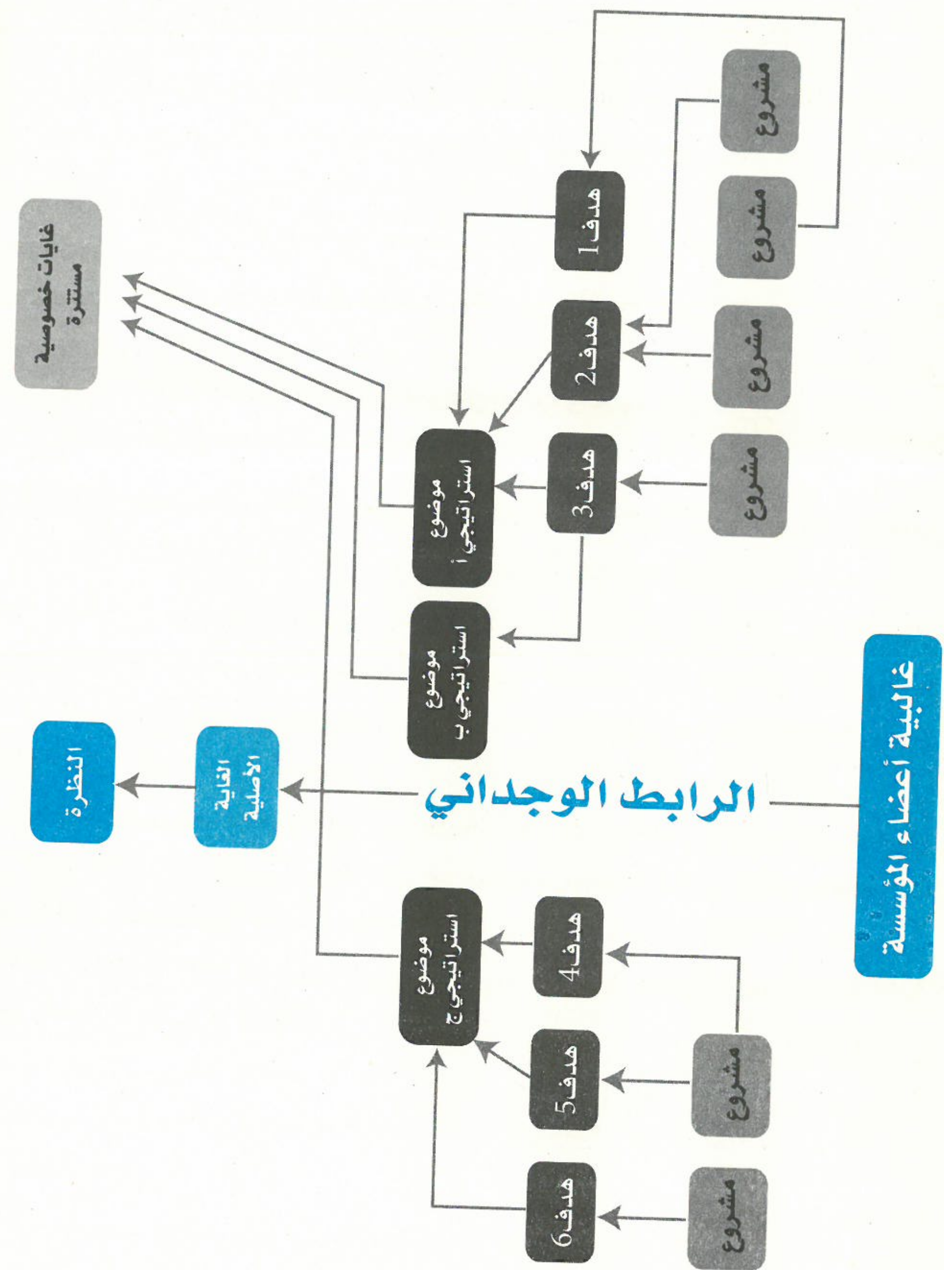
أ. حين تتغيَّر الغاية بشكل نظامي، تتغيَّر معها المواضيع والأهداف الاستراتيجيَّة، برضى المؤسَّسة والعاملين فيها. في مثل هذه الحالة، وفي أغلب الأحيان، لا توجد مشكلة إداريَّة إذ أنَّ التغيير يكون مضبوطًا ضمن عمليَّة تغيير شاملة تشترك فيها المؤسَّسة وتهيِّئ المعنيِّين بالتغيير إلى حدوثه.

ب. تغيير الغاية بشكل نظامي، لكن بدون إجماع على التغيير، يمسي عمليَّة خطيرة يمكن أن تؤدِّي إلى انقسام المؤسَّسة على ذاتها أو إلى خسارتها موارد بشريَّة صرفت الكثير من الوقت والجهد على تطويرها. يحدث هذا في المؤسَّسات الخاصَّة وفي الحركات السياسيَّة على السواء.

4. **الاحتيال على الغاية**: حين لا تتغيَّر الغاية ظاهريًّا، بينما تتغيَّر المواضيع الاستراتيجيَّة والأهداف الاستراتيجيَّة بما لا يمتُّ إلى الغاية بصلة.

هذه الحالة الأخيرة معقَّدة وتحدث في مؤسَّسات ذات رابط وجداني قوي بين الأعضاء وغاية المؤسَّسة. وتبدأ حين تتكوَّن رغبة في تغيير أساسي في غاية المؤسَّسة لدى مجموعة معيَّنة من الأعضاء أو القيادة، ولكنَّها تخشى إعلان رغبتها خوفًا من معارضة كبيرة تؤدِّي إلى الفشل.

تُبقي هذه المجموعة الغاية واجهة أو شمَّاعة، ولكن التغيير يجري ببطئ على مستوى المواضيع والأهداف الاستراتيجيَّة التي قد تكون مرتبطة بغاية أو غايات خصوصيَّة غير معلنة، فتحوَّل الميزانيَّات لخدمة هذه الأهداف، ولا يبقى من الغاية الأساسيَّة سوى الاسم، فيكون "الجسم جسم عيسو والصوت صوت يعقوب." يقدِّم الشكل 16 أدناه فكرة عمَّا يحدث في مثل هذه الحالة.



16: التراصف مع غايات مستترة

النتائج الناجمة عن هذه الحالة خطيرة جدًّا ولا يمكن لها أن تمرَّ بسلام، ونادرًا ما تنجو مؤسَّسة من آثارها المدمِّرة. السبب في ذلك أن التغيير قام على الخداع والكذب والاحتيال ممَّا يؤدِّي إلى صراع عنيف بين المتمسِّكين بالغاية الأساس وأولئك الذين تجذبهم غايات وأهداف أخرى تصبح مركز رزقهم ومصدر عصبيَّة جديدة لهم.

في بداية المطاف، يبدأ التساؤل على مستويات محدودة، وهمسًا في دوائر صغرى. تحاول فئة المصالح الخصوصيَّة امتصاص التساؤل إمَّا بالنفي القاطع أو بالمزايدة في التمسُّك بالغاية، أو بالإدِّعاء أنَّ ما تفعله هو "تطوير" طبيعي، أو إجراء مرحلي لا يمسُّ "جوهر" الغاية، بينما في الوقت نفسه، تعمل على استقطاب المتسائلين أو بعضهم إلى صفِّها بشتَّى الوسائل.

المرحلة الثانية، اتِّساع دائرة التساؤل إلى حدٍّ يصعب معه نفي التغيير أو اكتساب المتسائلين. عندها تلجأ تلك الفئة إلى قوَّة النظام التي بين يديها، فتضرب السائلين وترميهم بالعقوبات الإداريَّة أو تطردهم من صفوفها بعد أن تطلق عليهم الشائعات.

المرحلة الثانية هذه، مرحلة مصيريَّة بالنسبة إلى أصحاب الغايات الخصوصيَّة، وإلى المؤسَّسة. وفي النجاح في القضاء على المعارضين وجعلهم عبرة لسواهم مثلاً، يستتبُّ الأمر لأصحاب الغايات. آنذاك، يترك المؤسَّسة من يتركها، ويبقى من يستكين، فتسير الأمور على ما يرام لمدَّة قصيرة إلى أن يتحوَّل التنازع على المصالح الخصوصيَّة إلى مصدر خلاف على تقاسم المغانم والمكاسب، فيدبُّ الخلاف بين أصحاب المصالح أنفسهم. جدير بالذكر أنَّ أصحاب المصالح هؤلاء، غالبًا ما يتنازعون فيما بينهم، ولكنَّهم موحَّدون في مواجهة أيَّة محاولة للإصلاح دائمًا.

أمَّا عندما لا يستطيع أصحاب الغايات الخصوصيَّة القضاء على معارضيهم، يعنف الصراع ويشتدُّ ويصبح مفتوحًا على شتَّى الاحتمالات، ومن بينها هزيمة أصحاب المصالح الخصوصيَّة وطردهم وجعلهم عبرة لغيرهم، أو انقسام المؤسَّسة أو الوصول إلى تسوية. في أغلب الأحيان لا تكون التسوية سوى هدنة مؤقَّتة بانتظار جولة جديدة يحسم فيها أحد طرفي الصراع الأمر لصالحه.

غالبًا ما يحصل هذا في المؤسَّسات العقائديَّة، والتاريخ حافل بالأمثلة. الخاسر الأكبر دائمًا هم أصحاب العلاقة الذين من أجلهم وُضعت الغاية وتأسَّست المؤسَّسة بادئ بدء.

بعد هذا الشرح، بإمكاننا التقدُّم لدراسة حالة الحزب السوري القومي الاجتماعي.

علّة الحزب

لقد عانى الحزب السوري القومي الاجتماعي ويعاني من أزمات رافقته منذ تأسيسه، أوصلته إلى وجود تنظيمين يدّعي كلٌّ منهما أنَّه هو "الحزب السوري القومي الاجتماعي"، عدا عن عدد من المواقع الإلكترونيَّة التي تمثِّل تجمُّعات متناقضة مع كلٍّ من هاتين القيادتين، وإلى حدٍّ ما فيما بينها. من ناحية أخرى، عصفت بالحزب إنشقاقات وتوحُّدات في السبعينيَّات والثمانينيَّات والتسعينيَّات من القرن الماضي، وصل عدد الأجنحة فيها إلى ثلاثة، رافقتها صراعات داخليَّة عنفيَّة وصلت إلى حدِّ التصفيات الجسديَّة إبَّان الحرب الأهليَّة في لبنان وعند مشاركتها على الانتهاء.[196]

أبرز المحطّات

نقدِّم فيما يلي جدولاً زمنيًّا لأهم المراحل التاريخيَّة التي مرَّ بها الحزب لكي نضع أزماته وانجازاته في سياقها:

1. 1932–1938 مرحلة التأسيس وقيادة سعادة للحزب ومحاولة تنفيذ خطَّته وفق إطار واضح لإدارة الاستراتيجيَّة.
2. 1938–1947 سعادة في مغتربه القسري، والحزب يمرُّ في مرحلة الانحراف الكبير "الواقع اللبناني".
3. 1947–1949 عودة سعادة وتطهيره الحزب، وإعادة تنظيمه وشرح أسسه ومواجهة محاولة تصفيَته انتهاء بثورة تمُّوز (يوليو) 1949، واغتيال سعادة.
4. 1949–1955 شهدت هذه المرحلة انتشارًا كبيرًا للحزب في الشام، كما شهدت أحداثًا سياسيَّة جسيمة منها إسقاط حسني الزعيم وقتله، واغتيال رياض الصلح، وإسقاط نظام بشارة الخوري. كما شهدت مؤامرة اتِّهام الحزب باغتيال العقيد عدنان المالكي في دمشق، فضُرب واعتقل أعضاؤه وأُعدم بعضهم، ومُنع من العمل العلني لعقود.
5. 1956 التخطيط لانقلاب في دمشق، برَّره سعيد تقي الدين، عميد الإذاعة آنذاك بأنَّ ثمَّة وسيلتين لانتصار الحزب، إمَّا الوصول إلى الحكم، وإمَّا إقناع

196) مع أن قتل عميد الدفاع محمَّد سليم هو الحالة الوحيدة الموثَّقة قضائيًا في الحزب، وإن بقي مضمون التحقيق طيَّ الكتمان، هناك العديد من الحالات الأخرى التي أثارت الشكوك عن ضلوع داخلي في اغتيال وسيم زين الدين، وحبيب كيروز، وتوفيق الصفدي، من قيادات الحزب، عدا عن عدد من الرفقاء الذين قتلوا في صراعات داخلية أثناء الانشقاقات التي عصفت بالحزب إبَّان الحرب اللبنانيَّة.

الشعب عامَّة بفكرته. وكان سعيد تقي الدين يرى أنَّ الطريقة الثانية سوف تأخذ أجيالاً.[197] لم يتم الانقلاب بسبب العدوان الثلاثي على السويس تلك السنة.[198]

6. 1957 انقسام الحزب إلى جناحين، أحدهما بقيادة جورج عبد المسيح والآخر بقيادة أسد الأشقر.
7. أحداث 1958 في لبنان: كان الحزب في موقع دفاعي عام، ولكنه شهد معارك بادر فيها إلى الهجوم مثل معركة شملان. أمَّا سياسيًّا فكان في خط اليمين اللبناني. وكان الحزب قد انتهج منذ مطلع الخمسينيات الترويج للفكر الليبرالي المعادي للشيوعية لإعطاء سند إيديولوجي للتحالف مع قوى اليمين الأميركية في المنطقة.
8. بدء الحديث عن يسارية الحزب سنة 1960 تعويضاً عن ممارسات سنة 1958.
9. 1961 قيام الحزب بانقلاب في لبنان، نفترض أنَّه للسبب ذاته الذي قرَّر فيه الحزب القيام بانقلاب سنة 1956. زُجَّ القوميُّون بعشرات الآلاف في السجون، واستُشهد عدد منهم تحت التعذيب أو بذريعة محاولة الفرار.
10. 1969 خروج القوميِّين من السجن وعقد مؤتمر "ملكارت"، وتكريس مرحلة "اليسار" في الحزب، بعد تمهيد لها بعدد من المقالات من السجن.
11. 1969–1977 عصف بالحزب عدد من الأزمات نتيجة محاولات "تطوير عقيدته و"تثويره" وتميَّزت هذه المرحلة بإلغاء رتبة الأمانة، وإنشاء تنظيم سري داخل الحزب، واستقالات رؤساء وتمرُّد منفِّذين عامين وصولاً إلى انتفاضة الدكتور وسيم زين الدين سنة 1974، والتي انتهت باغتياله بعد سنة، وانقسام الحزب إلى قسمين جديدن: تنظيم بقيادة الأمين الراحل إنعام رعد متحالفًا مع منظَّمة التحرير الفلسطينيَّة، وآخر عرف باسم "الخوارج" بقيادة الأمين الراحل إلياس جرجي متحالفاً مع دمشق.
12. 1975–1990 الحرب اللبنانيَّة، ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي: تميَّزت تلك المرحلة بعدد من الظواهر. أوَّلاً، ضاعت هويَّة الحزب في خضمِّ أحزاب الجبهة

197) تقي الدين، سعيد، أنا والتنِّين، بيروت 1999، ص. 236
198) معروف، محمد، أيام عشتها 1949–1969، رياض نجيب الريس للنشر، بيروت، 2003، ص. 248

الوطنيَّة اللبنانيَّة. ثانيًا، كان الحزب في موقع دفاعي في معظم مراحل الحرب وتعرَّض أعضاؤه لعدد من المجازر في الكورة وعينطورة وبيروت ومشغرة وسواها. ثالثًا، اعتراف الحزب – مداورة – بمنظَّمة التحرير ممثِّلاً شرعيًّا ووحيدًا للشعب الفلسطيني تحت ذريعة قطع الطريق على الملك حسين لفرض حلول على الفلسطينيِّين. رابعًا، شهد الحزب في هذه الحرب أعظم بطولاته في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي عبر عدد من العمليَّات الاستشهاديَّة، كما شهد أقسى انقساماته وأكثرها دمويَّة. خامسًا قبل الحزب باتِّفاق "الطائف" الطائفي وروَّج له بذريعة وقف الحرب الأهليَّة في لبنان.

13. 1977 توحَّد التنظيمان المشار إليهما في البند 11 أعلاه في حزب واحد متحالف مع دمشق.

14. 1987 عاد الحزب إلى الانقسام تحت اسمين: "المجلس الأعلى" بقيادة إنعام رعد و"الطوارئ" بقيادة عصام المحايري.

15. 1987–1998 مرحلة من الصراعات الداخليَّة والاغتيالات المتبادلة سقط فيها عدد من قياديي الحزب مثل الأمناء حبيب كيروز وتوفيق الصفدي ومحمَّد سليم، وعدد من الأعضاء.

16. 1998 توحَّد هذان التنظيمان من جديد. ولكن على الرغم من الوحدة، لم تتوقَّف الشرذمة، وتمثَّلت بعدد من حركات التمرُّد وتبدُّل الرؤساء قبل انتهاء المدَّة، إمَّا بسبب التعيين في وظائف حكوميَّة، أو عدم القدرة على الحكم نتيجة وجود ما وصف بحالة "رئيس يُحاسَب ولا يحكم ورئيس يحكم ولا يُحاسَب."

17. 1990 - 2009 تمثَّل الحزب بعدد من النوَّاب في لبنان والشام، كما تمثَّل في أكثر من وزارة، وكانت فاعليَّته محدودة جدًّا لناحية مشاريع القوانين التي تقدم بها، بل أنَّ أداءه في بعض الأحيان ترك آثارًا سلبيَّة داخل الصف الحزبي، وفي المجتمع عامَّة.

ثمَّة آراء عديدة في مسبِّبات هذه الأزمات ونتائجها، وفي ضعف أداء الحزب قياسًا بتحقيق غايته. بعض القوميِّين يردُّها إلى كيفيَّة انبثاق السلطة بعد اغتيال سعادة. بعض آخر يقول إنَّ الحزب لم يتأسَّس بعد، ويعزو ذلك إلى عدم استكمال المؤسَّسات الدستوريَّة. نفرٌ يرى أنَّ انقسامات الحزب قد أدَّت إلى تصدُّعه، في

حين يرى نفر آخر أنَّ الخلاف على النهج السياسي أوصل إلى الانقسام.[199]

في رأينا، هذه الآراء وغيرها الكثير على أهميَّتها، تقدِّم تفسيرًا جزئيًّا للأسباب ووصفًا جزئيًّا لحدوثها، لكنَّها لا تعطي السبب الأساس لأزمات الحزب، ولا تقدِّم جوابًا منطقيًّا عن سبب فشله في تحقيق غايته، كما سنبيِّن من مناقشة هذه الآراء.

لا يمكن أن يكون سبب أزمات الحزب نتيجة خلل في انبثاق السلطة فقط. لقد بدأت الأزمات أثناء وجود سعادة، ولم تكن آنذاك مشكلة في كيفيَّة انبثاق السلطة حيث كان سعادة مصدر السلطتين والقائد الأعلى للحزب. من جهة ثانية، جرَّب القوميُّون أكثر من طريقة لانبثاق السلطة: عُدِّل الدستور مرارًا، وتغيَّر النظام الانتخابي مرَّات ولكن المشكلة بقيت.

لا نستطيع القول "إنَّ الحزب لم يتأسَّس بعد." في رأينا، هذا القول فيه الكثير من التبسيط، بل لعلَّه يقدِّم مخرجًا سهلاً يُستعاض به عن التفكير في أسباب الأزمة وحلولها، لا سيَّما إذا لم يقترن بعمل ما "لتأسيس الحزب" إذا سلَّمنا جدلاً أنَّه لم "يتأسَّس بعد". الحزب تأسَّس في الواقع، وخاض غمار الإدارة والسياسة والحرب، وما التفصيل التاريخي الذي قدَّمناه في القسم السابق سوى برهانٍ على ذلك.

إذا كان الانقسام أو الخلاف على نهج سياسي يؤدِّي إلى التصدُّع فالاتفاق والوحدة يجب أن تزيلا التصدُّع. لقد انقسم الحزب أكثر من مرَّة، كما أنَّ القيادات الحزبيَّة اختلفت على نهج سياسي فانشقَّ الحزب، ثمَّ عادت فتوحَّدت على نهج آخر، ولكن المشاكل استمرَّت والتصدُّع تعمَّق وانتشر.

التوحُّد وراء القيادة للخلاص من أزمات الحزب وتحقيق غايته لا يكفي. فالأعضاء المنضوون تحت لواء كلٍّ من التنظيمين حاملي اسم الحزب متوحِّدون كلٌّ مع قيادته وملتفون حولها، لكن الحزب لم يتقدَّم قيد شعرة نحو تحقيق غايته.

كلاَّ، لا يقدِّم أي من هذه التفسيرات السبب الرئيس لأزمات الحزب. والسبب الرئيس في رأينا هو حصول خلل فادح في موقع غاية الحزب. **إنَّ سبب فشل الحزب في تحقيق غايته عائد إلى محاولات متكرِّرة لتغييرها قسرًا أو حيلة أو لإهمالها بالكليَّة. وعن ذلك، نتج انقسام واقتتال وشرذمة وانكفاء، بل تخل عن الحزب.**

متى فُقدت الغاية، فُقد الرابط الأساس ووقع المحظور الذي حذَّر منه سعادة: التبدُّد.

199) وردت هذه الآراء في بعض الدراسات والأبحاث التي نشرت داخليًا، أو المناقشات التي رافقت كتابة هذا الكتاب.

غاية الحزب بين التغيير والإهمال

بدأت محاولات وضع رؤى أو غايات أخرى مكان نظرة الحزب وغايته أو أقسام حيويَّة منهما مع تأسيس الحزب ولم تنته باستشهاد مؤسِّسه. سنعرض فيما يلي عرضًا سريعًا لهذه المحاولات ذلك أنَّ ما يعنينا هو السبب الأساس وراءها، دون الدخول في تفاصيلها.

1- **معارضة علنيَّة وواضحة لنظرة سعادة وغاية حزبه** أو أجزاء منها سواء على الصعيد النظامي أو القومي أو الفلسفي أو الدستوري أو الديني، كلّ هذا وسعادة حيٌّ يُرزق.

أ. السلطة الحزبيَّة وزعامة الحزب: أزمة بطرس سماحة وشارل سعد وأنطوان ثابت.[200] قبل انكشاف أمر الحزب للسلطات الفرنسيَّة.

ب. "الواقع اللبناني": نعمة ثابت ومأمون أياس وأسد الأشقر وفؤاد أبوعجرم وعبد الله سعادة وأديب قدُّورة وغسَّان تويني وعبد الله قبرصي.[201] (بعض هؤلاء تراجع عن موقفه بعد عودة سعادة)

ج. الفلسفة الفرديَّة: فايز صايغ وغسَّان تويني.

د. الفلسفة الإداريَّة: فايز صايغ وغسَّان تويني.

هـ. الدين: فخري معلوف.[202] لم تتجاوز هذه الأزمة شخص فخري معلوف، لكن أثرها كان يمكن أن يكون مدمرًا على الحزب، إذ تنسف مبدأ فصل الدين عن الدولة، ومبدأ حريَّة المعتقد الشخصي من أساسيهما. كما أنَّها تركت أثرًا كبيرًا في سعادة نظرًا إلى الصداقة الشخصيَّة التي ربطته بمعلوف وإلى الآمال الكبيرة التي كان قد عقدها عليه.

أخطر هذه الأزمات، كانت "الواقع اللبناني" لأنَّ معظم قياديي الحزب انجرفوا فيها، ولأنَّها حرفت الحزب عن محوره الأساسي القومي الاجتماعي، وجعلت حركته تدور على محور غير محورها الطبيعي.

انتهت هذه الأزمات بتطهيرات أجراها سعادة نفسه داخل الحزب بعد أن بذل جهدًا كبيرًا في مناقشة هؤلاء الأشخاص ومحاولة إقناعهم بالعدول عن نهجهم. وقد نجح مع بعضهم وفشل مع آخرين.

200) قبرصي، عبد الله، عبد الله قبرصي يتذكَّر، الجزء الأوَّل، مؤسَّسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت، 1982، ص. 50-51.

201) قبرصي، عبد الله، عبد الله قبرصي يتذكَّر، الجزء الثاني، مؤسَّسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت، 1982، ص. 137.

202) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الرسائل، الجزء الثالث، منشورات عمدة الثقافة، بيروت، 1980، ص. 653.

اليوم نرى، من منظور علم الإدارة وحدها، استحالة نجاح أيَّة حركة بين قادتها هذا العدد من الكبير من المعارضين لنظرتها والغاية التي وضعها مؤسِّسها. ولا يغرب عن البال أنَّ الذين شملهم التطهير في حياة سعادة لم يكونوا وحدهم، بل أن عددًا ممن لم يشملهم، عادت قناعاتهم المترجرجة حيال نظرة سعادة وغاية الحزب لتظهر في أكثر من مفترق حاسم بعد استشهاده. كما أنَّ بعض الذين تراجعوا إبَّان احتدام معركة "الواقع اللبناني" عادوا فأسَّسوا أكثر من "واقع" فيما بعد.

عدم تردُّد سعادة في طرد عدد من كبار قادة الحزب يدلُّ على اقتناعه بمبدأ يركِّز عليه "جيم كولنز" في كتابه من الجيِّدة إلى العظيمة حيث يقول: "أثبتت دراستنا أن ليس الإنسان في المطلق هو الأساس في نجاح المؤسَّسة، وإنَّما الإنسان الصالح لهذه المؤسَّسة تحديدًا."[203]

لقد رأى سعادة أنَّ هؤلاء الأشخاص الذين أثبتوا كفاية عالية على الصعيد الشخصي، ونجح معظمهم في أعماله الخاصَّة فيما بعد، لم يكونوا الأشخاص الصالحين لتحقيق غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي ونظرته.

إذا كان سعادة قد نجح في إعادة شرح قواعد نهضته وترسيخ أسسها وتنقية صفوفها جزئيًّا بعد عودته، فإنَّه لم يتمكَّن من تخليص الحزب كليًّا من قبضة الأنانيَّات الفرديَّة المتصارعة على تثبيت "غاياتها" الخاصَّة عوضًا عن غايته فعادت لتقود الحزب من هزيمة إلى أخرى ومن انشقاق إلى انشقاق.

2- **معارضة مستترة ومبهمة وخجولة لنظرة سعادة وغاية الحزب:** وهذه في رأينا كانت أشدَّ فتكًا في الجسم الحزبي من سابقتها. فالنوع الأوَّل اتَّسم بالعلنيَّة والوضوح من المعارضين. أمَّا الثاني، فاتَّسم بالمراوغة والتستُّر. النوع الأوَّل هدف إلى تغيير أسس الحزب الفلسفيَّة ومبادئه الأساسيَّة، ووضع نظرة أو نظرات أخرى محلَّها علنًا. النوع الثاني اتَّسم بمحاولة "مزاوجة" نظرة الحزب الفلسفيَّة وعقليَّته الأخلاقيَّة وعقيدته مع نظرات وعقائد أخرى، واستخدم في ذلك شتَّى الوسائل بما فيها ما عرف بـ "التنظيم السرِّي" في مطلع السبعينيَّات من القرن الماضي.

تجلَّت هذه المحاولات في تأرجح الحزب في شتَّى الاتِّجاهات ووراء عدد من المفاهيم، والانتقال من موقع إلى آخر مناقض: من اليمين إلى اليسار، ومن القوميَّة السوريَّة إلى

203) Jim Collins. Good to Great. Harper Collins. NY.

العربيَّة، ومن "الأمَّة التامَّة" إلى "الأمَّة الأتمّ"، ومن "الأمَّة مجتمع واحد" إلى "الماركسيَّة والصراع الطبقي". وسياسيًّا، من التحالف مع منظَّمة التحرير الفلسطينيَّة إلى التحالف مع دمشق. كلُّ هذه أمثلة حيَّة موثَّقة في تاريخ الحزب عن التأرجح الذي منع تقدُّم الحزب لتحقيق غايته، ويحول دونها حتمًا.

2- **إهمال غاية الحزب**، حالة رافقت الحزب أثناء هجرة سعادة القسريَّة وامتدَّت بعد استشهاده، وتفاقمت منذ انتهاء الحرب اللبنانيَّة بحيث لم تعد قيادات الحزب تكترث حتَّى بالتظاهر أنَّها تعمل لغاية الحزب.

خلاصة

- لا شكَّ في أنَّ تاريخ الحزب مليء بالبطولات والأعمال العظيمة والإنجازات المجتمعيَّة الكبيرة، لا سيَّما إلغاء الطائفيَّة من نفوس أعضائه. كلُّ هذه الأمور تبقى شروطًا ضروريَّة ولكن غير كافية للنجاح.
- تشترك معظم القيادات التي تعاقبت على الحزب بعدم التركيز على "الغاية" واعتبارها المشروع الواحد والجامع لقوى الحزب والمنظِّم لها في أهداف استراتيجيَّة وخطط عمل تكفل تحقيقها. بل تشترك عمليًّا في إفراغ موقع غاية الحزب في هيكل التخطيط الاستراتيجي من مضمونه.
- إنَّ إفراغ موقع غاية الحزب من مضمونه مقدِّمة لبدء التنافس على "ملء" هذا الفراغ بغايات شخصيَّة متستِّرة بتفسيرات وشروح مغايرة لعقيدة الحزب وفلسفته وتبعده أكثر عن غايته. هذا يفسِّر الانقسام المتكرِّر والتوحيد المتكرِّر، وتبادل الأدوار وتقلُّب التحالفات. إنَّها مشاريع خاصَّة تلتقي أو تفترق حسب المصالح.
- في معظم هذه المحطَّات، يُستخدم النظام والمؤسَّسات الدستوريَّة لتغطية الانحرافات أوَّلاً، والنهج المتقلِّب ثانيًا والفساد دائمًا، فيعاقب المعترضون فصلاً وطردًا وتشهيرًا وتهميشًا وإشاعات وصولاً إلى الاغتيالات.
- بعض الحالات التي سمَّت نفسها "معارضة" أو "معارضات" لم تبنِ معارضتها على تغييب غاية الحزب، بل على تغييبها هي عن السلطة الحزبيَّة.

الفصل الثاني: أسباب الانحراف وآليته

تمهيد

من الصعب جدًّا، بعد كلِّ ما مرَّ من سموِّ نظرة الحزب السوري القومي الاجتماعي ووضوح غايته وراهنيَّتها وأهميَّة قيَمه وعظمة زعيمه وبعد نظره- وقد جاءت الأحداث مصدِّقة لما استشرفه منذ الثلاثينيَّات والأربعينيَّات من القرن الماضي - وبعد التضحيات العظيمة التي قدَّمها أعضاؤه على مرِّ تاريخه، من الصعب جدًّا أن نفهم لماذا حاربت بعض قياداته غايته – علَّة وجودها – وأهملتها وتهملها في معظم الأحيان.

بديهي أن نطلب جوابًا لأنَّنا نرى حاجة مجتمعيَّة لمبادئ هذا الحزب، وحاجة إنسانيَّة لقيمه وفلسفته، وضرورة في أن يخرج من محنته ويعود إلى التركيز على غايته كما فعل مؤسِّسه. للحصول على الجواب لا بدَّ لنا من فهم العقليَّة التي سادت قيادات الحزب منذ أن غادر سعادة الوطن سنة 1938، وحتَّى عودته، ومن بعد استشهاده حتَّى اليوم، لأنَّها، في رأينا، عقليَّة واحدة لم تتغيَّر وإن تغيَّرت الشخصيَّات وتقلَّبت الأحداث. كذلك علينا فهم آليَّة عملها والثغرات الدستوريَّة التي تنفذ منها لتحقيق مآربها. فإذا فهمنا كلَّ هذا، ربَّما يتكوَّن لدينا فهم أفضل لكيفيَّة التعامل معها. في الوقت نفسه، علينا فهم الأجواء التي سادت قاعدة الحزب أثناء هذا الانحراف لنأخذ العبر من ذلك بما يفيدنا اليوم.

لمحاولة فهم هذه العقليَّة والآليَّة والثغرات، سنأخذ حالة واحدة من حالات الانحراف الكثيرة التي مرَّ بها الحزب، حالة "الواقع اللبناني" وندرسها تفصيليًّا ونراقب مسارها على الأرض وبين القوميين عبر قراءتين لاثنين من معاصريها، هما الأمينان الراحلان عبد الله قبرصي وعجاج المهتار. أمَّا سبب اختيار هذا الانحراف تحديدًا فهو أنه بدأ وانتهى في عهد سعادة وقراره فيه كان حاسمًا، ومرجعًا لمعالجة جميع الانحرافات المماثلة.

لقد اخترنا الأمينين قبرصي ومهتار لأنَّ الأول كان مسؤولاً كبيرًا في قيادة الحزب منذ تأسيسه وعضوًا في المجلس الأعلى منذ بداية "الواقع اللبناني" الذي أيَّده ودافع عنه قبل

عودة سعادة. وكان صديقًا حميمًا لنعمة ثابت، ولكنَّه تخلَّى عنه بعد عودة سعادة، وإن تأثَّر جدًا بسبب طرده.

أمَّا الأمين عجاج المهتار، فانتمى أيضًا للحزب وهو سرِّي، وكان عضوًا في (مام)، كما كان من المرافقين لسعادة في معظم المهرجانات أو "أيَّام الحزب" التي أشرنا إليها. هو من شعراء الحزب الكبار باللغة العاميَّة، استوعب مفاهيم النهضة الأساسيَّة وحوَّلها قصائد رائعة ما تزال على ألسنة القوميِّين لليوم دون أن يعرف بعضهم قائلها. لم يكن للأمين المهتار أيَّة مسؤوليَّة إدارية أثناء "الواقع اللبناني" ولكنه كان، كنعمة ثابت وعبدالله قبرصي في معتقل "الميَّة وميَّة" بالقرب من صيدا أثناء بدايات هذا الانحراف، فعارضه وحاربه وأرَّخ له على طريقته الخاصة كما سنبيِّن.

وسنتابع نظرة كلٍّ من الأمينين قبرصي والمهتار عبر نصوص لكلٍّ منهما، ومن ثمَّ نستخرج العبر الممكنة.

"الواقع اللبناني": التبرير

كيف برَّر أصحاب "الواقع اللبناني" هذا الحدث الذي كان الانحراف الأكبر ليس في العقيدة فقط، بل في العقيدة والغاية والدستور والنظام. لقد كان خروجًا شاملاً، وأسَّس لكلِّ ما تبعه من انحرافات.

يذكر الأمين عبد الله قبرصي في مذكِّراته عبد الله قبرصي يتذكَّر، "الواقع اللبناني" أكثر من مرَّة. فقد كان شخصيَّة قياديَّة وعنصرًا محوريًّا من عناصر هذا الانحراف، عايشه منذ بدايته وحتَّى النهاية، غير أنَّه مخلص في نقده لذاته ولسواه بهدف الإضاءة على الأخطاء والاستفادة منها. إنه يقول:

> لولا أنطون سعادة لكنَّا كلُّنا مع الواقع اللبناني، لأنَّنا ما فهمناه – نحن رجال الفكر في الحزب – نقضًا لمفهوم الأمَّة، والقوميَّة، بل فهمناه تفسيرًا مرنًا لتصريح الزعيم الشهير في أوَّل عدد من جريدة النهضة عن الكيان اللبناني.[204]

سنأخذ كلام الأمين قبرصي بتحفُّظ. ففي رأينا، ليس في تصريح سعادة في العدد الأوَّل لصحيفة النهضة عن لبنان ما يمكن استنتاجه مبرِّرًا للقبول "بالواقع اللبناني"، إلاَّ إذا ضمَّنَّا كلمة "مرونة" ما لم تقصده.

204) قبرصي، عبد الله، عبد الله قبرصي يتذكَّر، الجزء الثاني، مؤسَّسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت، 1982 ص. 112.

> ... ثمَّ أنَّ ثقافتنا الحزبيَّة آنذاك، من فؤاد أبو عجرم إلى جبران جريج، ومن معروف صعب إلى أديب قدُّورة ومن كامل أبو كامل إلى أسد الأشقر، لم تكن بالعمق الذي يسمح لنا بأن نكتشف الانحرافات عن المبادئ التي ترتكز عليها العقيدة علميًّا وفلسفيًّا، رغم أنَّنا كنا قد قرأنا نشوء الأمم مرَّات ومرَّات. العصمة في هذا الموضوع كانت وقفًا على سعادة – المُشرِّع الأساسي – الذي حبك العقيدة حبكًا محكمًا ومتكاملاً من هذه المبادئ الفلسفيَّة.
>
> لم نستطع نحن القادة مثلاً أن نكتشف الانحراف في الواقع اللبناني الذي ألقاه نعمة ثابت سنة 1945 في بعقلين.[205]
>
> وكان من أهم تطلُّعاتنا في القيادة الحزبيَّة أن نؤمِّن في ظل الاستقلال مرحلة طويلة من الاستقرار والهدوء بقصد ترميم أوضاعنا وإطلاق الحزب في كلِّ الميادين وكلِّ الجهات. إنَّ أكثرنا كان خلال الحرب قد اهترأ صحيًّا وماليًّا. كان من الواجب أن نستشفي من الاهتراء. الهدف رقم واحد الذي وضعناه نصب أعيننا كان رخصة للعمل الحزبي المعلن.[206]

لا بأس من طلب الاستقرار والهدوء بعد الصعوبات التي مرَّ بها القوميُّون في الحرب. الخطر أن يطول الاستقرار والهدوء لا سيَّما في جوٍّ الفساد الذي كان قد بدأ بالظهور على أشدَّه في عهد بشارة الخوري. أمَّا الخطر الأكبر فهو التآخي مع الفساد. نتابع مع الأمين قبرصي:

> ... حذف كلمة "سوري" (من الرخصة) خفَّف كثيرًا من الاثقال، وأفسح لنا في المجال أن ننجح في إقناع أولي الأمر في السلطة أن يسلِّمونا رخصة.
>
> ... لم يكن من السهل أن نحصل على الرخصة لولا أنَّنا كنَّا مسنودين. إنِّي على يقين أنَّ قرابة نعمة ثابت بزلفا ثابت زوجة كميل شمعون ساعدت على التقارب بين الحزب وبينه، فاغتنمها نعمة فرصة للضغط.[207]

لا بدَّ من شكر الأمين قبرصي على صراحته وعلى تقديمه صورة دقيقة لما جرى. إنَّه يعطينا مسلسل الأخطاء بالتتالي. فلنتابع:

> كنَّا قد اخترنا طريقنا السياسي في لبنان. نحن مع بشارة الخوري ضدَّ إميل إدَّه. نحن إذًا مع كميل شمعون والمير مجيد ضدَّ الدار الجنبلاطيَّة. لم يكن هنالك خيار إمَّا أن تكون قيسيًّا أو تكون يمنيًّا. إمَّا أن تكون جنبلاطيًّا أو تكون يزبكيًّا. ثمَّ لا يجوز في السياسة أن يتحجَّر

205) المصدر نفسه، ص. 114.
206) المصدر نفسه، ص. 115.
207) المصدر نفسه.

الحزب أو يتقولب في قوالب الجمود اللامنتج...!!![208] (علامات التعجُّب لم تكن في النص الأصلي.)

هذا المقطع خطير جدًّا. عدا عن تقزيم الحزب إلى حجم السياسة الجبليَّة اللبنانيَّة وحدودها، فإنَّ الأمين قبرصي في تبريره "الواقع اللبناني" يستخدم سنة 1982، الوصف نفسه الذي استخدمه غسَّان تويني مع سعادة سنة 1946، مع فارق بسيط في العبارة: "الجمود اللامنتج" عوضًا عن "التحجُّر الأكاديمي." إنَّ "الواقع اللبناني" عميق الجذورعلى ما يبدو. فلنتابع:

... موقعنا سياسيًّا بعد أن ناصرنا بشارة الخوري ضدَّ إميل إدَّه، انحصر في هذا النطاق (أي جبل لبنان) ... كانت آثاره السلبيَّة محدودة في الظروف الراهنة ولكنَّها تلك الظروف، جرَّتنا فيما بعد إلى مواقف وسياسات لا نزال نعاني من مضاعفاتها التاريخيَّة، رغم أنَّنا محونا آثارها بدماء شهدائنا الأبرار وبمؤتمر ضخم هو مؤتمر ملكارت سنة 1969.[209]

هذا المقطع المكثَّف بعبارته كبير بدلالاته، ويقتضي الوقوف عنده. الكلام عن "المواقف والسياسات" يمثِّل موقف الحزب من "حلف بغداد" في مطلع الخمسينيَّات ووقوفه في أحداث سنة 1958 في لبنان إلى جانب اليمين اللبناني بقيادة كميل شمعون. يعتبر الأمين قبرصي أنَّ الحزب كفَّر عن هذه المواقف بالتحوُّل إلى اليسار في مؤتمر ملكارت، وعبر دماء الشهداء الذين سقطوا في الحرب اللبنانيَّة إلى جانب أحزاب الحركة الوطنيَّة اللبنانيَّة اليساريَّة. غير أنَّه لا يخبرنا كيف وقعت قيادة الحزب التي يجب أن تكون قد تعلَّمت من أخطاء "الواقع اللبناني" ومعالجة سعادة له في الأربعينيَّات، مثل هذه "المواقف والسياسات" أو "الوقائع" في الخمسينيَّات، واستطرادًا بعدها.

يصف الأمين قبرصي المهرجان الذي أعلن فيه نعمة ثابت "الواقع اللبناني" هكذا:

لفت الأنظار أنَّ المير مجيد إرسلان مشى مع قيادة الحزب، نعمة ثابت وحسن الطويل وفؤاد أبو عجرم ومجلس العمد بمن حضر من أعضائه. كان الاستعراض – دون قصد منَّا – شكلاً من أشكال التحدِّي للقوى السياسيَّة المعارضة، وأُخذ علينا أنَّنا ما تنبَّهنا لهذا الأمر!... **إنَّ القيادة الحزبيَّة كانت آنذاك في طور التدرُّج، فإذا سلكت سبيلاً وضعت على عينها طمَّاشات وسارت باتِّجاه واحد.**[210]

208) المصدر نفسه، ص. 117.
209) المصدر نفسه.
210) المصدر نفسه، ص. 125.

جيد اعتراف الأمين قبرصي بـ "الطمَّاشات" التي وضعتها القيادة على أعينها. لكن تبريره أنَّ القيادة كانت في "طور التدرُّج" غير مقنع. فتلك القيادة لم تكن قيادة متدرِّجة سنة 1944–1945، بل كانت قيادة متمرِّسة استلمت مقدِّرات الحزب في الوطن منذ سنة 1938، ناهيك أنَّ من بين أعضائها مَن انتمى إلى الحزب في المرحلة السريَّة وتدرَّج في المسؤوليَّات حتَّى أعلاها، وفي طليعتهم الأمين قبرصي نفسه.

يتابع الأمين قبرصي وصفه للحشود وكيف توقَّفت أمام قصر بيت الدين حيث طلب هو نفسه من رئيس الجمهوريَّة بشارة الخوري – الذي كان سعادة قد هاجمه هجومًا قاسيًا في سلسلة "الأحزاب الببغائيَّة" بأن "**يطلَّ ويبارك الحشود**". ويختم تلك الفقرة من الوصف بقوله: "**من طبيعتنا أن نتحدَّى دون أن نحسب حسابًا للعواقب.**"[211]

يحلِّل الأمين قبرصي بعد ذلك أسباب هذا التحالف فيقول:

أيكون تأثير كميل شمعون يومذاك، وهو من الكتلة الخوريَّة التي سمِّيت الكتلة الدستوريَّة – أم تأثير الإنجليز هو الذي دفع نعمة – وكان الموحي بسياسة الحزب الداخليَّة والخارجيَّة – إلى اتِّخاذ ذلك الموقع؟ أم أنَّ الخطوة الأولى التي خطوناها – أي خطاها الحزب ونحن في المعتقل – بتأييده لائحة بشارة الخوري 1943، هي التي تسلسلت عنها الخطوات التاليات؟ الصحيح أنَّ المنطق يفرض القول تكرارًا إن الخطوة الأولى كانت حاسمة، عندما تختار حليفك على الساحة السياسيَّة اللبنانيَّة لا يمكن أن تبدِّله كما تبدِّل قميصك.[212]

... صفَّق الناس طويلاً – ونحن منهم – للخطباء (نعمة ثابت وفايز صايغ). أكرِّر أنَّنا ما كنَّا قد بلغنا درجة التعمُّق في فلسفة النهضة ولم نلاحظ على الإطلاق أنَّ نعمة ثابت خرج عن الخط العقائدي، فصفَّقنا له جميعًا دون استثناء كبارًا وصغارًا.[213]

ثمَّ يعترف الأمين قبرصي بما كنَّا قد أشرنا إليه عن وجود خطَّين داخل الحزب:

الخط الليِّن السياسي والدبلوماسي، والخط المتصلِّب الصراعي العقائدي. لم تكن الخيوط التي تفصل الخطَّين واضحة إلاَّ أنَّ الأشخاص كانوا واضحين... نعمة ثابت ومأمون أياس وأسد الأشقر وفؤاد أبو عجرم وفايز صايغ وعبد الله سعادة وأديب قدُّورة وغسَّان تويني وعبد الله قبرصي من الخط السياسي الليِّن الذي كان يضع في رأس أهدافه إبقاء الحزب في حالة هدنة مع السلطات الحاكمة ومع أصحاب النفوذ والسلطان، فيعوِّض عن سني الضغط

211) المصدر نفسه.
212) المصدر نفسه.
213) المصدر نفسه، ص. 126.

والملاحقات والاضطهاد، فيشتدُّ ساعده وتتراخى قبضة مضطهديه ومخاصميه والمتوجِّسين منه خيفة وحذرًا والمتربِّصين به شرًّا وسوءًا.[214]

نستعين بمقطعين أخيرين من مذكَّرات الأمين قبرصي، يقول في المقطع الأول:

... بل إنَّ الواقع اللبناني لم يلفت نظر إلا عميد الإذاعة آنذاك كريم عزقول وعميد الماليَّة جبران جريج والمتصلِّبين كعجاج المهتار وجورج عبد المسيح وقلَّة أخرى، وقد كتب بعضهم إلى سعادة للأرجنتين يلفته إلى الانحراف العقائدي في ذلك الخطاب الذي ألقاه نعمة ثابت في مهرجان بعقلين.[215]

بعد هذا المقطع، يتكلَّم الأمين قبرصي عن مشادَّة كانت قد حصلت بين نعمة ثابت ومعروف صعب أدَّت إلى تقديم معروف صعب شكوى إلى المجلس الأعلى الذي كان يرأسه ثابت موضوعها "تفرُّد نعمة ثابت وخروجه على الدستور والعقيدة." خصِّصت جلسة لذلك ترأسها عبد الله سعادة، "وقد انتهت الجلسة إلى تفاهم وتصافٍ لا إلى حكم بالإدانة أو التبرئة. الطريقة اللبنانيَّة في معالجة الخلافات حتَّى المبدئية منها، انتقلت بالعدوى إلى مؤسَّساتنا القياديَّة."[216]

أما آخر ما ننقله عن الأمين قبرصي في هذا الصدد، هذا المقطع في سياق الكلام عن القيادة التي روَّجت "للواقع اللبناني":

الخلاصة أنَّنا لم نكن بأحسن حال، إلاَّ أنَّ الاستقرار كان طابع المرحلة. لم يكن بدٌّ بنظري من فترة هدنة طويلة لإعداد القوميِّين الاجتماعيِّين لتحمُّل أي صراع يستجدُّ. ومهما يكن من الأمر فإنَّ **نظامنا المركزي الصارم كان يحمي القيادة – ويحميها حتَّى اليوم – ممَّا يمكن أن ترتكب من أخطاء!!!!**

ما نقلناه من مذكِّرات الأمين الراحل عبد الله قبرصي يكفي للتحليل:

أوَّلاً: يعترف الأمين قبرصي، بعد أن ينفي ذلك أكثر من مرَّة، وجود مَن فهم خطورة "الواقع اللبناني"، وحذَّر منه، واشتكى إلى المجلس الأعلى، بل حتَّى إلى الزعيم، منهم عميدان وعضو مجلس أعلى، ورفقاء آخرون. بذا، لم تكن القيادة غير مدركة هول هذا الانحراف، بسبب "قلَّة الثقافة الحزبيَّة"، بل كان هذا الموضوع محطَّ نقاش محتدمٍ على أعلى المستويات.

214) المصدر نفسه، ص. 137.
215) المصدر نفسه، ص. 138.
216) المصدر نفسه.

ثانيًا: لم يكن "الواقع اللبناني" بحاجة إلى "تعمُّق في فلسفة النهضة" لكي يُدْرَك خطره. الأمين عجاج المهتار الذي يصنفه الأمين قبرصي في خانة "المتصلِّبين"، لم يكن "متعمِّقًا في فلسفة النهضة". فهو لم يدخل مدرسة بل تعلَّم القراءة والكتابة في السجن، ولكنَّه أدرك خطر هذا الانحراف، وعارضه وكتب إلى الزعيم عنه. ومن الطبيعي وجود عدد كبير من القوميِّين مثل الأمين عجاج المهتار. وقد نوَّه سعادة بعد عودته بأنَّ انتشار هذه المفاهيم كان سطحيًّا، لكنَّه استغرب في الوقت نفسه كيف قبل القوميُّون بها باسم النظام.

ثالثًا: إنَّ مجرَّد تصنيف، بل اتِّهام، الأمين قبرصي بعض الرفقاء بأنَّهم من "المتصلِّبين" فيه دلالة غير صحيَّة. لقد عانى الحزب منذ استشهاد سعادة من علَّة "التصنيف" والفئويَّات: هذا "رجعي"، وذاك "تقدُّمي"، هذا "يميني" وذاك "يساري"، هذا "معنا" وذاك "ضدَّنا"، كلُّ هذا داخل الحزب.

رابعًا: إنَّ اللغة التي يستعملها الأمين قبرصي ذات دلالة قويَّة على الشخصيَّات والنفسيَّات التي قادت الحزب، والعقليَّة التي سادته والمنهجيَّة التي حكمت سيره. إنَّه يصفها قيادة "**تضع الطمَّاشات وتسير**"، أو القيادة التي "**من طبيعتها أن تتحدَّى دون أن تحسب حسابًا للعواقب.**" أو القيادة التي تطلب من بشارة الخوري "**أن يبارك الحشود**". هل هذه فعلاً قيادة الحزب؟ هل هكذا عمل سعادة وخطَّط وحسب حساب كلِّ شاردة، بما فيها "عدد النملات على بيادر الإقطاعيِّين،" كما مرَّ؟

المأساة أنَّ بعض مَن لم يطلهم التطهير من قيادة "الواقع اللبناني"، وتلامذته، استمرَّ في قيادة الحزب حتَّى التسعينيَّات من القرن الماضي. فوضعوا الطمَّاشات وسدُّوا آذانهم عن تساؤلات القوميِّين وشكاويهم أو تحذيراتهم في أكثر من مرحلة.

خامسًا: قول الأمين قبرصي، "**فإنَّ نظامنا المركزي الصارم كان يحمي القيادة – ويحميها حتَّى اليوم ممَّا يمكن أن ترتكب من أخطاء**" هو قول خطير جدًّا. إنه مفهوم معكوس للنظام ودوره فيما أراده سعادة كما بيَّنَّا حين تكلَّمنا عن مقالة "النظام"، وتكمن خطورته في أنَّه معمولٌ به حتَّى اليوم. **النظام في حدِّ ذاته هو لخدمة القضيَّة وليس لحماية الانحراف.** هكذا أراده سعادة. بل إنَّ عدد القياديِّين أو المساعدين الذين طردهم سعادة أو عزلهم كبيرٌ جدًّا. بعضهم بسبب خيانته وبعضهم بسبب أخطاء جسيمة ارتكبها، وبعضهم بسبب خروجه العقائدي، أو جنوحه لرأي فلسفي يهدِّد أسس الحزب. إنَّ اعتراف قبرصي بهذا الكلام يدلُّ على حجم الثغرة التي أشرنا إليها من قبل، وهي ثغرة قضائيَّة لا جدال، هدَّدت الحزب وتهدِّده، ولنا عودة إليها.

سادسًا: الدونيَّة التي ينطلق منها الأمين قبرصي في كلامه عن بشارة الخوري وعن مجيد إرسلان وسواهما من السياسيِّين اللبنانيِّين، وتقزيمه لدور الحزب كما وصف، أدَّت إلى انكفاء عدد كبير من القوميِّين عن الحزب، وكان صدى المقالات التي كتبها سعادة في نقده هؤلاء السياسيِّين سنة 1937، يرنُّ في آذانهم.

سابعًا: عدوى الطريقة اللبنانيَّة في حلِّ المشاكل "حتَّى المبدئيَّة منها" خطر كبير على مفهوم العدالة في الحزب، ناهيك عن أنَّه لا يحلُّ مشكلاً بل يؤجِّله، كما مرَّ في مطلع الفصل السابق.

ثامنًا: قول الأمين قبرصي، "لم يكن بدٌّ بنظري من فترة هدنة طويلة لإعداد القوميِّين الاجتماعيِّين لتحمُّل أيِّ صراع يستجد"، يسحب المبادرة من يد الحزب ويضعها في يد "المستجدَّات"، وهذا أسلوب دفاعي بحت. لم يكن هذا أسلوب سعادة في العمل، انطلاقًا من إطار إدارة الاستراتيجيَّة الذي تكلَّمنا عنه. لقد كان سعادة يبادر إلى الهجوم ويجبر الخصم على طلب الهدنة ليبدأ بعدها جولة جديدة.

تاسعًا: هذا القول، وانصراف قيادة الحزب إلى العمل السياسي، يفترض أنَّ الحزب قد حقَّق معظم أهدافه وأصبح في وضع يمكِّنه من أخذ "فترة نقاهة طويلة جدًا".

عاشرًا: تصوُّر القيادة آنذاك، أنَّه بمجرَّد "إبقاء الحزب في حالة هدنة مع السلطات الحاكمة ومع أصحاب النفوذ والسلطان، يعوِّض عن سني الضغط والملاحقات والاضطهاد، **فيشتدُّ ساعده وتتراخى قبضة مضطهديه ومخاصميه والمتوجِّسين منه خيفة وحذرًا والمتربِّصين به شرًا وسوءًا**"، في رأينا، تصوُّر ساذج. هذا "السلطان" هو نفسه الذي شنَّ عليه سعادة الهجوم في عمَّاطور وبكفيًّا وصافيتا. إنَّه الإقطاع الزمني والإكليروس الديني. إنَّه الأحزاب الببغائيَّة. إنَّه التنِّين متعدِّد رؤوس الفساد الذي وصفه في خطاب "دير الغزال". كان هذا "السلطان" مستعدًا لدفع أيِّ ثمن لكي يُدخل الحزب في سبات طويل لأنَّه أدرك أنَّ قبضة الحزب هي التي سوف تتراخى، أما اليد التي سوف تلتفُّ على عنقه فهي يد "السلطان".

حادي عشر: وصف قبرصي لنعمة ثابت بأنَّه "الموحي بسياسة الحزب الداخليَّة والخارجيَّة" عبارة مستوحاة تمامًا من "الطريقة اللبنانيَّة". إنها لا تحمِّل نعمة ثابت كامل المسؤوليَّة عن الانحراف، ولا تحمِّل المؤسَّسات العليا كامل المسؤوليَّة عن التقصير في وقف الانحراف.

ثاني عشر: إذا سلَّمنا جدلاً بأنَّ أعضاء المجلس الأعلى لم يعرفوا أنَّ "الواقع اللبناني" خروج، وأنَّه كان عليهم الانتظار حتَّى يعود سعادة ليدركوا ذلك، فإنَّ تاريخ الحزب يشير إلى أنَّهم إمَّا لم يحفظوا الأمثولة أو تجاهلوها وعادوا إلى عادتهم القديمة بعد استشهاد سعادة. دليلنا هو قول الأمين قبرصي: "تلك الظروف، جرَّتنا فيما بعد إلى مواقف وسياسات لا نزال نعاني من مضاعفاتها التاريخيَّة." فإذا كانوا لم يعرفوا، وسعادة علَّمهم أنَّ "الواقع اللبناني" خطأ، فكيف عادوا إلى الوقوع في مواقف وسياسات عانى الحزب من "مضاعفاتها التاريخيَّة"؟ ولا تقتصر هذه المواقف والسياسات على خطأ "الواقع اليميني"، بل تشمل، في رأينا، أخطاء كلِّ "الوقائع" التي جرَّت القيادات ذاتها الحزب إليها ووجدت تبريرًا لكلٍّ منها، لتعود وتنتقد نفسها بعد فوات الأوان.

ثالث عشر: إن قول الأمين قبرصي، "أيكون تأثير كميل شمعون يومذاك، وهو من الكتلة الخوريَّة التي سمِّيت الكتلة الدستوريَّة – أم تأثير الإنجليز هو الذي دفع نعمة – وكان الموحي بسياسة الحزب الداخليَّة والخارجيَّة – إلى اتِّخاذ ذلك الموقع؟" يطرح سؤالاً كبيرًا، هل كان ثمَّة محفِّزات قُدِّمت لقيادة الحزب لإتخاذ "ذلك الموقع" وما هي؟

في المقلب الآخر: رسالة "إفلاس"

نعتقد أنَّ مذكَّرات الأمين قبرصي أعطتنا فكرة واضحة عن العقليَّة التي كانت سائدة في قيادة الحزب وأوصلت إلى "الواقع اللبناني"، والتبريرات التي أقنعت نفسها بها، وحاولت إقناع القوميِّين. فهل اقتنع هؤلاء؟ كيف كانت ردود أفعالهم؟ وماذا فعلوا؟

ذكر الأمين قبرصي في مذكِّراته، كما مرَّ، أنَّ بعضهم كتب إلى سعادة للأرجنتين يلفت نظره إلى الانحراف العقائدي في خطاب نعمة ثابت في بعقلين. لا نعرف إذا كان أكثر من شخص كتب إلى سعادة بهذا الخصوص، لكنَّنا نعرف أنَّ بين أوراق الأمين عجاج المهتار غير المنشورة رسالة بعنوان: "إفلاس"، موجَّهة إلى "حضرة الزعيم الجليل" وتاريخها تمَّوز/يوليو 1946.

كان الأمين عجاج المهتار بصدد إرسال هذه الرسالة إلى سعادة في الأرجنتين، ولكن بعد الإعلان في مهرجان ضهور الشوير من تلك السنة، عن عودة سعادة المرتقبة، احتفظ بها وسلَّمها له باليد بعد عودته.[217] ليس لدينا نسخة أصليَّة من تلك الرسالة، ولكن مسوَّدتها الأولى، وكذلك النسخة التي أعاد الأمين عجاج المهتار نسخها وتنقيحها بعد

217) المهتار، عجاج، أوراق غير منشورة، "أيَّام الحزب"، يوم العودة.

سنوات. سنعتمد المسوَّدة الأولى لنأخذ فكرة عن ردود أفعال الصفِّ الحزبي على "الواقع اللبناني"، وكيف تصرَّف حياله.

الرسالة طويلة وشاملة وتتضمَّن مقدِّمة بالإضافة إلى الأبواب التالية:

- إفلاس في المناقب القوميَّة.
- إفلاس في السيطرة على الأعضاء والفروع.
- بتر المبادئ القوميَّة (وهي موضوع هذا القسم، أي "الواقع اللبناني").
- لمحة عن الأحزاب الأخرى وحجمها ونموِّها على حساب الحزب.

سنستعين بمقدِّمة الرسالة وبفصل "بتر المبادئ القوميَّة" منها، لأنَّهما، في رأينا، يعطيان صورة وافية عمَّا نبحث عنه، إضافة إلى أنَّهما يخاطبان واقع الحال في الحزب، فكأنَّهما يصفان ما يدور فيه اليوم.

من مقدِّمة الرسالة

إلى الزعيم سعادة

إن شوقي إليكم هو شوق الأمَّة إلى منقذها والبلاد إلى ابنها الحبيب، وهل بإمكان عاجز مثلي أن يتمكَّن من تصوير عاطفة الأمَّة وشوق البلاد إلى زعيمها الجبَّار ومنقذها الأمين بمداد من قرطاس؟ علوَّاه!

إنَّ الوجدان القومي الذي أيقظته فينا، بعد غفلته الطويلة، وقد انتصب منذ يقظته رقيبًا جبَّارًا على أعمالنا وتصرُّفاتنا القوميَّة – هو الذي يملي عليَّ هذه الرسالة، والأمانة الصادقة، والإخلاص المجرَّد يشفعان بي لديكم عن كلِّ هفوة أو تقصير.

ولم يكن تأخيري إلى اليوم عن تقصير أو عدم كشف الواقع المؤلم الذي نحن فيه – إنَّما كان تربُّصًا لعلَّ الله يهدينا إلى إصلاح أنفسنا بأنفسنا، فتأتيكم أخبارنا سارَّة مشرِّفة لنا ولدى التاريخ، وتكون لكم بمثابة تعزية عن الغربة والتشتيت ومكافئة على معجزة أتيتموها في بلاد وأمَّة لا ينقذهما إلاَّ المعجزات.

ولكن الانتظار، مع الأسف الشديد طال، ولم يزد العلَّة إلا تمكينًا ويخشى إذا طال السكوت أن يتعذَّر على الطبيب مهما يكن حاذقًا، استئصالها وشفاء العليل منها.

ولمَّا كان لا بدَّ للحقيقة من الظهور إن عاجلاً أو آجلاً. وحيث أنَّ السكوت عن العلَّة وإخفائها عن الطبيب يؤدِّي إلى قتل المريض – وهذا جريمة.

وبما أنَّنا تعلَّمنا الصراحة وقول الحقِّ من معلِّمنا الأوَّل، الزعيم.

أتينا بحقيقتنا العارية.... مستغفرين عن وضع هذه الرسالة وهي الأولى منَّا لحضرتكم تحت عنوان "إفلاس."

... إذا جاز لنا الحكم على الأسباب من خلال النتائج، ووزن الأشخاص بمثقال خلاصة الأعمال فلا بدَّ لنا من الإعلان، بمزيد الأسف، أنَّ الذين تسلَّموا مقدَّرات "الحزب السوري القومي" طوال سبع سنوات – وكانوا القائد الوكيل في غياب القائد الأصيل – قد أفلسوا إفلاسًا معنويًّا، إداريًّا، ومناقبيًّا، إفلاسًا إذا انكشف بحقيقته للرأي العام فقد يجرُّ إلى إفلاس النهضة القوميَّة – إذا لم يأت المنقذ لا سمح الله – ويجرُّ بالتالي إلى إفلاس الأمَّة السوريَّة النبيلة ويأسها من كلِّ إصلاح وعقمها وفنائها إلى الأبد.

... قد يقول قائل: "إنَّ الحزب السوري القومي لا يزال حزبًا، والفروع فروعًا، وإنَّ عدد أعضائه بتزايد مستمرٍّ، وإنَّ للحزب جريدة يوميَّة، ومكتبًا على تواضعه بالنسبة لأزمة السكن، مقبولاً، وإنَّ المنشورات الحزبيَّة الإذاعيَّة والثقافيَّة غنيَّة وخصبة. والمهرجانات الكبيرة المتعدِّدة التي أقامها الحزب في الصيف الماضي في بعض مقاطعات لبنان والخ... كل هذه مظاهر ناطقة بوجود الحزب واستمرار حيويَّته.

فلو سلَّمنا بهذا القول – مع الكثير من التحفُّظات – لا بدَّ لنا من الاعتراف بأنَّ الحركة اليوم أشبه بآلة تسير بقوَّة الاستمرار، ولكنَّها خالية من الروح والقلب والدماغ، وما روح الحركة القوميَّة الوثَّابة وقلبها النابض ودماغها الخلاَّق المبدع إلاَّ زعيمها وخالقها.

ولا بدَّ لنا من التأكيد بأنَّ الحركة تسيِّرها الظروف – اليوم – أكثر ممَّا يسيِّرها ويقودها "المركز"، وللحزبيَّة المحليَّة والخلافات الموضعيَّة الكثيرة في القرى والمدن والأحياء، اليد الطولى في تسيير الحركة وتكثير عدد الأعضاء – ولكنَّها كثرة التضخُّم المضر الفاسد – لأنَّها بدون مسيِّر ولا ضابط. ولأنَّ الفهم والإيمان والطاعة والإخلاص مناقب لا تعرف طريقًا إلى قلوب الكثيرين من أعضاء الحزب وفروعه الجديدة. وإذا كان صميم الحركة "المركز" قد تخلَّى عن المقدَّس الثمين من هذه المناقب فهل من المستغرب أن تتركها الفروع؟"[218]

من قسم "بتر المبادئ القوميَّة"

لقد تلبننت فكرة "القوميَّة السوريَّة" في لبنان واستعربت في الشرق والشمال والجنوب إلى مدى بعيد.

218) المهتار، عجاج، أوراق غير منشورة، رسالة "إفلاس"، المقدِّمة.

فاللبناني اليوم يفهم الفكرة من خلال لبنانيَّته، وحزبيَّته الطائفيَّة المحليَّة، ويدوم احتفاظه بها ما دامت تؤمِّن له مصلحته وحزبيَّته المحليَّة، وتحافظ له على "أصنامه" الإقطاعيَّة والطائفيَّة.

وقد تجلَّت هذه الظاهرة الخطيرة في معارك الانتخابات النيابيَّة العامَّة والفرعيَّة، فقد رأينا المئات من القوميِّين والبارزين منهم أحيانًا، يتركون أنصارهم ويضربون عرض البحر بأوامر "المركز" في سبيل المحافظة على حزبيَّتهم المحليَّة وعلاقاتهم الشخصيَّة. لا سيَّما وقد ذاب الحزب أو كاد، في الكتلة الدستوريَّة وحزبيَّة المير مجيد في مواسم الانتخابات قبل الرخصة وبعدها.

... وظهرت لبننة الفكرة ونمت مع الزمان منذ استحصل المركز على "رخصة رسميَّة" من الحكومة للعمل الحرِّ في منطقة لبنان باسم "الحزب القومي" رئيسه الدائم نعمة ثابت، ببرنامج يحمل المبادئ الإصلاحيَّة مشوَّهة مبتورة، ويهمل المبادئ الأساسيَّة وخالقها أيضًا. وكان ذلك في 20 مايو، 1944. فمنذ ذلك الوقت تلبنن "المركز" إلى حدٍّ بعيد ومفضوح ومستغرب، وأصبح التلفُّظ باسم الزعيم جريمة، وذكر سورية كفر ووضع شارة الحزب الأصليَّة "الزوبعة" مخالفة إداريَّة يعاقب عليها، وافتتاح الاجتماعات العامَّة والخاصَّة باسم سورية والزعيم، أو الهتاف بهذين الاسمين المقدَّسين ممنوع منعًا بتاتًا بموجب أوامر حزبيَّة رسميَّة صادرة عن عمدة الداخليَّة الموقرة.

ولم يقتصر إلغاء جميع هذه التقاليد على الكتابة والتعاميم – ظاهريًا – فحسب، بل هي سائرة في طريق التلاشي والنسيان بين صفوف المركزيِّين وجميع المتلبننين. وحجَّة المركزيِّين – على هذا التصرُّف الشاذ – ظاهرها المحافظة على الرخصة وباطنها عند علَّام الغيوب، وأنَّ الحكومة تنتزع هذه الرخصة عند أقلِّ مخالفة أو هفوة تخلُّ بشروط المعاهدة. وقد رضي المركزيُّون على ما يبدو بالتخلِّي عن جميع المناقب والتقاليد القوميَّة **وقبلوا بالتخلِّي عن المبادئ والفكرة والهدف والنهضة في سبيل المحافظة على الرخصة** و"مركزيَّتهم" ومن حقِّهم المحافظة عليها. ألم تؤمِّن لهم وضع أسمائهم في سجلِّ التشريفات الحكوميَّة! وأوجبت دعوتهم في المناسبات الرسميَّة والأعياد الطائفيَّة! وضمنت بقاءهم مسؤولين دائمين عن مقدَّرات الحزب حيال الحكومة؟ فإذا تنازلوا عن التقاليد والمناقب القوميَّة في سبيل المحافظة على الرخصة المباركة – فلا عجب ولا خسارة!

إنَّ تلبنن الفكرة القوميَّة لم يقتصر على "المركز" والأعمال الداخليَّة فحسب، بل تعدَّاه إلى الأشخاص والفروع، وتغلغل في النفوس وبين الضلوع، وجاهر به مَن لكلماتهم صدى مسموع في الأوساط المارونيَّة. وهذا كتاب الرفيق أسد الأشقر "من صميم لبنان" الذي أصدره الشهر

> المنصرم في مصر أصدق برهان. فالفكرة اللبنانيَّة طاغية على هذا الكتاب حتَّى باسمه.
>
> وهو يعلن بشبه صراحة، إفلاس الحزب والشعب معًا في محاضرته "الحالة الراهنة" عندما يقول "إنَّ الشعب قد مُسَّ في صميمه،" إلخ... ويتجاهل أقدميَّة الحزب السوري القومي عندما يعرض المنظَّمات والحركات الجديدة وينعتها بالجملة: "بالمدرسة الجديدة."
>
> وجريدة الحزب "صدى النهضة" "متلبننة" "مستعربة" معًا. فهي الآن في العدد 85 (على الأرجح إذ أن النص غير واضح) ولم نر أنَّها عالجت أيَّ موضوع من خلال فكرة الحزب السوري القومي الأصليَّة كما كانت تفعل "النهضة" في أحرج الأوقات وتحت أقسى الظروف الاستعماريَّة الغاشمة...."

وبعد أن يسرد الأمين المهتار تفاصيل الانقسام الذي حصل بين رفقاء الداخل (الشام) ورفقاء لبنان، وطرد المسؤولين في لبنان لبعض الرفقاء الشوام، وتهديد هؤلاء بطرد الرفقاء اللبنانيِّين، والخلافات داخل المجلس الأعلى يختم بهذه العبارات:

> هذا قليل من كثير على بيِّنات الإفلاس الذي مُني به "المركزيُّون" في غياب الزعيم... وهناك حقيقة لا يمكن إنكارها وهي أنَّ تعاقب السجون والاعتقالات القاسية طيلة أيَّام الحرب كان عاملاً فعَّالاً في تأخير ظهور هذا الإفلاس، وكان الاعتقال في كلِّ مرَّة بمثابة المنقذ أو المؤخِّر عن الوصول إلى هذا الواقع المؤلم الذي وصلنا إليه.
>
> إنَّ الحزب اليوم هو أشبه بمملكة آل عثمان في آخر أيَّام "عبد الحميد" أخصامه كثيرة وقويَّة ومحدقة به من كلِّ صوب ومصمِّمة على سحقه ولكنَّها لا تزال تتهيَّب قوَّته وتتوهَّم مناعته، فهي لو علمت بضعفه الداخلي وبفساد أعمال بعض المسؤولين، وأن ضربة واحدة قويَّة قد تكون هي القاضية عليه لما تأخَّرت حتَّى اليوم عن تسديد هذه الضربة...
>
> .. إنَّ القوميِّين المخلصين الذائبين في قوميَّتهم السوريَّة منكمشون على أنفسهم يرقبون مجرى الأمور بألم ومرارة، وما سكوتهم إلاَّ احترامًا لمشيئة "صاحب الوزنات" ومحافظة على "الوزنات" وعلى مؤسَّسة يقدِّسونها وقد أذابوا زهر العمر في سبيل بقائها وسلامتها، ويعلمون أنَّ أيَّة حركة في داخلها – في غياب الزعيم – تؤدِّي حتمًا إلى مثل نتائج مصرع يوليوس قيصر..."

للرسالة ذيل بعنوان – الإصلاح – هذا نصه:

> "قصَّة يوسف ألف بيت وبيت بيجمع الكل."
>
> وأوَّل الحكاية وآخرها تتوقَّف على الجواب عن هذا السؤال:

"هل المعلِّم سيعود أم لا...؟"

فإذا حاولنا الهدم قبل أن نعدَّ العدَّة، ونحضر المواد والبنَّائين لتعمير أفضل ممَّا سنهدم، فيكون عملنا ناقصًا وبالتالي فاشلاً...

وإذا حاولنا الترقيع تظهر العيوب العتيقة في الثوب المهلهل، من خلال الرقع الجديدة فترك الأسمال على حالها "أستر" وأفضل...

فلا إصلاح إلا بنسف الجميع...

لإشادة ما هو أكمل وأفضل

ولا يمكن إجراء عمليَّات "النسف" ومن ثمَّ "البناء" إلَّا بوجود المعلِّم الأوَّل والمهندس الأعظم.

وإذا كان – لا سمح الله – لن يأتي فلنردِّد عندئذٍ مع "شمشون" الجبَّار:

"عليَّ وعلى أعدائي يا رب."[219]

بين قراءتين

لا شكَّ أنَّ هاتين القراءتين "للواقع اللبناني" من أمينين من الرعيل الأوَّل، وقد كتبتا باستقلالية الواحدة عن الأخرى تمامًا، تعطيان صورتين متناقضتين عن حقيقة واحدة اسمها "الواقع اللبناني".

الأمين قبرصي في عمليَّة نقد ذاتيٍّ، يحاول تقديم تبريرات تبدو متناقضة بين صفحة وأخرى من مذكِّراته كما رأينا. ويحاول في الوقت نفسه أن يظهر الانحراف عمليَّة فكريَّة بحت اقترفها نعمة ثابت منفردًا انتهت بإخراجه من الحزب. ولكنه في محاولته تلك، يقدِّم أدلَّة كافية عن حالة إفلاس شاملة تزكِّي الصورة القاتمة التي يقدِّمها الأمين عجاج المهتار.

الصورة التي يقدِّمها الأمين عجاج المهتار تظهر حالة انحراف كامل شمل المؤسَّسات القياديَّة ولم ينحصر في نطاق الفكر، بل تناول أدقَّ التفاصيل في كلِّ ما له علاقة بالإدارة والسياسة والإعلام لدرجة منع استعمال عبارات الحزب وإشاراته، فلا يمكن بالتالي ألَّا يكون الأمين قبرصي – عضو المجلس الأعلى على معرفة بها.

إذا عدنا إلى النصوص التي اقتطعناها من رسالة الأمين عجاج المهتار، نجد فيها من

219) المصدر نفسه، فصل "بتر المبادئ القوميَّة".

المسائل الفكريَّة والنظاميَّة والتنظيميَّة ما يذهل قارئ اليوم لاستشرافها مستقبل الحزب وتحذيرها من موت النهضة في حال استمرَّ نهج "الواقع اللبناني":

أوَّلاً: يستهلُّ المقدِّمة بالقول: "الوجدان القومي هو الرقيب على الأعمال".

ثانيًا: يتخوَّف من أن يؤدِّي الإفلاس في المناقب إلى قتل النهضة.

ثالثًا: يعتبر الصدق والصراحة واجبًا على الأعضاء كما علَّمهم الزعيم.

رابعًا: يحكم على الأسباب (وضمنًا الأشخاص) من خلال النتائج وليس النوايا.

خامسًا: لا ينخدع بالمظاهر من فروع وأعضاء جدد ومهرجانات وصحيفة حزبيَّة، بل يرى الحزبَ من خلال كلِّ هذه المظاهر آلة بلا روح تسير بقوَّة الدفع والاستمرار. (يتطابق هذا مع ما أشرنا إلى خطر وقوعه في الشكل رقم 15، المتعلِّق بإهمال الغاية في أيَّة مؤسَّسة.)

سادسًا: يرى الحركة تسيِّرها الظروف وليس العكس.

سابعًا: يخشى من التضخُّم العددي الخالي من المناقب القوميَّة.

ثامنًا: يلحظ كيف كانت الاعتقالات عاملاً في تأخير الكشف عن "الإفلاس".

تاسعًا: يرى الخطر الكبير على الحزب فيما لو عرف أخصامه بضعفه الحقيقي، وهذه الرؤية تحقَّقت سنة 1949، حين ضُرب الحزب واعتُقل أعضاؤه خلال ساعات، ولم يستطع حراكًا أمام محاكمة زعيمه الصوريَّة وإعدامه.

عاشرًا: يعلن رفض القوميِّين لما يجري، ليس باسم النظام فقط، بل احترامًا لصاحب "الوزنات"، وللأثر السلبي الذي سوف يقع على الحزب فيما لو تصرَّف القوميُّون مع المنحرفين كما يتمنَّون: حالة مأساويَّة مثل نهاية قيصر.

حادي عشر: يفهم خطورة الهدم قبل الإعداد لبناء أفضل.

ثاني عشر: يشهد على انكفاء القوميِّين وانكماشهم بسبب الفساد المُستشري.

ثالث عشر: يربط موقفه، وموقف سواه من القوميِّين بعودة الزعيم. ففي عودته إنقاذٌ للحزب، أمَّا إذا قرَّر عدم العودة: "فعليَّ وعلى أعدائي يا رب".

الأزمة الوجدانيَّة

تظهر الرسالة الأزمة الوجدانيَّة والعمليَّة التي عاشها الأمين عجاج المهتار أثناء كتابتها،

"هل المعلِّم سيعود أم لا...؟"

فإذا حاولنا الهدم قبل أن نعدَّ العدَّة، ونحضر المواد والبنَّائين لتعمير أفضل ممَّا سنهدم، فيكون عملنا ناقصًا وبالتالي فاشلاً...

وإذا حاولنا الترقيع تظهر العيوب العتيقة في الثوب المهلهل، من خلال الرقع الجديدة فترك الأسمال على حالها "أستر" وأفضل...

فلا إصلاح إلا بنسف الجميع...

لإشادة ما هو أكمل وأفضل

ولا يمكن إجراء عمليَّات "النسف" ومن ثمَّ "البناء" إلاَّ بوجود المعلِّم الأوَّل والمهندس الأعظم.

وإذا كان - لا سمح الله - لن يأتي فلنردِّد عندئذٍ مع "شمشون" الجبَّار:

"عليَّ وعلى أعدائي يا رب."[219]

بين قراءتين

لا شكَّ أنَّ هاتين القراءتين "للواقع اللبناني" من أمينين من الرعيل الأوَّل، وقد كتبتا باستقلالية الواحدة عن الأخرى تمامًا، تعطيان صورتين متناقضتين عن حقيقة واحدة اسمها "الواقع اللبناني".

الأمين قبرصي في عمليَّة نقد ذاتيٍّ، يحاول تقديم تبريرات تبدو متناقضة بين صفحة وأخرى من مذكَّراته كما رأينا. ويحاول في الوقت نفسه أن يظهر الانحراف عمليَّة فكريَّة بحت اقترفها نعمة ثابت منفردًا انتهت بإخراجه من الحزب. ولكنه في محاولته تلك، يقدِّم أدلَّة كافية عن حالة إفلاس شاملة تزكِّي الصورة القاتمة التي يقدِّمها الأمين عجاج المهتار.

الصورة التي يقدِّمها الأمين عجاج المهتار تظهر حالة انحراف كامل شمل المؤسَّسات القياديَّة ولم ينحصر في نطاق الفكر، بل تناول أدقَّ التفاصيل في كلِّ ما له علاقة بالإدارة والسياسة والإعلام لدرجة منع استعمال عبارات الحزب وإشاراته، فلا يمكن بالتالي ألاَّ يكون الأمين قبرصي - عضو المجلس الأعلى على معرفة بها.

إذا عدنا إلى النصوص التي اقتطعناها من رسالة الأمين عجاج المهتار، نجد فيها من

219) المصدر نفسه، فصل "بتر المبادئ القوميَّة".

المسائل الفكريَّة والنظاميَّة والتنظيميَّة ما يذهل قارئ اليوم لاستشرافها مستقبل الحزب وتحذيرها من موت النهضة في حال استمرَّ نهج "الواقع اللبناني":

أوَّلاً: يستهلُّ المقدِّمة بالقول: "الوجدان القومي هو الرقيب على الأعمال".

ثانيًا: يتخوَّف من أن يؤدِّي الإفلاس في المناقب إلى قتل النهضة.

ثالثًا: يعتبر الصدق والصراحة واجبًا على الأعضاء كما علَّمهم الزعيم.

رابعًا: يحكم على الأسباب (وضمنًا الأشخاص) من خلال النتائج وليس النوايا.

خامسًا: لا ينخدع بالمظاهر من فروع وأعضاء جدد ومهرجانات وصحيفة حزبيَّة، بل يرى الحزبَ من خلال كلِّ هذه المظاهر آلة بلا روح تسير بقوَّة الدفع والاستمرار. (يتطابق هذا مع ما أشرنا إلى خطر وقوعه في الشكل رقم 15، المتعلِّق بإهمال الغاية في أيَّة مؤسَّسة.)

سادسًا: يرى الحركة تسيِّرها الظروف وليس العكس.

سابعًا: يخشى من التضخُّم العددي الخالي من المناقب القوميَّة.

ثامنًا: يلحظ كيف كانت الاعتقالات عاملاً في تأخير الكشف عن "الإفلاس".

تاسعًا: يرى الخطر الكبير على الحزب فيما لو عرف أخصامه بضعفه الحقيقي، وهذه الرؤية تحقَّقت سنة 1949، حين ضُرب الحزب واعتُقل أعضاؤه خلال ساعات، ولم يستطع حراكًا أمام محاكمة زعيمه الصوريَّة وإعدامه.

عاشرًا: يعلن رفض القوميِّين لما يجري، ليس باسم النظام فقط، بل احترامًا لصاحب "الوزنات"، وللأثر السلبي الذي سوف يقع على الحزب فيما لو تصرَّف القوميُّون مع المنحرفين كما يتمنَّون: حالة مأساويَّة مثل نهاية قيصر.

حادي عشر: يفهم خطورة الهدم قبل الإعداد لبناء أفضل.

ثاني عشر: يشهد على انكفاء القوميِّين وانكماشهم بسبب الفساد المُستشري.

ثالث عشر: يربط موقفه، وموقف سواه من القوميِّين بعودة الزعيم. ففي عودته إنقاذٌ للحزب، أمَّا إذا قرَّر عدم العودة: "فعليَّ وعلى أعدائي يا رب."

الأزمة الوجدانيَّة

تظهر الرسالة الأزمة الوجدانيَّة والعمليَّة التي عاشها الأمين عجاج المهتار أثناء كتابتها،

ولا شكَّ أنَّها تعبير عن مشاعر العديد من القوميِّين. تكمن الأزمة في انحراف واضح، وقيادة تتجاوز الدستور، وتستخدم النظام لتغطية الانحراف وقمع القوميِّين. ما الذي يستطيع القوميُّون فعله؟ إنَّهم لا يملكون الطاقات الماديَّة والمعنويَّة والنظاميَّة لمواجهة الانحراف، ولا يرغبون في "الترقيع" لعدم جدواه، ولا يشرعون في الهدم قبل استكمال عدَّة البناء ووجود المهندس الأكبر سعادة.

الخطوة الأولى، ما سمَّاه الأمين عجاج المهتار "الانكماش". وهذا يعني بلغة اليوم، نوعًا من العصيان المدني على صعيد فردي، أو "القعود في البيت". إذا لم تستطع مواجهة الفساد، فأقلُّه ألاَّ تدعمه.

طبعًا، هذا لا يكفي الذين "ذابت نفوسهم في قوميَّتهم السوريَّة"، وهم يشاهدون نهضتهم التي ضحَّوا في سبيلها سنيَّ أعمارهم في السجون والتشرُّد تصبح أداة سياسيَّة لخصومهم وخصوم زعيمهم، بقيادة ضعيفة مهادنة ملتصقة بالفساد.

لا يبقى أمام هؤلاء سوى حالة واحدة، الإلحاح على الزعيم بالعودة، أو إعلامهم بعدمها، عندها يتصرَّف كلٌّ على طريقته، ولو أدَّى ذلك إلى هدم الهيكل على رؤوس الجميع.

هذا السرد، يلخِّص حالة متكاملة عاشها الحزب في أكثر من مرحلة، ولا نغالي إذا قلنا إنَّ عددًا كبيرًا من القوميِّين ينتابه شعور حين يقرأ الوصف أعلاه بأنَّه إنَّما يعبِّر عن واقع الحال.

الاستسهال والاستنساب

تساءلنا في مطلع هذا الفصل عن العقليَّة التي أفرزت "الواقع اللبناني" والآليَّة التي سمحت له بأن يصبح ظاهرة تسيطر على جميع مقدَّرات الحزب. الجواب في رأينا، كلمتان: الاستسهال والاستنساب.

الاستسهال، يعني اختيار الطريق السهل ونسيان الغاية السامية واختيار، ولو عن حُسن نيَّة، "قادوميَّات" يزيِّن للمرء أنَّها توصل إلى الهدف المنشود بسرعة وسهولة ويُسر، ترافقها محفِّزات أقلها "تسجيل الأسماء في سجل التشريفات الحكومية" كما مر معنا في رسالة الأمين المهتار. هنا يأتي دور "الطمَّاشات"، والطمَّاشات، تعطيل فعل العقل المُسَائِل، و"تصنيف" الصوت الناقد المعارض، وتسفيهه وتهميشه بغية إسكاته.

يقال في الإنجليزية ما ترجمته: "إذا كان العرض مغريًا لدرجة لا تصدَّق، فلا تصدِّقه."

دور الطمَّاشات هو أن تجعل المرء يصدِّق ما لا يُصدَّق.

أمَّا الاستنساب، فيعني الاختيار "المرن" فقط لما يناسب من الأدوات الدستوريَّة والعقائديَّة والنظاميَّة للدفاع عن الاستسهال وتبريره، وصولاً إلى تعليق العمل بمواد من الدستور "لمرَّة واحدة"، مرَّات ومرَّات.

لندرس التبريرات التي قدَّمها الأمين قبرصي في مذكِّراته، إنَّها رائعة في استنسابيَّتها.

دستوريًّا: اختيار أعضاء في المجلس الأعلى من خارج الأمناء. التبرير: عدم وجود نصٍّ دستوريٍّ صريح يمنع ذلك، أو إفساح المجال للشباب النشيط الواعد.

عقائديًّا: خروج إلى "الواقع اللبناني". التبرير العقائدي: الظنُّ بمرونة في تفسير تصريح سعادة لصحيفة النهضة"، أو ضحالة في فهم "فلسفة العقيدة."

سياسيًّا: اختيار اليزبكيَّة. التبرير: خيار وحيد، إمَّا أن تكون يزبكيًّا أو جنبلاطيًّا. استعداء الجنبلاطيِّين بلا سبب. التبرير: "تدرُّج القيادة"، أو "وضع الطمَّاشات"، أو نعمة ثابت – "الموحي بسياسة الحزب".

يصف الأمين عبد الله قبرصي نعمة ثابت بأنَّه كان "جنتلمان". لعلَّه كان الجنتلمان الوحيد بين الذين تكاتفوا وتعاضدوا في "الواقع اللبناني" ثمَّ تخلُّوا عنه يوم الحساب وحمَّلوه أوزارهم.

نظاميًّا: تكاتف وتساند لتعطيل شكاوى القوميِّين باسم "النظام الصارم" الذي يحمي القيادات من أخطائها. التبرير: "تنفيذ ثمَّ اعتراض"، أو "على مسؤوليَّتي".

تلك كانت العقليَّة والآليَّة! إنَّها تستخدم النصف الأوَّل فقط من مبدأ سعادة في السياسة: **عدم تجاهل الأمر الواقع حين معالجة القضايا السياسيَّة. وتتجاهل النصف الأهم الثاني: وعدم الخروج على هدفنا ومبادئنا.**

إنَّها سياسة الاستسهال وآليَّة الاستنساب. إنَّها الثنائي القاتل الذي أفرز "الواقع اللبناني" وكلَّ "الوقائع" التي تؤدي إلى الإفلاس: إفلاس الحزب، وبالتالي "إفلاس الأمَّة السوريَّة النبيلة، ويأسها من كلِّ إصلاح وعقمها" كما قال الأمين عجاج المهتار في مقدِّمة رسالته آنفة الذكر، وخطر "فنائها إلى الأبد."

الثغرة

إذا كنّا إلى حدٍّ ما قد تمكّنا من الإحاطة بالعقليَّة والآليَّة المعتمدة في التأسيس لحالة انحراف في الحزب، أو إهمال عقيدته، فما هي الثغرة الدستوريَّة التي تمكِّن القيادة من تطبيق سياسة "الاستسهال والاستنساب" أو الإهمال؟ الثغرة هي في عدم وجود سلطة قضائيَّة مستقلة رادعة داخل الحزب قادرة على التصدي لعقلية الانحراف والفساد وآليات عمله وإصدار الأحكام العادلة بحق القائمين بها.

في فصل الإدارة حدَّدنا السؤال على الشكل التالي: **إذا كانت السلطة غير المحدودة للزعيم الضمان الوحيد لسلامة الحزب أثناء وجوده، فما هي السلطة التي يمكن لها أن تكون الضمان للحزب في مرحلة غيابه مرَّة ثانية، أو في حال عدم تمكُّنه من قيادة الحزب وضمانة سلامته لأي سبب كان؟** هل وضع سعادة بعد اختبار "الواقع اللبناني" حين انغمست قيادة الحزب بسلطتيها التنفيذيَّة والتشريعيَّة في نهج انحرافي فاضح، من الضوابط ما يمنع أن "يتفكّك الحزب، وإن بقيت العقيدة"؟

الجواب هو: نعم، لقد فعل ذلك عبر وضعه لقانون "المحكمة المركزية" الذي لم يطبَّق في الحزب السوري القومي الاجتماعي حتى اليوم!

قبل الخوض في تفاصيل "المحكمة المركزية" سنعود سريعًا إلى طرد نعمة ثابت ومأمون أياس وغيرهم من الحزب لإيضاح أهمية وجود "السلطة الرادعة".

يقول الأمين الراحل عبد الله قبرصي تعقيبًا على طرد نعمة ثابت ما يلي:

> لو أنَّ الذي طرد نعمة ومأمون كان المجلس الأعلى يومذاك، لواجهنا انشقاقًا. لأنَّ "الرئيس" نعمة كان محبوبًا ومحترمًا في كلِّ مكان رغم خلافاته مع بعض القادة كمعروف صعب. ولكن سعادة بنفوذه الروحي الساحق وبصلاحيَّاته الدستوريَّة الشاملة وبأسلوبه الدقيق في **التصرُّف بحكمة ودقَّة وروية**، لم يترك مجالاً لأيِّ شكٍّ، فما تخلخل في الصف أي فرد ولا سقط من العمارة الحزبيَّة أيُّ مدماك! لقد طرد نعمة ومأمون بتأييد إجماعي من قبل القادة والأعضاء. تلك هي الثقة المطلقة التي لم يستطع أن يرثها عن سعادة أيُّ مسؤول آخر![220]

الأمين قبرصي على حقٍّ مائة من المائة. فحين طرد المجلس الأعلى سنة 1957، الرئيس الأسبق الأمين جورج عبد المسيح، انشقَّ الحزب ولم يزل منشقًّا حتَّى اليوم.

220) قبرصي، عبد الله، عبد الله قبرصي يتذكَّر، الجزء الثاني، مؤسَّسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت 1982، ص. 183.

معظم الانشقاقات التي حصلت منذ ذلك الحين كان مردّها، على المستوى الأعلى، خلاف بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ولم يكن هناك من سلطة مستقلة ذات صلاحية تستطيع البت في أسباب الخلاف وتحسم فيها، وينصاع الجميع لقرارها.

في الدستور الذي وضعه سعادة ثمَّة سلطتان: تشريعيَّة وتنفيذيَّة، تنتقل الأولى منها إلى المجلس الأعلى، والثانية إلى رئيس الحزب في حال حصول مانع طبيعي دائم يحول دون تأدية الزعيم هذه المسؤوليَّات. وحسب المادَّة الثالثة من القانون الدستوري عدد1، والمختصّ "بمؤسَّسة العُمد ومجلسهم"، الذي هو جزء من السلطة التنفيذيَّة، يُعتبر "القضاء" مصلحة عامَّة رئيسيَّة في الحزب أسوة بالداخليَّة والماليَّة والخارجيَّة والإذاعة والاقتصاد والدفاع والثقافة والفنون الجميلة. في رأينا، هذا هو لبُّ الثغرة، إذ أنَّه لا يجوز أن يكون القضاء جزءًا من السلطة التنفيذيَّة في أيَّة دولة.

إنَّ فقدان المؤسَّسة لسلطة فيها تملك دائمًا المكوِّنات الثلاث التي يأتي الأمين قبرصي على ذكرها: النفوذ الروحي والصلاحيَّات الدستوريَّة والتصرُّف بحكمة ودقَّة وروية، يمكن أن يؤدِّي إلى خرابها. لتفادي مثل هذا الأمر، لا بدَّ من أن تجتمع هذه المكوِّنات الثلاث في مؤسَّسة حزبيَّة دستوريَّة دائمة وليس في فرد. هذه المؤسَّسة، في رأينا، **سلطة قضائيَّة مستقلَّة استقلالاً تامًّا عن السلطتين التنفيذيَّة والتشريعيَّة، مع صلاحيَّات لنقض القوانين المخالفة للدستور أو مقدِّمته أو روحيَّته، ولها حقُّ نقض السياسات المخالفة لعقيدة الحزب وغايته حتَّى لو أقرَّها المجلس الأعلى، ولها صلاحيَّات لمحاسبة المسؤولين عن مخالفاتهم وأخطائهم مهما بلغت مرتبتهم.**

يمكننا الآن التقدم إلى دراسة موضوع "المحكمة المركزيّة".

في كتابه تجربة ناقصة، يكتب الأمين هنري حاماتي عن وجود مرسوم بقانون سنَّه سعادة ويتعلق بإنشاء محكمة مركزيَّة في الحزب، نشر في كتاب قضية الحزب القومي الذي نشرته الدولة اللبنانية بعد اغتيال سعادة، كما يشير الأمين حاماتي إلى أن المرسوم نُشر مرتين: مرّة أولى عندما عممته عمدة الثقافة والفنون الجميلة في الحزب، على القوميين الاجتماعيين قبل 1949، ومرة ثانية عندما عممته وزارة الأنباء في لبنان بعد إعدام سعادة.[221] نحن لم نجد نسخة عن المرسوم في النشرة الداخليَّة، لهذا سنكتفي بنقله كما ورد في كتاب الدولة اللبنانية:[222]

221) حاماتي هنري، أفكار، الجزء الثالث، تجربة ناقصة، بيروت، 1999، ص. 66.
222) وزارة الأنباء اللبنانية، قضية الحزب القومي، بيروت لبنان، 1949، ص. 242.

الحزب السوري القومي الاجتماعي

عمدة الثقافة والفنون الجميلة

الأسباب الموجبة

أعلن حضرة الزعيم في خطابه التاريخي في أول يونيو 1935 بأن الحزب السوري القومي الاجتماعي هو الدولة السورية الممثلة للمصالح السورية الراهنة. وبما أن لكل دولة قضاءها، شاء حضرة الزعيم منذ بدء الحركة السوريّة القوميّة الإجتماعيّة أن يكون للحزب قضاء ينظر في المخالفات الحزبيّة وفي الخلافات التي تنشأ بين القوميين وفقًا لتشريع خاص ينطوي على قواعد نظاميّة تستمد روحها من مبادئ الحزب الإجتماعيّة والسياسيّة.

وقد رأى حضرة الزعيم الجليل أن الوقت قد حان لإخراج فكرته إلى حيز الوجود فيسلم القضاء إلى قوميين من أهل الإختصاص والمكانة، فقرر إنشاء محكمة حزبيّة تحل محل الإدارة في الخصوص المذكور وتتعداها في الصلاحيّة إلى النظر في الخلافات المدنيّة التي تنشأ بين القوميين.

وبالواقع فإن لمن المغالطة أن يدب خلاف بين قوميين ولا تسارع السلطات الحزبيّة إلى معالجته وفصله بإمكانياتها ووسائلها سندًا لمبادئ الحزب وعقائده، الأمر الذي يجعل المحاكم الحزبيّة أولى من غيرها في ذلك. أضف إلى ذلك أن القوميين عند انخراطهم في الحزب يقسمون على التعاون والتآخي لتوجيه نشاطهم وجهدهم لتحقيق عقيدة واحدة ومثل أعلى واحد مما يجعل افتراض الخلاف بينهم في الحياة المدنيَّة عارضًا سريع الزوال بروح التفاهم.

أما إن قضاء الحزب لا يملك وسائل التنفيذ، فهذا أمر نسبي لأن المحكمة الحزبيَّة وإن تكن لا تستطيع الحكم بالسجن أو الحجز إلا أنها تستطيع أن تفصل نزاعًا عن طريق التحكيم، وعندئذ تسلم حكمها للسلطات الإداريَّة في الحزب التي تسعى لتنفيذه وفقًا للروحيَّة الحزبيَّة والمسلكيَّة التي يتحلى بها القوميون فيخضعون للحق ويطبقون النظام على أفضل وجه. أضف إلى ذلك متى أبرم حضرة الزعيم الجليل قانون المحكمة يصبح القوميون ملزمون بتطبيقه في خلافاتهم المدنية كسائر القوانين الحزبيَّة النافذة، مع ما يستجره ذلك من انفعالات ونتائج.

مادة أولى: تنشأ في الحزب السوري القومي الاجتماعي محكمة مركزيَّة تدعى

المحكمة المركزية للحزب السوري القومي الاجتماي يكون مركزها الرئيسي في بيروت.

مادة ثانية: تنظر المحكمة:

أولاً: في الخلافات المدنيَّة التي تنشأ بين القوميين.

ثانيًا: بالمخالفات الحزبيَّة وتمتد صلاحياتها المحليَّة إلى حيث يوجد قوميون اجتماعيون.

مادة ثالثة: تفض المحكمة الخلافات المدنية حسب القوانين العامة والعرف القومي الاجتماعي المستمد من مبادئ الحزب.

وتحكم بالمخالفات الحزبية فتقضي باللوم، والتأنيب، والتوبيخ، والفصل، والطرد وبتعويض مالي لصندوق الحزب.

مادة رابعة: تتألف المحكمة الحزبيَّة من رئيس ومستشارين ومجازين بالحقوق ومن مفوض عن الحزب، وكاتب يعيَّنون جميعهم بمرسوم من الزعيم.

مادة خامسة: يرفع القوميون الاجتماعيون خلافاتهم إلى المحكمة مباشرة بواسطة الإدارة الحزبيَّة. وأما المخالفات الحزبيَّة فإن المحكمة لا تضع يدها عليها إلا بعد تحويلها رسميًا من مفوض الحزب.

مادة سادسة: في كل القضايا يمثل الحزب المفوض عن الحزب ويعطي مطالعاته في المسائل الجاري فصلها.

مادة سابعة: إن اليمين التي تطلبها المحكمة هي الآتية: "أقسم بشرفي وحقيقتي ومعتقدي أن أقول الحق كل الحق." ويجوز لها أن تتخذ كل الإجراءات الأصوليَّة التي تراها ضروريَّة وموافقة لطبيعة النزاع.

مادة ثامنة: الأحكام التي تصدرها المحكمة هي أحكام مبرمة إلا أنه يجوز للزعيم أن يقرر إعادة النظر في حكم المحكمة، فتحال القضيَّة عندئذ إلى هيئة جديدة تتألف من أعضاء جدد يعينهم الزعيم بمرسوم لهذه الغاية.

مادة تاسعة: تتنقل المحكمة إلى حيث تدعو الحاجة للفصل بالخلافات والقضايا المعروضة عليها. ولا يجوز انتقالها إلا بناء على مرسوم يصدره الزعيم لهذه الغاية.

ملاحظات عامة على المرسوم

1. سوف نفترض أنه مرسوم حقيقي وأنه وجد بين أوراق الحزب التي صادرتها الدولة سنة 1949، لأننا نستبعد أن تكون الدولة قد كتبته إذا أنه لا يشكل مادة جرمية بحق الحزب ولا بحق سعادة، وإن يكن له فائدة إعلامية لناحية الترويج أن الحزب يعمل لخلق "دولة ضمن الدولة".
2. لا بد وأن يكون هذا المرسوم قد وضع بعد تصنيف مواد الدستور سنة 1937، وقبل استشهاد سعادة، وإلا لكان ضمن في دستور 1937.
3. ومن المرجح ان يكون سعادة قد وضعه بعد حملة التطهير التي حسمت أمر "الواقع اللبناني"، ووضع له مقدمته، أو طلب من عمدة الثقافة وضع تلك المقدمة، ولكن لم يتسن له إبرامه بسبب أحداث 1949.
4. إذا كان كل ما تقدم صحيحًا، فإن هذا يؤكد قرار سعادة فصل المحاكم عن "الإدارة الحزبية"، كما يسميها.

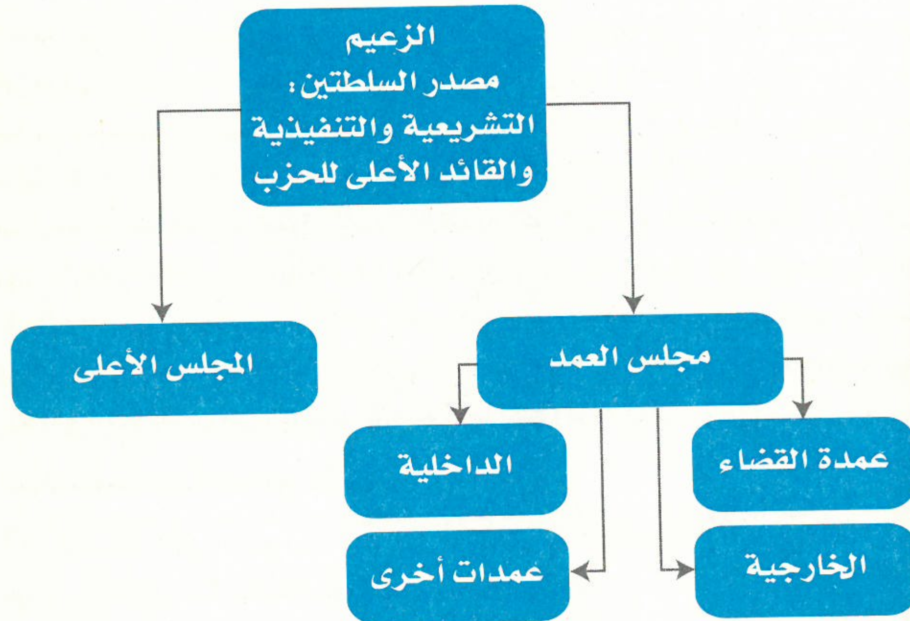
ملاحظات على المضمون

1. يركز المرسوم على نوعين من القضايا: المدنية – خلافات بين القوميين، وربما بين قوميين واشخاص من خارج الحزب – والمخالفات الحزبية.
2. الإتجاه في حل الخلافات المدنية هو إلى التحكيم.
3. المخالفات الحزبية لها وجهة أخرى تصل إلى الطرد ودفع مبالغ لصندوق الحزب. (سوف نفترض أنها عن الحالات التي يحصل فيها أذى مادي أو معنوي، بحق الحزب أو أحد أعضائه.)
4. سوف نفترض أن "المخالفات الحزبية" تتضمن القرارات أو التشريعات غير الدستورية (كما مر معنا عن تعيين أعضاء في المجلس الأعلى من خارج جسم الأمناء)، والقرارات السياسية التي تناقض عقيدة الحزب وغايته، (مثل الاعتراف لجهة معينة غير الحزب أنها "الممثل الشرعي والوحيد" لأحد فئات الشعب، أو للشعب كله، أو مثل "الواقع اللبناني".
5. لنا ملاحظة على ما ورد في المرسوم لناحية أنه لا يجوز رفع "المخالفات الحزبية" إلا عن طريق مفوض الحزب. مع اهمية أن يكون هناك مطالعة من مفوض الحزب على ما سوف نسميه "المخالفات المزعومة" – إنها تبقى مزعومة إلى أن تبتُّ المحكمة فيها – فثمة خطر أن لا يرفع المفوض شكاوى في مخالفات حزبية

بسبب ضغط من – أو تواطئ مع – أي من السلطتين التشريعية أو التنفيذية. هذه ثغرة محتملة يجب سدّها إجرائيًا.

6. لم يعط الزعيم حتى لنفسه حق "إبرام" أحكام المحكمة، لأنه مخالف لأبسط قواعد فصل السلطات. فالمادة الثامنة من المرسوم الدستوري تنص على أن أحكام المحكمة "مبرمة". الشيء الوحيد الذي سمح به الزعيم لسلطته هو "إعادة النظر" في حكم المحكمة فتحال القضية إلى هيئة جديدة. وهذا لا يتعدى مفهوم الاستئناف والتمييز في أي قضاء.
7. إن هذا المرسوم يسد ثغرة العلاقة بين السلطة القضائية والسلطتين التشريعية والتنفيذية. فمع أن عمدة القضاء تبقى جزءًا من السلطة التنفيذية كونها مصلحة عامة في المجتمع لها عميد للقضاء (بمثابة وزير العدل)، إلا أن المحكمة المركزية، (وما يتبع لها من محاكم) هي مستقلة في أحكامها المبرمة عن السلطتين الأخرتين إذ لا يجوز حتى للزعيم التدخل في أحكامها باستثناء طلب "إعادة النظر".

يمثِّل الشكل أدناه السلطات الحزبيَّة كما وردت في دستور سعادة عند تأسيس الحزب.



17: السلطات الحزبيَّة عند تأسيس الحزب

أمَّا الشكل الذي يجب أن تكونه المؤسسات بعد وضع المرسوم الدستوري أعلاه موضع التنفيذ، فهو التالي:

شكل السلطة المقترح



18: فصل السلطات

لن نناقش تفاصيل السلطة القضائيَّة ومكوِّناتها وصلاحيَّاتها العامَّة وعلاقتها بالسلطتين التنفيذيَّة والتشريعيَّة وكيفيَّة انبثاقها، فهذا خارج عن غرض البحث، لكنَّنا سنعرض بعض المبادئ العامَّة.

قلنا إنَّ الهدف هو إيجاد سلطة تجتمع فيها المواصفات التي نوَّه عنها الأمين قبرصي: النفوذ الروحي، والصلاحيَّات الدستوريَّة، والتصرُّف بحكمة ودقَّة وروية. لإعطاء صورة عن قوَّة هذه المواصفات مجتمعة، لا بدَّ من دراسة دور المحاكم العليا في أيِّ بلد ديمقراطي مكتمل المؤسَّسات الدستوريَّة مثل كندا أو الولايات المتَّحدة الأميركيَّة أو بريطانيا على سبيل المثال. في كندا، للمحكمة العليا حقُّ نقض أيِّ قانون يشرِّعه البرلمان الكندي إذا اعتبرته مخالفًا لشرعة حقوق الإنسان الكنديَّة. كما أنَّها تفصل في القضايا الدستوريَّة بين المقاطعات الكنديَّة، وفي قضايا الانفصال والوحدة، ناهيك عن القضايا الكبرى المتعلِّقة بدستوريَّة مواقف سياسيَّة أو اقتصاديَّة معيَّنة مثل دستورية قانون التجارة الحرَّة مع الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة أو المكسيك. الصلاحيَّات نفسها، على ما نعتقد، تتمتَّع بها المحاكم العليا في كلٍّ من الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وبريطانيا.

القوَّة الروحيَّة لهذه المحاكم، تكمن:

أوَّلاً في استقلاليَّتها. يمنع منعًا باتًّا على أيِّ عضو في السلطتين الأُخْرَيين الاتِّصال بأيِّ عضو من المحكمة في قضيَّة أمامها تحت طائلة العقوبة.

ثانيًا، أن قراراتها لا ترد، ولا تحتاج لموافقة نهائيَّة من السلطة التشريعيَّة إطلاقًا. بل هي

التي تستطيع أمر السلطات التشريعيَّة بتغيير قانون معيَّن مخالف للدستور الأساسي أو لشرعة حقوق الإنسان.

ثالثًا: احترام مطلق من جميع السياسيِّين والمواطنين لمؤسسة المحكمة العليا وهيبتها ونزاهتها، والتزام مطلق بقراراتها مهما كانت.

رابعًا: جميع أجهزة الدولة التنفيذيَّة هي في خدمة السلطة القضائية للتأكُّد من تنفيذ قراراتها.

خامسًا: اختيار أعضاء المحاكم العليا من بين أكثر القضاة كفاءة وخبرة وعلمًا ونزاهة وتجرُّدًا، ويعيَّنون مدى الحياة.

سادسًا: منع القاضي من ممارسة أيِّ عمل آخر، أو أن يكون تحت إدارته المباشرة أيَّة مصالح خاصَّة، وعلى مَن يتبوَّأ منصبًا في القضاء وضع جميع هذه المصالح في وقف مغلق يديره جهاز مختصٌّ بمعزل عنه.

سابعًا: قرارات المحكمة العليا تؤخذ بالأكثرية بعد مداولات دقيقة وطويلة للتأكُّد من صوابيَّتها وحكمتها.

في كندا، يسمِّي رئيس الوزراء القضاة ويوافق مجلس العموم عليهم، وفي الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة يسمِّيهم الرئيس، ثمَّ يوافق مجلس الشيوخ على التسمية.

تعيين القاضي مدى الحياة يعفيه في اتِّخاذ قراراته من ردِّ الجميل للرئيس الذي عيَّنه. والقضاة غالبًا ما يبقون لسنوات طويلة على قوس المحكمة بعد تغيير الشخص الذي عيَّنهم.

إن سلطة قضائيَّة مستقلَّة واعية أهمية دورها في الحفاظ على مكونات الحزب الأساسية: عقيدته وغايته ومؤسساته، ولها الصلاحيَّة والقوَّة لوضع قراراتها موضع التنفيذ، هي الضمانة الدائمة لمنظمة عقائدية مثل الحزب السوري القومي الاجتماعي من خطر تكتُّل المصالح الذاتيَّة والنزعات الفرديَّة في السلطتين التشريعيَّة والتنفيذيَّة في مشاريع انحراف أو فساد، أو إهمال غاية الحزب علَّة وجودهما، أو في عقيدته، منطلق عملهما.

الخلاصة

توخَّينا ممَّا سلف استخلاص مجموعة عوامل ساهمت في "الواقع اللبناني" كما أضفنا على موضوع فصل السلطة القضائية. فيما يلي ملخص لما مرَّ معنا:

1. التعب والإرهاق الذي عانى منه القوميُّون منذ التأسيس حتَّى سنة 1944.
2. المغريات الكثيرة التي أغدقها رجال الكتلة الدستوريَّة من رخصة وحريَّة عمل وعضويَّة في البرلمان اللبناني.
3. سيادة عقليَّة الاستسهال والاستنساب: استسهال التخلِّي عن العقيدة والغاية والأخلاق، واستنساب الأدوات الدستوريَّة المناسبة لتكريس ذلك.
4. الدور الذي لعبه كميل شمعون ومن ورائه الإنجليز للبننة الحزب وترويضه!
5. عدم التزام المسؤولين بمسؤوليَّاتهم الرقابيَّة والعقائديَّة والنظاميَّة، وبالدستور نفسه بصورة جدِّيَّة. (حلِّ سعادة للمجلس الأعلى فور عودته لعدم دستوريَّته.)[223]
6. سيادة عقليَّة "التجمُّع الفئوي" على قيادة الحزب، بحيث أصبحت تضع فعلاً على أعينها "طمَّاشات"، فلا ترى إلاَّ ما ترغب في رؤيته، ولا تسمع إلاَّ لمن يُسمعها ما ترغب في سماعه.
7. سيادة نهج الإبعاد والتهميش، أو حالة "الانكماش" كما وصفها الأمين المهتار.
8. سيادة عقليَّة التعلُّق بالمظاهر لتغطية تغييب الجوهر.

223) قبرصي، عبد الله، عبد الله قبرصي يتذكر، الجزء الثاني، مؤسَّسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت، 1982، ص. 166.

الفصل الثالث: من هنا إلى هناك

الوضع الراهن

إذا أجرينا مسحًا للبيئة المجتمعيَّة في الوطن السوري، وفي داخل الحزب اليوم وجدنا دون كبير عناء أنَّ المحفِّزات التي وضعناها في بداية الفصل الثالث من القسم الثاني، قد ضعفت وأنَّ المعوِّقات قد قويت.

لا جدال بأنَّ ضعف المحفِّزات يُعزا إلى عدم تمكُّن الحزب من تحقيق غايته بعد سبع وسبعين سنة من تأسيسه. فنحن وضعنا كمحفز أول كون سورية: "أمة غير اعتياديَّة - أمَّة ممتازة بمواهبها، متفوِّقة بمقدرتها، غنية بخصائصها - أمَّة لا ترضى القبر مكاناً لها تحت الشمس." لكنَّنا ربطنا هذا المحفِّز الأوَّل بالمحفِّز الثاني: "إمكانيَّة تأسيس حركة تُخرج البلاد من محنتها." ففشل الثاني أوهى الأمل بتحقيق الأوَّل. إضافة إلى أن سورية، على ما يبدو، سوف تبقى عرضة لمحاولات وضعها في قبر التاريخ.

على الصعيد القومي

المحفِّزات

يمكننا أن نضع في خانة المحفِّزات ما يلي:

1. تأسيس فكرة الأمَّة.
2. نجاح الحزب في تقديم النموذج عن وحدة الحياة في المجتمع، وكسر الحواجز بين أبناء الوطن الواحد.
3. بدء انتشار فكرة ترابط المصالح القوميَّة من فلسطين إلى العراق فلبنان والشام.
4. بدء تكون وعي لحقيقة تضارب المصالح العربيَّة – العربيَّة وخطر بعض الدول العربيَّة على سورية.

5. تمكّن قوى المقاومة من الثبات وتحقيق انتصارات كبرى.
6. سقوط بعض الأفكار الشموليّة في معترك العقائد والأفكار.

المعوِّقات

1. عدم ترسيخ فكرة الأمّة ونشرها.
2. توسّع رقعة الاحتلال العسكري في سورية.
3. انهيار العراق وتحوّله من نقطة قوّة وارتكاز إلى منطقة منكوبة.
4. خسارة فلسطين وتمدّد إسرائيل ديموغرافيًّا وسياسيًّا وأمنيًّا في الوطن السوري والعالم العربي، وتشكيلها أحلاف مع أنظمة ومنظّمات سوريّة وعربيّة.
5. ازدياد حدّة الانقسامات العرقيّة والطائفيّة والمذهبيّة.
6. ازدياد قوّة الأصوليّات الدينيّة.
7. هبوط المستوى الثقافي.
8. تفاقم المشاكل الديموغرافيّة والبيئيّة.
9. ازدياد الهجرة بنهج تجمّعات دينيّة وعرقيّة كبيرة.
10. خسارة الأدمغة.

على الصعيد الحزبي

المحفِّزات

1. تألّق فكر سعادة وانتشاره في أوساط عديدة خارج الحزب.
2. نجاح الحزب في تقديم النموذج عن وحدة الحياة في المجتمع وكسر الحواجز بين أبناء الوطن الواحد.
3. صمود الحزب في وجه المحاولات المستمرّة لتصفيته وتسجيل أعضائه تاريخًا من البطولات.
4. انتشار القوميّين في مختلف أنحاء الوطن والعالم ووصول بعضهم إلى مراكز عالية الأهميّة.

المعوِّقات

سنقسّم المعوّقات إلى قسمين: أسباب ومسبّبات: المعوّقات من 1-3 أدناه هي الأسباب للمسبّبات من 4-10.

1. إهمال غاية الحزب وكلّ ما ينجم عن ذلك كما بيّنا في الشكل رقم 51.

2. استمرار عمل القيادات الحزبية المتتالية بعقليّة الاستسهال والاستنساب.
3. عدم سدّ الثغرات الدستوريّة.
4. استمرار استخدام النظام لحماية الفساد.
5. استمرار انقسام الحزب إلى قسمين كبيرين، وعدد من التجمّعات الأخرى.
6. الابتعاد عن الحزب وما يبدو كلا مبالاة بمصيره.
7. ترسخ عقليّة الفئويّات والمحاور داخل الحزب.
8. ضعف الموارد الماليّة الذاتيّة للحزب.
9. ضعف الدور الثقافي للحزب مماثلة بماضيه الحافل في هذا المجال.
10. ارتفاع متوسّط العمر في صفوف القوميّين، لا سيّما في المغتربات إلى درجة خطرة.

قد يكابر نفرٌ ويرفض هذه الصورة؛ هذا شأنه. لكنّنا نعتقد أن هذه المعوّقات حقيقيّة وقيد التداول العام. فصحيفة الأخبار اللبنانية، على سبيل المثال، نشرت مقالاً من جزئين عن الحزب في 2 و3 تمّوز/يوليو، 2009، تحت عنوان القومي: برنامج للتحديث وخطط لاستعادة الخارجين، يتضمن، على لسان سوريّين قوميّين اجتماعيّين قسمًا مما ورد أعلاه إن لم نقل أكثر. لقد بات جليًّا للكثيرين من داخل الحزب وخارجه، أنّ الحزب قد فقد روحه منذ أمد طويل جدًّا، لأنّه أهمل غايته وأنكر عقيدته وتخلّى عن أخلاقيّته. إنهم يرون الفقرة من رسالة الأمين عجاج المهتار "إفلاس" التي يقول فيها:

> فلو سلّمنا بهذا القول – مع الكثير من التحفّظات – لا بدّ لنا من الاعتراف بأنّ الحركة اليوم أشبه بآلة تسير بقوّة الاستمرار، ولكنّها خالية من الروح والقلب والدماغ، وما روح الحركة القوميّة الوثّابة وقلبها النابض ودماغها الخلاّق المبدع إلاّ زعيمها وخالقها.

تمثّل الواقع الحقيقي الصعب الذي يعيشه الحزب اليوم، مع فارق بسيط في التعبير: إنّ روح الحركة، بعد سعادة، هي في عقيدتها وغايتها ودستورها الأساسي وعقليّتها الأخلاقيّة مجتمعة.

عقدة نقص الشرعية

سنعيد نشر مقطعين من سعادة سبق واستفدنا منهما في أماكن أخرى من هذا الكتاب لعلهما يساعداننا في فهم هذه الصعوبة: المقطع الأول من مقالة "سلطة الزعيم":

> ...وإذا درسنا جيّدًا تاريخ الحزب السوري القومي ودقّقنا في الاختبارات التي مرّت به وجدنا

هذه السلطة غير المحدودة للزعيم الضمان الوحيد لسلامة هذا الحزب الذي يمثِّل نهضة الأمَّة السوريَّة. ولولا هذه السلطة لكان الأرجح أن يتفكَّك الحزب، وإن بقيت العقيدة، من جرَّاء المناورات التي قام بها أفراد جلبوا معهم إلى داخل الحزب أمراض النفسيَّة الانحطاطيَّة وحاولوا أن يحوِّلوا الحزب إلى ميدان تتبارى فيه منافعهم الخصوصيَّة وأهواؤهم. والفضل في إبطال هذه المناورات يعود إلى مقدرة الزعيم وإلى سلطته غير المحدودة التي زادت إيمان مجموع الحزب به، بدلاً من إضعافه.[224]

أما المقطع الثاني فمن بيان الحزب بعد أحداث بكفيا سنة 1937، والذي نشرنا قسمًا منه سابقًا:

- **نام الشعب** عن تعهُّد شؤون حياته ومصالحه، فتعهَّدها ذوو المصلحة في ذلِّه واستعباده.
- **سكت أفراده** عن حقوقهم في الدولة وشؤونها، فاهتضمتها جماعة تدَّعي أنَّها منه وليست منه.
- وتحوَّلت الجماعة النفعيَّة إلى **طبقة حاكمة**، وأنزل الشعب منزلة **الطبقة المحكومة** ولا رأي له في مصيره بل الرأي رأي فئة جشعة طامعة، والإرادة إرادة نفر اتَّفقوا على أن يعيشوا على خراب الشعب وأن يتلذَّذوا بآلامه.

إذا استبدلنا كلمة الشعب بكلمة "القوميون" فهمنا وضع الحزب اليوم.

إن خطر المفاسد الذي حذّر منه سعادة قد استشرى بسبب عدم وجود "الضمانة الرادعة" أي السلطة القضائية، وبسبب سكوت القوميين، سكوت وصفه الأمين هنري حاماتي، وهو عضو قديم وقيادي سابق كما يلي: "الأعضاء اثنان:

واحد فتح عينيه، ورأى، فحاول، فخاب، فانكفأ، فترك..

وواحد فتح عينيه، ورأى، فحاول، فخاب، فانكفأ، فسكت..."[225]

لعل خوف القوميين من انشقاق جديد هو الذي يدفعهم إلى واحد من موقفين أحلاهما مرٌّ: الانكفاء أو السكوت. فحزب الوحدة القومية الاجتماعية قد تلوّع من الانشقاقات التي جعلت منه أضحوكة أو مضرب مثل في التناقض، فكثيرًا ما قيل للقوميين "إذهبوا وتوحدوا قبل أن تدعوا إلى وحدة البلاد".

224) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الثامن، ص. 41 (سلطة الزعيم).
225) حاماتي، هنري، أفكار، الجزء الثالث، تجربة ناقصة بيروت، 1999، ص. 68.

إن انشقاق سنة 1957 أفرز تنظيمين غير متكافئين عددًا، يحمل كل منهما اسم الحزب السوري القومي الاجتماعي، وإن يكن أحدهما (الأصغر عددًا) عرف تاريخيًا باسم احد رؤساء الحزب السابقين الأمين الراحل جورج عبد المسيح (جماعة عبد المسيح)، الذي طرده المجلس الأعلى في قرار أقل ما يمكن أن يقال فيه أنه غير دستوري، ولا قانوني وكان طرده شرارة أطلقت الانقسام. أما التنظيم الأكبر، فهو أيضًا عُرف باسماء مختلفة، "مكتب كرم" أطلقه عليه أعضاء الطرف الآخر مع انقسام سنة 1957، ثم انقسم إلى قسمين عرفا بتسميات مختلفة: "الخوارج" ضد "جماعة إنعام"، سنة 1975، ثم توحد، ثم عاد إلى الانقسام إلى "الطوارئ" ضد "المجلس الأعلى" سنة 1987، ثم توحد وإن بقيت فيه حركات سميت بتسميات شتى مثل "التجمع الديمقراطي" و"تجمع النهضة" و"حركة النهضة" وسواها. إذًا خوف القوميين من الانشقاق له ما يبرره.

تاريخيًا، ودون الدخول في التفاصيل، يمكننا القول إن التنظيم الأكثر عددًا بين التنظيمين، وهو الذي قلنا إن قياداته خلقت أكثر من "واقع" في تاريخه وصولاً إلى "الواقع الأمني" وعَسكَرَة الأعضاء دون عَقدَنَتِهِم، عمل في معظم مراحل تاريخه وفق نصف مبدأ سعادة في العمل السياسي: **في السياسة نحن لا نتجاهل الأمر الواقع.** في حين أن الثاني، ركز على القسم الثاني فقط، **أي لا نتخلى عن المبدأ والهدف**، فتحجَّر فكرًا وتقوقع تحت سلطة فعليَّة لفرد واحد لمدة تقارب من نصف قرن، ولم يعرف سوى ثلاثة رؤساء منذ سنة 1957.

منذ الانقسام جرت محاولات عدة لتوحيد التنظيمين باءت كلها بالفشل، كما شهد التنظيمان عمليات تبادل بين الأعضاء. يغضب عضو من "هنا"، أو يطرد، فيذهب إلى "هناك" أو العكس. تزداد حدة الانحراف أو الفساد "هنا"، أو ضغط التحجر "هناك"، فيهاجر أعضاء من هنا إلى هناك، أو العكس.

ما يجمع التنظيمين وكل التكتلات الأخرى، في المحصلة الأخيرة، هو الإهمال التام لغاية الحزب وعدم العمل لها كمشروع وحيد وقابل للتنفيذ، بل واجب التنفيذ كونه علة وجود المؤسسة.

هناك عامل آخر يضاف إلى عامل الخوف من الانشقاق: الشرعية. إن جميع التكتلات أو "الأحزاب" التي قامت تحت أسماء الانشقاقات التي ذكرناها أعلاه كانت تعاني من عقدة نقص الشرعية.

وكان القوميون المنضوون تحت لواء هذا التنظيم أو ذاك، فيما يرفضون "شرعية" التنظيم الآخر يدركون هم أيضًا أن "شرعيتهم" مشكوك في أمرها.

ولكن المرّة الوحيدة منذ 1957، التي اجتمع فيها غالبية القوميين من الطرفين، ومن "الأكثرية الصامتة" خارج التنظيمين الحزبيَّين، كانت يوم دعا الدكتور وسيم زين الدين (أبو واجب) القوميين **للعودة إلى سعادة** سنة 1974، فالتمّوا حوله برغم "عدم شرعيته"، إلى ان اغتيل برصاصة مجهولة الهوية قضت على دعوته سنة 1975.

هل ثمة مخرج من هذا المأزق؟ نعم والمخرج يبدأ من فهم **أن الشرعية الوحيدة في الحزب السوري القومي الاجتماعي هي الشرعية التي تقوم على فهم وتطبيق نظام الفكر ونظام النهج ونظام الأشكال التي تحقق الفكر والنهج.** أي نظام عقيدة الحزب ونظام الخطط الاستراتيجية التي تحقق غايته، ونظام المؤسسات الدستورية التي تدير هذه الاستراتيجية وتمنعها من الخروج عن العقيدة والغاية، كما تردعها من الوقوع في شر الفساد والانحراف.

كل شيء خارج هذا الإطار لا شرعي ولا نظامي ولا دستوري في نظر سعادة الذي سأل بمرارة "إني أستغرب كيف قبل القوميون بالانحراف باسم النظام."

لن يجدي أيًّا من القيادتين القائمتين أو كلاهما معًا اليوم إدّعاء الشرعية أو الادّعاء أنَّ كلاهما يعمل لغاية الحزب، فالنتائج واضحة، والنيّات بالأعمال.

لن تجدي أيًّا من القيادتين دعوةُ القوميّين للالتحاق بهما و"الإصلاح من الداخل". إنَّه الترقيع الذي يضفي مظهرًا مزيَّفًا على الأسمال البالية، والأفضل للثوب المهلهل أن يتمزَّق.

ولن تجدي القيادتين أن تتوحدا على غرار الوحدات السابقة، إنها سوف تكون وحدة لتغطية فشلهما التاريخي بمقياس غاية الحزب. وسوف تكون وحدة خطيرة تعطي القوميين أملاً كاذبًا كما الآمال الكاذبة التي أعطتهم إياها كل الوحدات السابقة.

ولن يجدي القوميين الاستمرار في "التنقل" بين تنظيم وآخر؛ إنه تنقل بين مجموعتين متناقصتين عددًا بعاملي الانسحاب والوفاة ومستمرتين بقوة الاستمرار لا أكثر.

إن ما يجدي يبدأ من فهم أهمية استغراب سعادة قبول القوميّين بالانحراف باسم النظام، وصولاً إلى وصفه عناصر قوة الحزب: **صحَّة العقيدة وشدّة الإيمان وصلابة**

الإرادة ومضاء العزيمة،[226] مرورًا بقول الأمين عجاج المهتار في رسالته إلى سعادة: "لا يمكن الهدم قبل استكمال عدَّة البناء."

واستكمال عدة البناء ضرورة ملحة لمستقبل الحزب وللقضية التي نشأ لخدمتها، لأن الأبنية القائمة ليست صالحة للسكن، ولأن القوميين الذين يملكون المعرفة والإرادة لإعادة البناء هم أيضًا نوعية متناقصة بعامل الإنكفاء أو السكوت أو الوفاة.

هذه الضرورة تحتّم قيام كتلة قوميَّة كبيرة من القوميِّين المفكِّرين والمثقَّفين والمتمرِّسين في حياة هذا الحزب، المتمسِّكين بعقيدته وغايته وأخلاقه تضع نصب أعينها إخراجه من محنته وفق خطة عمل وجدول زمني مكثف يستندان إلى:

أ. الاعتراف بضرورة إجراء تغيير جذري في مختلف نواحي الحياة الحزبيَّة باستثناء عقيدة الحزب وغايته وأخلاقه.

ب. فهم هيكليَّة البناء الاستراتيجي للحزب، وتسلسله المنطقي من نظرته إلى غايته وأهدافه.

ج. فهم مركزيَّة غايته لاستمراره وحياته.

د. استيعاب أهميَّة العامل الأخلاقي المناقبي في هذه الحركة. إنَّه الوعاء الذي تعيش فيه النهضة القوميَّة وحركتها. إنَّه روح الحزب.

هـ. فهم "إطار إدارة الاستراتيجية" الذي وضعه سعادة وكيف حرك به حزبه كرًا وفرًا، هجومًا وهدنة، ولكن دائمًا بثبات نحو الهدف.

و. قليل من التواضع أمام سعادة، وعدم السماح "للكبرياء الفكريَّة" لأيٍّ كان من التغلُّب على المصلحة القوميَّة العليا.

في رأينا أن أية حركة تنطلق من هذه القواعد تملك من الشرعية ما يؤهلها لدعوة القوميين إلى إعادة بناء حزبهم على قواعده الأساسية الأولى ووضع الخطط الكفيلة بتحقيق غايته وتعزيز نظرته إلى الحياة، بصرف النظر عن الأشكال التنظيمية القائمة والتي نرى أن تاريخ صلاحيتها قد انتهى.

غير أنَّ الزمن لا يرحم والوقت ليس في صالح الأمَّة ولا الحزب ولا القوميِّين.

226) سعادة، أنطون، الآثار الكاملة، الجزء الرابع عشر، (رسالة إلى القوميين الاجتماعيين).

خلاصة

أسَّس أنطون سعادة الحزب السوري القومي الاجتماعي منظَّمة عقائديَّة وفق أساس استراتيجي متين ينطلق من نظرة إنسانيَّة راقية إلى غاية واضحة مبنيَّة على مجموعة قيم سامية. ووضع له خطَّة استراتيجيَّة توخَّى تحقيقها بواسطة إطار لإدارة الاستراتيجيَّة يفعِّل إدارة وسياسة وحربًا لتحقيق أهدافه.

اختار سعادة عنصر الشباب المتعلِّم والعامل النشيط في الحقل الخاص لعضويَّة حزبه، ونجح في نشر عقيدته وتنظيم حركة سريَّة متينة واسعة الانتشار، تحت أنف الانتداب الفرنسي، وعيون جواسيسه.

- إداريًّا، بنى سعادة إدارة دستوريَّة عصريَّة شفَّافة.
- سياسيًّا، اعتمد مبدأ واضحًا، "عدم تجاهل الأمر الواقع حين معالجة القضايا السياسيَّة وعدم الخروج على هدفنا ومبادئنا."
- في الحرب، اعتمد سياسة الهجوم السريع والصاعق لإنهاك الخصم ودفعه لطلب هدنه يكسب الحزب من ورائها مكاسب سياسيَّة ويهيئ فيها لجولة جديدة.

كما وضع عددًا من المبادئ العمليَّة المهمَّة مثل:

- إنَّ النظام بلا قضيَّة يخدمها لا يفيد شيئًا ذا قيمة في الحياة عمومًا وفي الحياة القوميَّة خصوصًا.
- سرُّ النظام ليس في النظام نفسه، بل في العقيدة التي وراءه والهدف الذي أمامه.
- السلطة غير المحدودة للزعيم هي الضمان الوحيد لسلامة هذا الحزب ولولا هذه السلطة لكان الأرجح أن يتفكَّك الحزب، وإن بقيت العقيدة.
- وضع سعادة مرسومًا لمحكمة مركزية أرادها أن تكون سلطة قضائية مستقلة تفصل في الخلافات والمخالفات.
- لم تقم قيادات الحزب المتتالية بوضع هذا المرسوم موضع التنفيذ.

في السنوات الست الأولى من عمر الحزب 1932-1938، لقي سعادة وحزبه نجاحًا كبيرًا وحقَّق مجموعة كبيرة من أهدافه. في الوقت نفسه، أيقظ مخاوف الإقطاع والإكليروس اللبناني اللذين قرَّرا الخلاص منه، فانتقل سعادة قسريًّا إلى المهجر.

أثناء غيابه، وقعت قيادة الحزب في الوطن في انحراف عقيديٍّ ودستوريٍّ وسياسيٍّ

وأخلاقيٍّ خَطِرٍ، حرف الحزب عن غايته وجعله يدور على محور غير محوره.

اختصرنا أسباب هذا الانحراف وآليَّته بكلمتين: الاستسهال والاستنساب. وقد وجد مَن يبرِّره ويروِّج له من جهة، كما عارضه قوميُّون معارضة شرسة قبل عودة سعادة.

عاد سعادة إلى الوطن سنة 1947 وخاض غمار حرب داخليَّة انتهت بطرد عدد من كبار قادة الحزب، وأعاد شرح مفاهيم حزبه وترسيخها.

لم ينته "الواقع اللبناني" مع التطهير الذي أجراه سعادة. إذ يبدو أنَّ العقليَّة ذاتها التي أسَّست له، استمرَّت بعد استشهاد سعادة وأفرزت عددًا من "الوقائع."

سهَّل قيام هذه "الوقائع"، المستمرّة لتاريخه، ثغرة دستوريَّة تُلخَّص في غياب السلطة الدستوريَّة المستقلَّة القادرة على حسم أيِّ انحراف عقائدي، أو سياسي أو أخلاقي، أو أيَّة محاولة لحرف الحزب عن غايته ووضع غايات أخرى بدلاً منها.

هذه السلطة في رأينا، هي سلطة قضائيَّة مستقلَّة.

إنَّ الحزب بكلِّ مكوِّناته هو حاجة سوريَّة ملحَّة لأنَّه الحزب الوحيد الذي يقدِّم حلولاً حقيقيَّة لمشاكلها المستعصية، بغضِّ النظر عن التنظيمات التي تحمل اسمه. ولا شكَّ عندنا في أنَّ التصوُّر الذي وضعه الأمين عجاج المهتار في رسالته إلى سعادة عن الهدم والبناء من جديد، وارد الحدوث عاجلاً أم آجلاً، كي لا يبقى هذا الحزب مستمرًّا بقوَّة الاستمرار لا أكثر.

لحصول ذلك لا غنى عن كتلة قوميَّة كبيرة من القوميِّين المفكِّرين والمثقَّفين والمتمرِّسين في حياة هذا الحزب، المتمسِّكين بعقيدته وغايته وأخلاقه تضع نصب أعينها إخراجه من محنته، وتتخذ الخطوات الضرورية لذلك.

ختام

هل وصلنا إلى جواب عن السؤال الذي طرحناه في بداية هذا القسم ووعدنا أن نحاول الإجابة عنه:

"لماذا وجد مسؤول أو أكثر في مركز الحزب في عبارة: "أن تضع قيادة الحزب، أيَّة قيادة وكلَّ قيادة، مهمَّة أساسيَّة لها هي تحقيق غاية الحزب ما استفزَّه ودفعه إلى استخدام مقصِّ الرقيب بهذه الطريقة؟"

نعتقد أننا قد فعلنا.

أسامة عجاج المهتار

خبير في الإدارة الاستراتيجية وباحث سياسي واجتماعي في شؤون المشرق.

شهادات الاختصاص

مجاز في التخطيط الإستراتيجي وفق منهجية معهد بطاقات الأداء المتوازن Balanced Scorecard Institute في جامعة جورج واشنطن، 2008. شهادة في إدارة مشاريع المعلوماتية من معهد الدراسات الحكومية الكندية، أوتاوا، 2002، وبكالوريوس في الاتصالات العامة من جامعة أتاوا، كندا، 1982.

المؤلفات/المنشورات

- المسيح السوري، تحقيق وترجمة عن الإنجليزية لكتاب إبراهيم متري رحباني (1944-1869) The Syrian Christ الطبعة الثالثة، 2006، دار أطلس، دمشق.
- قبل وبعد، ورؤساء لبنان كما عرفتهم، إعادة إصدار لكتابي المرحوم اسكندر رياشي، مع مقدمة. دار أطلس للنشر والتوزيع، دمشق، 2006.
- منحاز بلا حدود، مقالات سياسية، أطلس للنشر والتوزيع، دمشق، 2005.
- الترجمات الخمس ليسوع، تحقيق وترجمة عن الإنجليزية لكتاب إبراهيم متري رحباني The Five Interpretations of Jesus، 2005. أطلس للنشر والتوزيع، دمشق.
- The Five Interpretations of Jesus، إعادة إصدار آخر أعمال رحباني بالأصل الإنجليزي مع مقدمة وترجمة عن المؤلف، 2005.
- The Syrian Christ، إعادة إصدار رائعة رحباني بأصلها الإنجليزي مع مقدمة وترجمة عن المؤلف، 2004.
- خوفًا من ولكن، مقالات سياسية، أطلس للنشر والتوزيع، دمشق 2002.
- المستحيل الممكن، مقالات سياسية، كندا 2000.

للمؤلف أيضًا عدد كبير من المقالات والمحاضرات باللغتين الإنجليزية والعربية.

الملاحق

الملحق رقم (1)

مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي

المبادئ الأساسية

المبدأ الأول: سورية للسوريّين والسوريّون أمّة تامّة.

المبدأ الثاني: القضيّة السوريّة هي قضيّة قوميّة قائمة بنفسها مستقلة كل الاستقلال عن أيّة قضيّة أخرى.

المبدأ الثالث: القضيّة السوريّة هي قضيّة الأمّة السوريّة والوطن السوري.

المبدأ الرابع: الأمة السوريّة هي وحدة الشعب السوري المتولدة من تاريخ طويل يرجع إلى ما قبل الزمن التاريخي الجلي.

المبدأ الخامس: الوطن السوري هو البيئة التي نشأت فيها الأمّة السوريّة وهي ذات حدود جغرافيّة تميزها عن سواها تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختياري في الشمال الشرقي إلى قناة السويس والبحر الأحمر في الجنوب شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة، ومن البحر السوري في الغرب شاملة جزيرة قبرص إلى قوس الصحراء العربيّة والخليج العربي في الشرق. ويعبّر عنها بلفظ عام: الهلال السوري الخصيب ونجمته جزيرة قبرص.

المبدأ السادس: الأمّة السوريّة مجتمع واحد.

المبدأ السابع: تستمدّ النهضة السوريّة القوميّة الاجتماعيّة روحهَا من مواهب الأمة السورية. وتاريخها الثقافي السياسي القومي.

المبدأ الثامن: مصلحَة سورية فوق كل مصلحَة.

المبادئ الإصلاحية

المبدأ الأول: فصل الدين عن الدولة.

المبدأ الثاني: منع رجَال الدين من التدخل في شؤون السيَاسة والقضاء القوميّين.

المبدأ الثالث: إزالة الحواجز بَين مختلف الطوائف والمذاهب.

المبدأ الرابع: إلغاء الإقطاع وتنظيم الاقتصاد القومي على أساس الإنتاج وإنصاف العمل وصيانة مصلحة الأمة والدولة.

المبدأ الخامس: إعداد جيش قوي يكون ذا قيمة فعليّة في تقرير مصير الأمة والوطن.

الملحق رقم (2)

من مسوَّدة رسالة "إفلاس"

الى حضرة الزعيم سعاده

افلاس !!

ان شوقي اليكم هو شوق الامة الى منقذها
والبلاد الى ابنها الحبيب ، وهل بامكان عاجز مثلي
أن يتمكن من تصوير عاطفة الامة وشوق البلاد الى زعيمها الجبار
ومنقذها الامين بمداد على قرطاس ؟ - علاوه -
ان الوجدان القومي الذي أيقظته فينا ، بعد
غفلتنا الطويلة ، وقد انتصب منذ يقظته رقيبا جبارا
على اعمالنا وتصرفاتنا القومية - هو الذي يملي عليّ
هذه الرسالة ، والأمانة الصادقة ، والاخلاص المجرّد
يشفعان بي لديكم عن كل هفوة أو تقصير .
ولم يكن تأخيري بالكتابة الى اليوم عن
تقصير أو عن عدم اكتشاف الواقع المؤلم الذي نحن
فيه - انما كان التأخير تربصا لعل الله يهدينا الى
اصلاح أنفسنا بانفسنا ، فنأتيكم أخبارنا لكم
سارة مشرفة لنا لديكم ولدى التاريخ ، وتكون لكم
بمثابة تعزية عن الغربة والتشتيت" ومكافئة على
معجزة اتيتموها في بلاد وأمة لا ينقذها الا المعجزات .
ولكن الانتظار ، مع الأسف الشديد ، لم يزد العلة
الا تمكينا ويخشى اذا طال السكوت أن يتعذر على
الطبيب ، مهما يكن حاذقا ، استئصالها وشفاء العليل منها .

الصفحة الأولى

- الاصلاح -

"قصة يوسف الف بيت وبيت بجمع الكل"

واول الحكاية وآخرها تتوقف على الجواب على هذا
السؤال :
"هل العلم سيعود ؟ ام لا ؟ ..."

فاذا حاولنا الهدم قبل أن نعدّ العدّة ،
ونحضّر المواد والبنائين تعيد أفضل مما سنهدم ،
فيكون عملنا ناقصا ، وبالتالي فاشلا ...

واذا حاولنا الترقيع لتظهر العيوب العتيقة
في الثوب المهلهل ، من خلال الرقع "الجديدة
فنترك الأسمال على حالها "استر"
وافضل ...

فلا إصلاح إلا بنسف الجميع ...
لاشادة ما هو اكمل وافضل
ولا يمكن إجراء عمليات النسف ، ومن ثم البناء ،
إلا بوجود العلم الاول والمهندس الاعظم
واذا كان لا سمح الله - لن يأتي ، فلنرد وعندئذ
مع "شمشون الجبار"
"عليّ وعلى أعدائي يا رب"

الصفحة الأخيرة

فهرس الأعلام

مسرد المصطلحات العلميَّة	
التراصف	Alignment
دراسة حالة	Case Study
النظام	Discipline
المحفّزات والمعوّقات	Enablers and Impediments
مسح البيئة	Environmental Scan
التغذية الراجعة	Feedback
الأصول غير الملموسة	Intangible Assets
مؤشرات الأداء الأساس	Key Performance Indicators, KPIs
الغاية	Mission Statement
التنظيم	Organization
مقاييس الأداء	Performance Measures
مقدمة الدستور	Preamble
أنظمة العمليات	Processes
أنظمة عمليات أو خطوات تشغيلية	Processes
أصحاب الشأن والعملاء	Stakeholders and Clients
موضع التميز الاستراتيجي	Strategic Excellence Position
الأساس الاستراتيجي	Strategic Foundation
الأهداف الاستراتيجية	Strategic Objectives
الخطة الاستراتيجية	Strategic Plan
التخطيط الاستراتيجي	Strategic Planning
المواضيع أو الغايات الاستراتيجية	Strategic Themes or Goals
إدارة تنفيذ الاستراتجية	Strategy Execution Management
إطار إدارة الاستراتيجية	Strategy Management Framework
تحليل البيئة	SWOT Analysis
الأصول الملموسة	Tangible Assets
القيم	Values
النظرة	Vision



هـذا الكتـاب

تختلف المنظمة العقائديّة عن سواها في أنها ترتكز إلى ثلاث دعائم أساسيّة هي الالتزام بعقيدة واضحة تنطلق منها لتحقيق غاية معينة وفق نظام أخلاقي صارم. إن قيادة مثل هذه الحركات وإيصالها إلى انتصار غايتها عمليّة معقدة تحتاج إلى إطار سليم لإدارة استراتيجيتها، وإلى قيادة حكيمة ومحنّكة تحسن استخدام هذا الإطار.

غالبًا ما تصطدم هذه المنظمات بواقع يدفعها إلى التخلي عن واحد أو أكثر من هذه الأسس فتتهدد وحدتها الداخلية وتتعرض للتصدع. ما ينقذها في مثل هذه الحالات هو متانة أساسها الاستراتيجي، ومرونة إطار إدارتها، وحكمة أعضائها قيادة ومنتسبين.

سنة 1932 أسّس أنطون سعادة الحزب السوري القومي الاجتماعي في بيروت، وفق غاية واضحة، جعل من تحقيقها مهمّة أساسيّة أولى لأعضاء حزبه إن فشلوا فيها زالت عقيدتهم من الوجود وتبدّد أتباعها.

سبع وسبعون سنة مرّت على تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي وهو ما يزال بعيدًا جدًا عن تحقيق غايته وفق أيّ مقياس موضوعي. لماذا؟ هل كانت عقيدته خاطئة؟ هل كانت خطّته الأساسيّة قاصرة؟ هل كانت واهمة؟ هل لم يُحسَن تطبيقها؟ أم لعلّها أهملت!

يحاول هذا الكتاب الإجابة عن هذه الأسئلة علّ في ذلك إفادة للحزب السوري القومي الاجتماعي وسواه من المنظمات العقائدية في الوطن السوري والعالم العربي.



مؤسسة سعادة للثقافة

